لعنة الغواية

جبرييل جارسيا ماركيز
الفائز بجائزة نوبل في الأدب عام ١٩٨٢

REWAYAT AL-HILAL
No. 425 — August 1982



لعنة الغواية

رواية

بقلم

جبرييل جارسيا ماركيز

الفائز بجائزة نوبل في الأدب عام ١٩٨٢

ترجمة

محمود مسعود



دار الهلال

مقدمة

لئن كانت هذه الرواية هي الثالثة فيما نقدمه فى روايات الهلال من أعمال الكاتب الكولومبى الاشهر جابرييل جارسيا ماركيز الحائز على جائزة نوبل فى الادب « ١٩٨٢ » بعد روايتى « الضحية » و « ليالى الحب والرعب » المنشورتين فى ابريل ونوفمبر ١٩٨٣ — الا انها معدودة على النطاق الادبى العالمى قمة أعماله التى نيفت على العشرة ، حتى أصبحت احدى الشوامخ فى الفن الروائى قديمه وحديثه ، وجلبت له من الشهرة واليسر ما عوضه عن كفاحه الطويل لتحقيق هدفه كواحد من أبرز أعلام الادب المعاصر ، ومن ثم كان الاجدر أن نستهل بها رواياته فيما ننقله منها الى العربية لاول مرة ، لولا أن آثرنا أرجاءها الى مابعد نشر روايتيه آنفتى الذكر ، ليكون القارىء بعد تذوقهما أكثر توقا الى هذه الرائعة بصفة خاصة ، وأشد اقبالا عليها ، وأوفر قسطا من المتاع بها .. والواقع ان القارىء لا يملك الا أن يلهث طوال قراءتها وأن يستبق صحائفها حتى يشفى منها على النهاية بغير انقطاع ولا يلبث وهو متأثر أشد التأثر مبهور غاية البهر بما يجليه المؤلف من غرائب الاحداث وخوارق الوقائع ودخائل المشاعر ودقائق التحليلات وعظائم المفاجآت ، حشدها جميعا على صعيد واحد وعلى مدار عشرة عقود من الزمان لاسرة لعله لم يخلق مثلها فى التفرد والغرابة ، وكل ذلك فى اقتدار وبراعة بالغين ، وفى شمول جامع لا تند منه هنة من الهنات ، وفى أحكام وثيق لا تشرد فيه من أوله الى آخره شاردة ، متفردا فى كل أولئك بما لم يضارعه فيه سوى قلة قليلة من أساطين الفن الروائى من طراز هوجو وبلزاك ودوستويفسكى وتولستوى وتوماس مان وديكنز واضرابهم ... واذا كان لا يسوغ فى هذه العجالة أن نعرض لصلب الرواية ببيان قد ينال من متاع القارىء بها ، فان هذا لا يمنع من ازجاء بعض اللمحات الطائرة من وقائعها وشخوصها ومناحيها

الفكرية والنفسية والحسية ، لتكون مدخلا الى هذا الحشد القصصى الضخم ، وللقارىء بعد ذلك أن يستأثر وحده بالسياق الخصب والمتعة السائغة غير منقوصين – منوهين فحسب بأن الغواية كانت هى السمة المشتركة فيما تعاقب على ابطالها من أحداث وما أضطرم فيهم من نوازع ، وهى آفة ظلت لعنتها تطاردهم حتى آخر فرد من سلالتهم .. فاشهد معى على هذه اللمحات :

« ... لم يكن يعرف سر مولده قط ، ولكن تلك المرأة كانت تضرم النيران حامية فى عروقه كلما اقتربت منه .. كانت تذكى مشاعره بقوة خارقة مثلما كانت بالنسبة لابن المارد الهمجى ومن بعده عمه المحارب ، وعندما واتته الفرصة للانفراد بها اشتد هلعها وان عجزت عن مكاشفته بأمومتها له ، ولم يتركها الا على موعد ليلى ، ولكنه ظل طول ليله يتقلب على جمر من سعير عواطفه الى أن .. »

***

« ... ولقد ظل على عزلته وانطوائه الى أن حدث ما جعله يواجه واقع الدنيا بمقدم تلك المرأة التى حيته بمعرفة اكيدة لم تثر دهشته اذ كثيرا ماخلط الناس بينه وبين اخيه التوأم ، بيد انه لم يعمل على توضيح هذا الخلط ، وانتهى اللقاء بأن منحته حبها .. وبعد انقضاء اسابيع تحقق ان المرأة كانت تعاشره مع اخيه التوأم معتقدة انهما شخص واحد ... »

***

« .. وكادت الجدة تفقد عقلها بشذوذ اطوار ذريتها ، حتى لكأن نقائص الاسرة دون ما شىء من محامدها قد تركزت فيهم ، ولهذا نذرت فى نفسها أن تتولى بنفسها تربية وصياغة هذا الحفيد ليكون الرجل الفاضل الذى يعيد للاسرة مكانتها الذاهبة : الرجل الذى لا يغامر فى الحروب ، والذى لا يحترف مصارعة الديوك ، والذى لا يعاشر النساء الساقطات – وهى العوامل التى عدتها هادمة لكيان الاسرة على مدار المائة عام من تسلسلها .. الى أن روعت به فى النهاية وقد استحال الى ... »

***

« ... والحق أن هذه الفتاة التى لقبوها بالجميلة لم تكن مخلوقة لهذه الدنيا .. كانت الجدة الكبرى تحمد الله أن منح الاسرة فتاة لها مثل هذا الطهر الخارق ، وأن كان يقلقها فى نفس الوقت مثل

هذا الجمال الذى عدته شركا شيطانيا تحت طابع البراءة .. كانت الفتاة تؤثر البساطة فى كل شىء ، ولهذا داست على الازياء النسائية وخاطت لنفسها ثوبا فضفاضا كالجلباب غير مبالية بأنها تبدو فيه شبه عارية .. وحلقت شعرها بعد أن راتهم يؤنبونها لتركه مرسلا حتى الفخذين .. وكان الشىء المروع فى هذا كله أنها كلما تجاوزت عن العرف والتقاليد استجابة لبساطتها وعفويتها ، كلما بدا جمالها الصارخ اشد اثارة ، واغراؤها للرجال أعنف وأفدح ، ولم تدر أن قدرها الذى لا تبديل له كامراة مذكية للمشاعر مثيرة للاضطراب هو كارثة يومية محققة ، الى أن تحققت الكارثة و ... » .

***

« ... ولقد بلغت البلية ذروتها عندما جىء بالمولود الى البيت الكبير ... فاضطرت هذه التى اصبحت جدة قبل الاوان الى اخفائه عن العيان حتى تتدبر الامر ، بعد أن اعوزتها الشجاعة لاغراقه فى الصهريج تخلصا من العار ، ثم زعمت فيما بعد أنهم وجدوه فى سلة طافية فى النهر .. » .

***

« ... نشأت هى وهو فى رحاب البيت الكبير يلعبان ويلهوان طوال سنى الطفولة ... وبعد عودتهما الى البيت بعد طول السنين بصحبة زوجها المطواع الذى طوقت رقبته بحبل من حرير وجدت سليل الاسرة ورفيق الطفولة ماردا حتى لقبته بالمتوحش مداعبة .. واصبح ثلاثتهم كل الباقين فى البيت المهجور ... ولم تلاحظ أول الامر هذا التغيير الكبير الذى طرأ عليه منذ عودتها .. كان لايزال على انطوائه وحيائه عندما عانقته كأخت وتركته لاهث الانفاس ، يهرب ما استطاع من مداعبات تلك الخالة الفتية التى أصبحت تقض مضجعه وتسمم لياليه .. الى أن جاء ذلك اليوم المستطير الذى أبصرها فيه برداء الحمام ، فتبعها على أطراف اصابعه و ... » .

***

« ... وشد ماكان ارتياعهما عندما اكتشفت القابلة أن آخر سلالة الاسرة هذا الذى تلقفته لتوها من بطن امه له ذيل خنزير .. اذن فقد صدقت الاسطورة التى توارثتها الاسرة جيلا بعد جيل من ان تزاوج الاقارب يثمر هذا المسخ الشيطانى ... » .

« ... ومضى رغم ذلك فى حياته الماجنة العابثة معرضا عن زوجته ، فقد عد ان ماناله من ثراء موفور انما كان وليد علاقته بتلك العشيقة ، مذ كانت الافراس تلد ثلاثا كل مرة ، والدجاج يبيض مرتين فى اليوم ، والخنازير تسمن بسرعة غريبة ، الى درجة ان احدا لم يصدق هذه الخصوبة الغريبة الا اذا كانت من قبيل السحر الاسود ... » .

***

هكذا ترى ان الفواية كانت هى القاسم المشترك فى حياة هذه الاسرة الغريبة نساء ورجالا حتى امتدت لعنتها الى آخر سليل منهم .. وانما أروع مافى هذا كله هو قدرة هذا المؤلف القدير على حشد أجيال الاسرة جميعا بين دفتى روايته ، وربط أحداث حيواتهم برباط وثيق لاتفكك فيه ، وتحليل نزعاتهم ومشاعرهم ذلك التحليل النافذ العمق الى الدخائل ، وان اقتضى ذلك تعرية شتى منازعهم على حقيقتها بغير مداراة ولا تزويق — حتى تجدك تتقلب فى عالم مائج صاخب فوار ، ولكنه يمتع عقلك ، ويذكى خيالك ، ويستأثر باعجابك بالكاتب الذى نوهت لجنة جائزة نوبل بأن من أسباب استحقاقه للجائزة العالمية اسلوبه الفذ الذى يجمع بين الخيال والواقع ، وهو الكاتب الذى ظل مدى ستة عشر عاما يفكر فى هذه الرواية وهى تختمر فى ذهنه وتعتمل فى وجدانه حتى اكتملت لديه عناصرها ، فتوفر على تأليفها قرابة عامين متخليا عن كافة شئون أسرته الى زوجته على الرغم من ثقل اعبائه ، حتى اذا اتسقت له عملا سنويا ناضجا وتم نشرها أكسبته شهرة مستفيضة، ودرت عليه يسرا عوضه عن بأساء حياته الفانية . وتربعت عملا مجيدا فى عداد التراث الادبى العالمى ..

***

وبعد ، فما أحسبنى والقارىء مشوق الى الرواية ذاتها دون مزيد من الافاضة بحاجة الى التحدث عن سيرة المؤلف تفصيلا وقد اوردتها باسهاب فى روايتيه سالفتى الذكر ، وانما اجتزىء هنا ببيان أهم اعماله وهى حسب تسلسل صدورها منذ عام ١٩٥٣ حتى الان : « عيون الكلب الازرق » — « الاوراق الذابلة » —(أرينديرا وجدتها القاسية ، وقد صدرت بعنوان الضحية) — (مأتم الام الكبرى) — (ساعة النحس ، وقد صدرت بعنوان : ليالى الحب

والرعب) — (لا أحد يكتب الى الكولونيل) — (مائة عام من العزلة ، الرواية الحالية بعنوان : لعنة الفواية) — (خريف البطريرك) — (وقائع موت معلن عنه) .

والى اللقاء فى التحفة الرابعة من روائع هذا الكاتب المبرز . نجلوها الى القارىء فى عدد قادم من روايات الهلال بعون من الله وهو ولى التوفيق .

محمود مسعود

الفصل الأول

كان على الكولونيل (أورليانو بوينديا) أن يتذكر بعد طول السنين وهو يواجه فريق الرماة بالرصاص ، عصر ذلك اليوم البعيد عندما صحبه ابوه لاكتشاف الثلج ... فى ذلك العهد كانت (ماكوندو) قرية مؤلفة من عشرين بيتا من الطوب النيىء ، بنيت على ضفة نهر صافى المياه تبدو فى قاعه أحجار مصقولة أشبه فى بياضها وضخامتها ببيض حيوانات ماقبل التاريخ ... وكانت الدنيا غضة الى حد ان كثيرا من الاشياء كانت تنقصها المسميات ، فيستعان على وصفها بالاشارة ... وفى كل عام كانت تفد على القرية فى شهر مارس أسرة من (الفجر) المهلهلين ، تنصب خيامها خارج القرية ، وبين لعلعة المزامير ودق الطبول المدوية تأخذ فى عرض العديد من المخترعات .. وكان اول ما جاءوا به هو المغناطيس .. ووقتها قام « غجرى » منهم متين البنيان منفوش اللحية قدم نفسه باسم (مالكويداس) بعرض جرىء سماه العجيبة الثامنة لعلماء الكيمياء المتنورين فى مقدونيا .. ومن بيت الى بيت راح يجر كتلتين معدنيتين ، فيثير ذهول الناس اذ يبصرون أوانيهم المعدنية وهى تتهاوى من مواضعها ، واذ يسمعون الالواح الخشبية وهى تصر صريرا بتأثير حركة المسامير وهى تكاد تنتزع من اماكنها ، بل واذ يرون كثيرا من الاشياء التى كانت مفقودة بعد طول بحث وتفتيش تظهر من مخابئها وتسحب سحبا فى إثر كتلتى مالكويداس السحريتين .. وفى ذلك كان مالكويداس يقول للناس المذهولين بصوته الاجش : « لكل شيء من الاشياء حياته الخاصة .. والمسألة ببساطة هى بعث اليقظة فى أرواحها » !.. وعندئذ فكر (جوزيه أركاديو بوينديا) الواسع الخيال فى انه من الممكن الانتفاع بهذا الاختراع العديم الجدوى فى استخراج الذهب من باطن الارض ... ولكن مالكويداس الذى كان رجلا قويما قال له : « ان الاختراع

لا يتمشى مع هذا » .. بيد أن جوزيه لم يكن يؤمن فى ذلك الحين باستقامة (الفجر) ، وهكذا قايض على كتلتى المغناطيس ببغلته وعنزتين .. ولم تستطع زوجته (أورسولا اجواران) التى كانت تعتمد على هذه الحيوانات فى زيادة دخلهما المتواضع ان تثنيه عن عزمه ، اذ قال لها : « عما قريب سيكون عندنا من الذهب مايكفى لتبليط أرضية البيت » .. وقد ظل شهورا طويلة يعمل دائبا لاثبات صحة فكرته .. فراح يستكشف كل شبر فى المنطقة ، حتى قاع النهر ، ساحبا كتلتى المغناطيس ومرددا تعاويذ مالكويداس بصوت مسموع .. وكان الشىء الوحيد الذى افلح فيه هو استخراج جسم مدرع من القرن الخامس عشر تصلبت أجزاؤه بفعل الصدأ.. وعندما تمكن جوزيه وأفراد بعثته الاربعة من تفكيك الدروع ، لم يجدوا بداخلها سوى هيكل عظمى متكلس تدلت حول عنقه أيقونة نحاسية بها شعر امرأة !..

وفى مارس من كل عام كان (الفجر) يعودون الى القرية وفى جعبتهم اختراع جديد .. جاءوا مرة بتلسكوب وعدسة مكبرة بحجم طبلة ، فجعلوا امرأة منهم عند طرف القرية ووضعوا التلسكوب فى مدخل خيمة ، وبثمن قدره خمسة سنتات بالعملة المحلية كان فى مقدور من يدفع أن ينظر من التلسكوب فيبصر المرأة (الفجرية) على قيد ذراع منه ، لا أكثر .. وكان مالكويداس يقول فى هذا : « ان العلم قد ألغى المسافات ... وبعد زمن قصير سيكون فى قدرة الانسان أن يرى مايحدث فى أى مكان فى العالم دون أن يغادر بيته » !..

وفى عرض مثير آخر وقت الظهيرة سلطوا العدسة المكبرة الضخمة على كوم قش فى وسط الشارع ، فاشتعلت نار حامية أتت عليه عن آخره ...

وسرعان ما أوحى ذلك بفكرة جريئة الى (جوزيه اركاديو بوينديا) تعزيه عن الفشل فى استغلال المغناطيس لاستخراج الذهب ، وهى استخدام هذا الاختراع » كسلاح حربى ... وهكذا قايض مالكويداس على اقتناء العدسة مقابل كتلتى المغناطيس وثلاث قطع من العملة الذهبية مما ورثته زوجته عن أبيها ؛ وكانت تخفيها فى الارض تحت الفراش انتظارا لاستغلال القطع كلها استغلالا نافعا فى المستقبل ، غير عابىء ببكائها وحزنها ... واثباتا لاثار العدسة

المحرقة على جنود العدو ، فقد عرض جسده لاشعة الشمس المركزة من خلال العدسة الضخمة ، وكانت النتيجة اصابته بحروق خطيرة كادت تودى بحياته واستغرق وقتا طويلا للشفاء منها ، بل لقد تعرض البيت كله للحريق !.. ومع ذلك سرعان مانشط جوزيه لاعداد تقرير مفصل عن اختراعه الخطير الذى سماه (الحرب الشمسية) وبعث به مع رسول خاص الى الحكومة مبديا تمام استعداده للسفر وشرح كافة التفاصيل وتدريب الجنود على استخدام السلاح الفتاك متى جاءته الموافقة .. ولكن الرسول كاد يهلك فى الطريق الى العاصمة بين الجبال والمستنقعات والقفار .. وظل جوزيه ينتظر سنوات عديدة حتى يئس من وصول الرد .. ولما عاد مالكيداس فى رحلة (الغجر) السنوية واستمع الى شكوى جوزيه المحزونة بسبب فشل مشروعه الحربى ، طيب خاطره ورد اليه القطع الذهبية مقابل استعادة العدسة المكبرة ، ثم أتحفه هذه المرة – تدليلا على اخلاصه ومودته – بخرائط جغرافية وأدوات ملاحية وفلكية ، افرد لها جوزيه غرفة صغيرة خلف البيت وعكف على اجراء تجاربه العلمية ، مهملا شئون أسرته ، تاركا زوجته وولديه يقصمون ظهورهم فى فلاحة الارض لاستنبات ما يأكلون .. وكم روع أفراد الاسرة كلها ذات يوم من شهر ديسمبر عندما جمعهم وقال لهم برصانة وجد بالغين : « لقد اكتشفت من أبحاثى العلمية والفلكية أن الارض مستديرة ، مثل برتقالة .. » .

عندئذ لم تتمالك زوجته أورسولا أن صرخت فيه : « اذا كان لابد أن تجن ، فلتجن وحدك ! .. لكن لا تحاول أن تبث ترهات الغجر فى عقول اطفالك ! » ...

بيد ان جوزيه لم يتأثر بما ابدته زوجته من جزع ويأس ، فقد جمع رجال القرية وشرح لهم نظريته بأن الانسان يستطيع أن يعود الى المكان الذى يبدأ منه رحلته اذا واصل الابحار شرقا .. ولكنه زادهم اقتناعا بأنه فقد عقله ، وظل الحال كذلك الى ان عاد مالكيداس واثنى بينهم علنا على ذكاء رجل منهم استطاع باستدلالاته المحضة اثبات النظرية التى تم اثباتها فعلا وعملا فى العالم الخارجى ، وان لم تكن معروفة من قبل فى القرية ، وتأكيدا لفرط اعجابه بهذا الرجل القدير فقد اهداه شيئا كان مقدرا ان يكون له تأثير عميق على مستقبل ماكوندو : الا وهو (معمل كيميائى) ...

كان المعمل البدائى يشتمل على مجموعة كاملة من الانابيب والقنانى والاوانى الزجاجية العجيبة ، الى جانب مختلف الاحماض والمساحيق والمعادن التى قيل ان بينها المعادن السبعة الرامزة الى الكواكب السبعة ... ولما كان جوزيه قد استهوته سهولة الوصفات التى اطلع عليها لمضاعفة أية كمية من الذهب ، فقد راح يتودد الى أورسولا مدى أسابيع لكى تسمح باخراج جنيهاتها الذهبية المدفونة تحت السرير ، حتى يعمل على مضاعفتها لها أضعافا كثيرة .. وفى النهاية لم تستطع أورسولا سوى النزول على رغبة زوجها ازاء الحاحه واصراره ... وعندئذ القى جوزيه الجنيهات فى اناء وخلط بها مقادير من النحاس والكبريت وكبريتور الزرنيخ والرصاص ، ثم جعلها تغلى فى وعاء به زيت الخروع حتى استحالت الى سائل كثيف بدا فى شكله أقرب الى (الكراملة) العادية منه الى الذهب الثمين .. وبعد عمليات خطرة للتقطير ثم الخلط بالمعادن الكوكبية السبعة والزئبق ثم التبريد فى النهاية – اذا ميراث أورسولا المسكينة يتحول الى كتلة محترقة التصقت فى قاع الاناء التصاقا لا فكاك منه !.

كانت هذه التجربة المريرة باعثة على حزن جوزيه حتى نفض يديه بين عشية وضحاها من القيام بمزيد من التجارب فى عالم الكيمياء.. وانصرف عن كل شىء حتى الاكل ، وراح يدور فى أرجاء البيت مغموما ، ولكنه كان يقول لزوجته أورسولا : « هناك أشياء لا تصدق تحدث فى الدنيا .. فيما وراء النهر الذى يحد قريتنا ، هناك كل انواع الادوات السحرية العجيبة ، ونحن نعيش هنا كالحمير » !..

والحق أن (جوزيه اركاديو بويندیا) كان طوال شبابه مجدا مكافحا متفانيا فى رعاية أسرته ومتعاونا مع جيرانه فى العمل على رفاهية القرية ، واليه يرجع الفضل فى تخطيط ماكوندو على نظام منسق بديع حتى أضحت بسكانها الثلاثمائة أفضل من كل قرية اخرى معروفة فى ذلك العهد ، لا يزيد عمر كل فرد من ابنائها عن الثلاثين ، ولم تحدث فيها وفاة واحدة ...

بيد ان هذه الروح الاجتماعية الوثابة ما لبثت أن اختفت بعد ظهور حمى المغناطيسات ، والادوات والحسابات الفلكية ، وأحلام تحويل المعادن الى ذهب ، ومضاعفة مقاديره ، وشهوة اكتشاف عجائب العالم .. وهكذا استحال جوزيه من انسان نظيف نشط

الى شخص كسول فى مظهره مهمل فى ملابسه اشعث اللحية حتى اضطرت اورسولا الى تقليمها له بعد جهد كبير مستعينة بسكين المطبخ .. وكثيرون هم الذين اعتقدوا انه أصبح ضحية لون من السحر غامض خفى ...

وفى هذا قالت له أورسولا ذات يوم :

ــ بدلا من ان تنهمك هكذا فى اختراعاتك الجنونية ومشروعاتك المتهوسة ، يجب أن تنشغل بتربية اولادك ... انظر الى الحالة التى وصلوا اليها ، وهم يجرون فى كل مكان شاردين مثل الحمير ! ..

وفعلا نظر جوزيه من النافذة ، فشاهد ولديه يلعبان فى الحديقة حافيين ، وبدا له انه لم يشعر بوجودهما الا فى هذه اللحظة ... وظل يتأملهما حتى تندت عيناه بالدموع ، وما لبث أن جففها بظهر يده ، وقال وهو يتنهد ممتثلا :

ــ لا بأس ... قولى للولدين ان يأتيا لمساعدتى فى جمع أدواتى ..

كان (جوزيه اركاديو) الابن الاكبر فى الرابعة عشرة .. وكان مربع الرأس ، كثيف الشعر ، يماثل أباه فى متانة البنية ، ولكن يقصر عنه فى التفكير وقوة التخيل .. وكان مولده أثناء رحلة الاسرة بين الجبال ، قبل تأسيس قرية ماكوندو ، وقد حمد ابواه ربهما اذ لم يولد بملامح حيوانية ... وكان (اوريليانو) ، أول مخلوق بشرى ولد فى ماكوندو ، يناهز السادسة من عمره ، وكان أميل الى الصمت والعزلة والانطواء .. لقد سمع بكاؤه وهو لا يزال فى رحم امه ، وولد وهو مفتوح العينين ... وعندما قطعوا الحبل السرى جعل يدير رأسه من جانب لجانب متطلعا الى مافى الغرفة من أشياء ومتفحصا الوجوه من حوله بفضول لايخالطه أى خوف ... وبعدها لم يعبأ بمن اقتربوا منه للنظر اليه ، وركز نظراته فى السقف المصنوع من النخيل والذى بدا كأنما يوشك ان يخر تحت وطأة المطر الدافق المنهمر ..

ومنذ تلك اللحظة التى استرعت فيها أورسولا نظر الاب الى ولديه ، عكف جوزيه على تعليمهما القراءة والكتابة ومبادىء الحساب ، ولم يفته أن يحدثهما عما فى العالم الخارجى من عجائب، مضيفا اليها حصيلته الذاتية من التخيلات والاحلام ، بل والتخرصات والاوهام ..

والواقع ان هذه (الهلوسة) ظلت محفورة فى ذاكرة الصبيين الى حد بعيد ، حتى أن (الكولونيل اوريليانو) لم ينس بعد طول السنين (وهو واقف امام فريق الرماة ينتظر اشارة الضابط لاطلاق النار) مشهد ابيه عصر ذلك اليوم الحار من شهر مارس ، اذ قطع درس الفيزياء الذى كان يلقنه لولديه ، ووقف مبهورا رافع اليد جامد العينين ، مرهفا سمعه الى الاصوات البعيدة المتدانية الصادرة عن زمور وطبول « الفجر » القادمين الى القرية مرة أخرى ، ليتحفوا أهلها بمزيد من أعاجيب العالم الخارجى ...

كانوا فى الحق طرازا جديرا من (الفجر) ، شبانا ونساء لايتكلمون سوى لغتهم ، لهم بشرة زيتية وأيد بارعة ، بثت رقصاتهم وموسيقاهم البهجة والروع فى الشوارع ، ومعهم ببغاوات من كل الالوان ترطن الايطالية ، ودجاجة تضع مائة بيضة ذهبية على دق الدفوف ، وقرد مدرب يقرأ الطالع ، وجهاز متعدد الفوائد التى تشمل الشفاء من الحميات ومساعدة الانسان على نسيان ذكرياته الاليمة ، وعشرات أخرى من (المخترعات) المبتكرة الفريدة ، حتى ان (جوزيه اركاديو بويندیا) ود لو استطاع أن يخترع هو نفسه جهازا للذاكرة يمكنه من استيعاب كل هذه العجائب واختزانها جميعا فى وعيه !..

فى لحظة واحدة سحر (الفجر) القرية كلها .. والفى سكان ماكوندو أنفسهم تائهين فى شوارع قريتهم ، مذهولين من فرط مايرون من الاعاجيب ...

وراح (جوزيه اركاديو بويندیا) وهو ممسك بولديه حتى لا يضيعا فى غمار الزحام يشق طريقه بين بهلوانات ذوى أسنان مذهبة وحواة ذوى ستة أذرع وروائح خانقة من السباخ والاتربة ، باحثا عن مالكويداس لكى يكشف له عن مزيد من الاسرار .. وفى هذا سأل عديد (الفجر) الذين لم يفهموا لغته ، الى أن وصل فى النهاية الى الموضع الذى اعتاد مالكويداس أن ينصب فيه خيمته .. فوجد ارمنيا كان يعلن بالاسبانية عن شراب يجعل الانسان مخفيا عن العيان .. فقد شرب كأسا من مادة عنبرية بجرعة واحدة عندما اقترب منه جوزيه مع ولديه بين الجمع المنبهر لمشاهدة هذه

الخوارق ، واستطاع جوزيه أن يتجه اليه بسؤاله ... واذا (الفجرى) يرميه بنظرة شاملة مخيفة قبلما تحول الى بركة دخانية خانقة تردد من فوقها صوته وهو يقول : « ان مالكويداس قد مات » ...

لقد حزن جوزيه لهذا النبأ الاليم وجمد فى مكانه برهة الى أن تفرق الجمع منجذبين الى فنون الالعاب السحرية الاخرى تبخرت فى خلال ذلك بركة الارمنى الدخانية ... وتحت اصرار ولديه لرؤية اعجوبة الاعاجيب المعلن عنها انتقل معهما الى خيمة أخرى دخلوا اليها بعد دفع ثلاثين سنتا ، فشاهدوا ماردا أشعر الجسد حليق الرأس تتدلى من انفه حلقة نحاسية وتلتف حول كاحله سلسلة حديدية ثقيلة وامامه صندوق قرصانى كبير .. وعندما فتح المارد الصندوق انبعثت منه رائحة ثلجية ... ولم يكن بداخله سوى كتلة شفافة ضخمة بداخلها ابر لا عداد لها وقد تكسر عليها ضوء الغروب بنجوم ملونة .. واجترأ جوزيه ان يغمغم لولديه بتفسير لابد منه :

ـ هى اكبر ماسة فى الدنيا ...

ولكن المارد رد عليه مناقضا :

ـ لا ... انها ثلج ...

لم يفهم جوزيه ، ومد يده فى اتجاه الكتلة الكعكية ، بيد أن المارد ردها قائلا :

ـ خمسة سنتات أخرى نظير اللمس ...

فدفع جوزيه ، ووضع يده على كتلة الثلج . وأبقاها بضع دقائق وقد امتلأ قلبه بالخوف والبهجة معا للمس هذا الجسم الخفى .. وما لبث أن دفع عشر سنتات أخرى تمكينا لولديه من ملامسة هذه الخارقة دون أن يحير قولا .. فاما (جوزيه اركاديو) الابن الاكبر فقد رفض اللمس .. واما (أوريليانو) فقد تقدم خطوة ووضع يده عليها ثم سحبها فى الحال هاتفا : « انها تغلى ! » ... ولكن جوزيه الاب الذى أسكرته هذه المعجزة فقد نسى مشروعاته المحمومة وحزنه لفقد مالكويداس معلمه ومشيره الحكيم ودفع خمسة سنتات أخرى ووضع يده من جديد على الكتلة المتلألئة بخشوع وقداسة ، وهتف قائلا :

ـ هذا أعظم اختراع فى زماننا !..

الفصل الثانى

كان سر اهتمام (جوزيه اركاديو بوينديا) بالثلج هو حلم تراءى له فى منامه ذات ليلة وهو فى الطريق الى ماكوندو لاول مرة ، عن مدينة جدرانها من المرايا ... ولم يستطع أن يفسر هذا الحلم الا يوم اكتشف الثلج عند (الفجر) ... وقد بدا له انه سوف يستطاع فى المستقبل القريب صنع كتل هائلة من الثلج على نطاق واسع من مادة عادية كالماء ، ومن الكتل تبنى بيوت جديدة للقرية ، وهكذا لا تبقى ماكوندو مكانا يتلظى بالحرارة ، بل تتحول الى مدينة تحتمل الحياة فيها .. واذا كان لم يثابر فى محاولاته لاقامة مصنع ثلج ، فذلك لانه كان فى ذلك الحين منهمكا أشد الانهماك فى تعليم ولديه ، خصوصا أوريليانو ، الذى تعلق منذ البداية بالكيمياء .. وقد عكف الاثنان فعلا على محاولة فصل بقايا ثروة أورسولا الذهبية الملتصقة بقاع الاناء واستخلاص مايمكن استخلاصه منها .. أما (جوزيه اركاديو) الابن الاكبر فقد عزف عن المشاركة فى هذه المحاولة .. والواقع أن هذا الابن كان ذا ارادة وعزم ، وقد نما جسمه بصورة مفرطة ، حتى اذا بلغ سن المراهقة كان أقرب الى صورة مارد .. وفى تلك الايام ترددت على البيت امرأة عرفت بالمرح والاثارة وطلاقة اللسان للمساعدة فى أعمال المنزل ، وكانت تعرف قراءة الطالع بأوراق اللعب ... وقد حدثتها أورسولا عن ولدها وعن خشيتها من حجمه المجاوز لسنه ، فأطلقت المرأة ضحكة رنانة وقالت لها : « بل بالعكس ، انه سوف يكون سعيد الطالع » ... ولكى تثبت المرأة نبؤتها جاءت الى البيت بعد أيام قلائل ومعها أوراق كشف الطالع وأغلقت على نفسها الباب مع الفتى فى غرفة خلفية ... فكانت هذه الخلوة ايذانا بانقلاب خطير فى أطواره وإذكاء مشاعره العاطفية ...

كانت هذه المرأة تدعى (بيلار تيرنيرا) ، وكانت من أفراد الفريق الذى وفد مع جوزيه الاب لتأسيس ماكوندو ، جاءت بها أسرتها عنوة للتفريق بينها وبين الرجل الذى أغواها وهى فى سن الرابعة عشرة وظلت علاقتهما سرا حتى بلغت الثمانية والعشرين دون أن يحسمها بالزواج ...

فهل كان عجبا ان تجد هذه المراة فى جوزيه الابن خير عوض لها عما فقدته فى ذلك العشيق الآبق ؟ ... بل انها تمادت فى هـذا الى حد انه أصبح يتسلل كل ليلة الى بيتها فى غفلة من اهله وأهلها ..

وكان جوزيه الابن يجلس نهاره غارقا فى ذكريات نشوته الجديدة حتى انه لم يكد يفهم معنى لهذه الضجة التى شملت البيت كله فجأة عندما راح ابوه واخوه الاصغر أورليانو يعلنان فى بهجة غامرة نبأ نجاحهما اخيرا فى استخلاص ذهب أورسولا من قاع الاناء وتنقيته مما علق به من شوائب .... وكانت أورسولا سعيدة غاية السعادة بهذه النتيجة ، الى حد أنها راحت تحمد الله من اجـل اختراع الكيمياء ، وذهبت تقدم الحلوى والفاكهة الى أهـل القرية الذين توافدوا على الدار لمشاهدة هذه العجيبة ، وكان جوزيه الاب يريهم الذهب مزهوا وكأنه استنبطه من لا شىء .. وفى النهاية وقف به أمام ابنه الأكبر الذى لم يكن يراه فى المعمل الكيميائى فى الايام الاخيرة الا نادرا ، وسأله :

ـ كيف تراه ؟...

فأجاب جوزيه الابن ببساطة :

ـ مثل براز كلاب ...

فما كان من الاب الا أن لطمه بظهر يده لطمة اسالت دمه ودموعه ... وفى تلك الليلة وضعت له بيلار تيرنيرا (كمادات) فوق الورم ، وبذلت له من حبها ماجعله يهمس فى سمعها لئلا يسمعه أحد من أهلها وهما فى غرفة نومها :

ـ أريد أن أكون معك وحدنا .. سيأتى يوم أقول فيه للنـاس ما بيننا ، وبعدها لانحتاج الى هذا التستر !..

فقالت له دون ان تحاول صده :

ـ لو تم هذا لكان شيئا جميلا .. اذا أصبحنا وحدنا فسيكون بالامكان ان نترك المصباح مضاءا لكى أراك وترانى ، بدل هذا الظلام من حولنا ، وسيكون لى أن ارفع الصوت وأصرخ دون أن يتدخل احد ، وسيمكنك أن تقول لى علنا مايخطر ببالك !...

ان هذا الحوار الهامس ، وغضبه لما ناله من أبيـه ، وتشـوقه للانطلاق فى غرامه هذا الى ابعد مدى ـ كل هذا قد بث فيه روح الجراة ، حتى اندفع فى لحظة عفوية الى مكاشفة اخيه بكل شىء .. واول الامر لم يفهم أورليانو الصغير سـوى فكرة المجـازفة ،

واحتمال الخطر الذى تعنيه مغامرة اخيه ، ولم يسـتطع ان يفهم الاثارة التى اشتملت عليها .. وشـيئا فشيئا سرت اليه عدوى القلق ، وأصبح يتساءل فى نفسه عن كنه الاخطار ويتلمس تفاصيل المعاناة والبهجة التى يتعرض لها أخوه ـ حتى لقد جعل يسـهر انتظارا لعودته حتى الفجر ... ولم يطل بهما الوقت حتى أصبحا يكابدان آثار السهر ، ويشتركان فى العزوف عن الكيمياء وما يبثه فيهما الاب من تعاليم وحكمة ، ولم يجدا ملاذا الا فى العزلة والانطواء ... وعندما فطنت أورسولا الى حالهما قالت :

ـ ان الولدين قد اختل عقلهما .. لابد أن عندهما ديدانا ...

وبادرت فأعدت لهما (شربة) كريهة ارغمتهما على تناولها حتى لقد تبرز كلاهما احدى عشرة مرة فى يوم واحد . مفرزين طفيليات وردية اللون أبهجهما أن يرياها للجميع ، اذ هيأ لهما ذلك خداع أورسولا وتحويل نظرها عن المصدر الحقيقى لاضطراب أحوالهما ..

وفى الساعة الثانية من صباح يوم خميس فى يناير وضعت أورسولا الحامل فى شهرها التاسع ابنتها (امارانتا) .. وعندما فحصتها الام وهى وحدها وجدتها خفيفة مائية مثل ورل صغير ، ولكنها حمدت الله اذ كانت كل اعضائها بشرية (كان هذا الخوف المتكرر من جانب الام عقب كل ولادة مرجعه الى أسطورة مؤداها أن زواجا بين اثنين من أسلاف اسرتها وأسرة زوجها من الاقارب قد أنجب ولدا له ذيل خنزير وقد عاش متخفيا حتى سن الاربعين فى ملابس فضفاضة الى أن قطع قصاب ذيله بسكين فنزف حتى الموت) ...

ومهما يكن فان اورليانو لم يلاحظ هذا الحدث الجديد الا عندما امتلأ البيت بالناس .. فانتهز فرصة الهرج وخرج للبحث عن أخيه الذى لم يبت معه فى الفراش منذ الساعة الحادية عشرة ، وكانت هذه الفكرة مفاجئة اذ لم يخطر بباله كيف يمكنه استدراج أخيه من غرفة بيلار تيرنيرا فى بيت أهلها .. لقد راح يدور حول البيت مدى ساعات ، مصفرا بنداءات خاصة بهما ، الى أن اضطره اقتراب الفجر الى العودة الى داره .. وفى غرفة النوم وجد (جوزيه اركاديو) يلعب باخته الوليدة وعلى وجهه مخايل التظاهر بالبراءة !..

وما ان جاوزت أورسولا فترة (أربعينها) حتى عاد (الغجر) الى القرية فى دورتهم السنوية .. وكانوا هم نفس المشعوذين والحواة الذين جاءوا معهم بالثلج من قبل .. وقد أظهروا منذ البداية أنهم

على عكس قبيلة مالكويداس ليسوا رسل تقدم وانما أعوان ترفيه وتسلية ، وكانت كل معروضاتهم وأدواتهم من هذا الطراز ...

ولقد أمضى « جوزيه أركاديو » الابن وبيلار تيرنيرا أوقاتا بهيجة وهما يتفرجان على ألعاب (الفجر) ، الى أن فاجأته بيلار ذات مرة بنبأ قلب الدنيا فوق رأسه ، اذ قالت له :

ــ الان انت رجل فعلا ...

ولما لم يفهم قصدها ، عاجلته قائلة :

ــ سوف تصبح أبا ..

لم يجسر (جوزيه اركاديو) الابن على مغادرة بيته مدى أيام .. وكان يكفى أن يسمع ضحكات بيلار الرنانة فى المطبخ لكى يهرب ويلجأ الى المعمل الكيميائى ، حيث كانت تجارب ابيه تجرى الان على قدم وساق بمباركة من أورسولا .. والواقع أن « جوزيه أركاديو بوينديا» الاب تلقى ابنه الآبق بالبهجة وأشركه معه فى البحث عن « حجر الفلاسفة » ، وهى أحدث محاولاته .. ولكن على الرغم من تظاهر الابن بالاهتمام ، فانه لم يفلح فى الهروب من عنائه .. وأفضى به الامر الى فقد الشهية ومجافاة النوم .. وانحاز الى الاكتئاب والغم ، حتى اعفاه أبوه من المساعدة فى المعمل الكيميائى ظنا بأنه لا يجد القابلية لذلك .. وقد فهم أوريليانو بالطبع أن اكتئاب أخيه لا علاقة له بالبحث عن (حجر الفلاسفة) ، وان كان لم يستطع أن ينفذ الى دخائله بعد أن آنس منه الصمت والانطواء والبعد عن كل تبسط كما كان حاله فى الماضى ...

وذات ليلة عندما ثقلت عليه الوحدة التى أصبح (جوزيه اركاديو) الابن يعانيها واشتدت نقمته على الدنيا ومن فيها ــ ترك فراشه كالمعتاد ، بيد أنه لم يذهب الى بيت بيلار تيرنيرا ، وانما يمم شطر ملعب (الفجر) ، حيث راح يتفرج على العروض ويطوف بأرجاء الملعب على غير هدى .. الى أن استرعت نظره فتاة (غجرية) صغيرة السن كانت مثقلة العقود وبدت فى نظره أجمل امرأة فى الدنيا ، وقد وقفت بين الجمع الذى كان يشاهد الرجل الذى تحول الى أفعى لانه عصى أبويه ..

لم يعبأ (جوزيه أركاديو) بالعرض ، وشق طريقه الى حيث وقفت الفتاة فى الصف الاول ، فوقف عن كثب منها ، وأخذ يقترب منها الى أن شعرت الفتاة باهتمامه بها وتبسمت له .. وفى النهاية

صحبته الى خيمتها حيث تبادلا القبلات والعناق ...

كان ذلك يوم الخميس .. وفى ليلة السبت لف (جوزيه اركاديو) الابن منديلا أحمر حول رأسه وارتحل مع (الفجر) ...

وعندما اكتشفت أورسولا غيابه بحثت عنه فى كل أنحاء القرية ... ولم يبق فى الساحة التى أقام فيها (الفجر) سوى بقايا النيران الخابية .. وتطوع واحد من أهل القرية فقال لها انه كان هناك فى الليلة الماضية وشاهد ابنها فى الزحام يدفع العربة التى تحمل قفص الرجل الافعى .. وصرخت الام لزوجها :

ــ لقد أصبح واحدا من (الفجر) !..

فقال الاب الذى لم ينزعج لاختفاء ابنه وهو يطحن فى الهاون مواده الكيميائية للمرة الالف :

ــ ياليت هذا يكون صحيحا .. بهذه الطريقة سوف يتعلم كيف يصبح رجلا !..

وراحت أورسولا تسأل عن الطريق الذى سلكه (الفجر) فى رحيلهم ، ظنا منها بأنها تستطيع اللحاق بهم .. وتبعت هذا الطريق الى أن ابتعدت عن القرية مساحة كبيرة لاتستطيع ازاءها العودة ...

ولم يعرف « جوزيه أركاديو بوينديا » بغياب زوجته حتى كانت الساعة الثامنة ليلا ، فترك خلائطه الكيمياوية تبرد وذهب لرؤية أمارانتا الوليدة التى بح صوتها من الصراخ ... وبعد ساعات جمع بضعة رجال مزودين بما يلزم وعهد بالمولودة الى امرأة أبدت استعدادا لرعايتها ، وغاب عن الانظار مع رفاقه فى اثر أورسولا ... وكان أوريليانو معهم ... وأبلغهم بعض الصيادين الهنود بالاشارات وهم لا يفهمون لغتهم أنهم لم يشاهدوا أحدا يمر فى الطريق الذى سلكوه .. وبعد ثلاثة أيام من البحث العقيم عادوا أدراجهم الى القرية ...

ومضت أسابيع غير قليلة أطلق فيها جوزيه الاب العنان لجزعه... وفى خلال ذلك عكف على رعاية امارانتا الصغيرة كأم .. فكان يحميها ويلبسها ، وكان يدفع بها الى المرضعة أربع مرات فى اليوم ، بل جعل يغنى لها فى الليل الاغنيات التى لم تكن أورسولا تعرف كيف تغنيها ...

وفى احدى المناسبات تطوعت بيلار تيرنيرا بالقيام بالاعمال البيتية الى حين عودة اورسولا ... وقد أحس أوريليانو ببديهته التى شحذتها هذه البلوى أن هذه المرأة مسئولة على نحو مبهم لم يستطع

ادراكه عن سبب هروب اخيه وما تلاه من اختفاء أمه ، فبادرها بعداء صامت لا هوادة فيه حتى كفت المرأة عن الحضـــور الى الدار ...

وفجأة ، بعد خمسة أشهر كاملة من اختفاء أورسولا ، اذا هى تعود على غير انتظار ...

جاءت فى حالة ابتهاج ونضارة ، مرتدية ملابس جديدة من طراز لم يكن معهودا فى القرية ... ولم يكد جوزيه الاب يستطيع أن يقيم عوده من وطأة المفاجأة ، حتى صاح قائلا :

ــ هذا هو ماكنت اعتقده !.. كنت أعرف ان هذا سيحدث !..

وكان ذلك يقينه حقا .. ففى خلال عكوفه الطويل بين معادنه ومواده الكيميائية ، كان يدعو فى أعماق نفســـه أن تكون المعجزة المنتظرة ليس اكتشاف (حجر الفلاسفة) ، ولا استخلاص الروح الخفية التى تجعل المعادن تتبدل كأنما دبت فيها حياة جديدة ، ولا القدرة على تحويل اقفال ومفصلات الابواب الى ذهب ــ بل تكون المعجزة هى ماحدث فعلا ــ اى عودة أورسولا !..

بيد أن أورسولا لم تشاطره انفعاله ... فقد منحته قبلة تقليدية، وكأنها لم تغب أكثر من ساعة ، وقالت له :

ــ انظر الى خارج الباب ...

والحق أن جوزيه لبث فترة مديدة نهب حيرته قبلما خرج الى الشارع وشاهد الجمع المحتشد ...

لم يكونوا من (الفجر) ، بل كانوا رجالا ونساء مثلهم ، ذوى شعور مستقيمة وبشرة سمراء ، يتكلمون نفس اللغة ويشكون من نفس الآلام ... وكانت معهم بغال محملة بمأكولات ، وعربات تجرها الثيران تحمل أثاثا وادوات منزلية ، واخرى معدة للبيع يعرضهـا اناس ببساطة دون ما جلبة ولا ضجيج ...

لقد جاءوا مما وراء اقليم المستنقعات الشاسـعة ، على مبعدة يومين لا أكثر ، حيث كانت هناك بلدان تتلقى البريد كل شـهر مـن شهور السنة ، وحيث يعرفون وسائل العيش التى تجعل الحيـاة طيبة ميسرة ...

ان أورسولا لم تستطع أن تلحق (بالفجر) ، لكنها وجدت الطريق الى الحضارة الذى عجز زوجها عن اكتشافه فى بحثه الحابط عن المكتشفات الكبرى ...

الفصل الثالث

جىء بابن بيلار تيرنيرا الى بيت جديه بعد أسبوعين من مولده .. وقد تقبلته أورسولا كارهة ، مغلوبة على امرها مرة أخرى ازاء عناد زوجها ، الذى لم يحتمل فكرة تشرد سليل من دمه ، ولكنه اشترط الا يعرف الطفل بأى حال هويته الحقيقية .. وعلى الرغم من أنهم سموه (جوزيه اركاديو) ، الا أنهم انتهوا الى تسميته باسم اركاديو فقط ، تجنبا للخلط والالتباس ...

وفى ذلك الحين حدث نشاط كبير فى البلدة ومشـاغل كثيرة فى البيت الى حد أن رعاية الاطفال عهد بها الى امرأة هندية من قبيلة جواجيرو كانت قد وفدت على البلدة مع اخ لها هربا من مرض وبائى هو الارق الدائم كان قد تفشى فى القبيلة منذ سنوات عديدة ... وقد عرف الاثنان بالوداعة والدماثة حتى لقد استعانت بهما أورسولا فى المســاعدة فى الاعمال المنزلية .. وكان ذلك هو السبب فى أن اركاديو وامارانتا الصغيرتين قد عرفا كيف يتكلمان لغة جواجيرو قبل اللغة الاسبانية ، وتعلما شرب حساء السحالى وأكل بيض العناكب دون أن تعرف أورسولا هذا ، اذ أنها أصبحت مشغولة الى حد كبير بعملية ناجحة تبشر بالربح هى صنع الحيوانات من الحلوى ...

ذلك أن بلدة ماكوندو قد تغيرت ... فان الوافدين الجدد مع أورسولا راحوا يعلنون أنباء سارة عن خصوبة أرضها وعن موقعها الممتاز بالنسبة لمناطق المستنقعات المجاورة ، وهكـذا تحـولت القرية الضيقة الى بلدة ناشطة قامت فيها المتاجر والمصانع الصغيرة، وامتد منها طريق تجارى أصبح يفد منه التجـار العرب بشتى السلع ... وفى خلال ذلك لم يجد (جوزيه اركاديو بوينديا) مجالا للراحة والدعة ... فعندما بهره الواقع الملموس كف عن تخيلاته الواسعة ونفض يديه من ترهات المعمل الكيميائى ، وعاد مرة اخرى الى طبيعته السالفة كمخطط للعمران فى البلدة ، وأصبح حجة لدى القادمين الجدد بحيث لا توضع أسس ولا تقام جدران الا بمشورته، وتقرر فى النهاية أن يكون المشرف على توزيع الاراضى ...

وفيما كان الاب منصرفا الى تنظيم البلدة والام منهمكة فى زيادة

دخل الاسرة عن طريق صنع الحيوانات والاسماك من الحلوى ، كان أوريليانو يمضى الساعات الطوال فى المعمل المهجور يتعلم صناعة طلاء المعادن بتجاربه الخاصة حتى برع فى ذلك ... ومع أن انتقاله الى طور المراهقة أكسبه صلابة ورصانة وانحيازا الى الصمت والاعتكاف والعزلة ، الا أنه شحذ فيه تلك الخاصة التى ولد بها وهى حدة البصر التى بلغت درجة البصيرة والقدرة على التنبؤ ... وذات يوم أذهل أمه بقوله على غير انتظار :

— هناك قادم جديد سيأتى الينا ...

وفعلا لم يحل يوم الاحد الا وقد جاءت ربيكا ...

لم يكن سنها يجاوز احد عشر عاما ... وقد جاء بها بعد رحلة طويلة شاقة من بلدة مانور بعض تجار الجلود الذين عهد اليهم بتسليمها الى (جوزيه اركاديو بويندیا) ، مصحوبة برسالة قال فيها مرسلها لا يزال يكن له المحبة رغم تباعد المسافة والظروف ، وانه أخذ على عاتقه هذا الواجب الخيرى الانسانى وهو تسليم الطفلة اليتيمة المسكينة التى هى من سلالة أسرتى أورسولا وجوزيه اليهما ، اكراما لذكرى والديها المرحومين (نيكانور اولوس) و « ربيكا مونتيل » ، اللذين وضعت عظامهما فى الصندوق المرافق للطفلة ، توطئة لدفنها فى مثوى قريب من مقامها الجديد ...

وفى الحق انه ما من أحد من الزوجين جوزيه واورسولا عرف مرسل الرسالة ولا أبوى الطفلة ، تلك التى انزوت منذ مقدمها فى فى كرسيها الهزاز الصغير تمتص اصبعها وتتفرس فيهم جميعا بعينيها الواسعتين المجفلتين دون أن تبدى أدنى اشارة تنم عن فهم لما يقال لها ... وكانت تبدو معتلة الصحة وعليها علائم جوع اقدم من سنها ... وعندما قدموا اليها طعاما تركت الطبق فوق ركبتيها دون أن تتذوق منه شيئا .. بل بدا لهم انها ربما كانت صماء بكماء، الى أن جاءت الهندية وسألتها بلغتها ان كانت تريد ماء ، فحركت عينيها كأنما عرفتهما ، وأجابت نعم براسها ...

لقد احتفظوا بالطفلة ، اذ لم يكن هناك مايفعلونه غير ذلك ... واطلقوا عليها اسم ربيكا أخذا باسم أمها ... ومضت فترة طويلة قبلما اندمجت ربيكا فى حياة الاسرة ... ولم يستطيعوا أن يحملوها على الاكل أياما متعاقبة ، حتى عجبوا كيف لم تمت من الجوع وهى كذلك — الى أن فاجأها الهنديان وهى تأكل التربة الرطبة ومصيص

الحوائط الابيض تحتفره بأظافرها !..

لقد أثارت هذه الظاهرة الشاذة فزع الاسرة ، بيد أن أورسولا لم تخلد الى اليأس ، ولم تزل بالطفلة تارة بالترغيب وتارة بالترهيب الى حد الضرب حتى حملتها على العدول عن ذلك ، وأصبحت فى النهاية تأكل الطعام العادى مع الصغيرين امارانتا واركاديو ، وتشاطرهما النوم فى نفس الحجرة .. وتبين بعد ذلك انها تتكلم الاسبانية بنفس الطلاقة التى تتكلم بها الهندية ...

وتتعاقب الشهور والاعوام والاسرة ماضية فى حياتها ... الاب لا يكف عن نشاطه الدائب فى التخطيط والابتكار ... والام منهمكة فى صنع تماثيل الحلوى التى تدر على الاسرة دخلا وفيرا ... والابن اوريليانو يزيد براعة فى فن طلاء المعادن وصنع المشغولات الفضية والذهبية مستهدفا لعناء المراهقة مارا بتجارب اليمة زادته انطواء واعتزالا لما يهفو اليه اضرابه فى مثل هذا الطور ...

وتفتح أورسولا عينيها ذات يوم وهى تصنع تماثيلها المحلاة ، فيسترعى نظرها مشهد فتاتين جميلتين فى سن المراهقة جالستين فى الفناء منهمكتين فى شغل الابرة حتى بدا لها لاول وهلة أنهما لاتعرفهما ...

كانت احداهما ربيكا وهى أحلاهما على غير ما كان يتوقع ، نضرة البشرة ، واسعة العينين المفعمتين بالسكينة ، بارعة اليدين فى التطريز .. أما أصغرهما فكانت امارانتا ، رشيقة الى حد ما ، متميزة بملامح أسرتها .. وعن كثب منهما جلس اركاديو الصغير الذى وان كان ينحو الى سرعة النمو مثل أبيه الآبق ، الا أنه بدا كطفل بجانب الفتاتين ... وكان قد بدأ يتعلم فن المشغولات الفضية على يد عمه اوريليانو ، الذى علمه القراءة والكتابة أيضا ...

وهنا ادركت أورسولا فجأة أن البيت قد أصبح مملوءا بالابناء ، وان هؤلاء الابناء سوف يتزوجون حتما وينجبون أطفالا ، وانهم سوف يضطرون الى التفرق لضيق البيت ... وهكذا عمدت الى نقودها التى تراكمت على مدار سنى العمل الدائب ، فأخرجتها للعمل على توسيع البيت ، وتولت بنفسها الاشراف على هذه العملية ...

وفى النهاية قام فى مكان البيت البدائى اكبر بيت فى البلدة كلها ، بل وفى منطقة المستنقعات بأسرها ، مشتملا على تسع غرف نوم ،

وحجرة استقبال كبرى للزائرين ، وقاعة للطعام تسع اثنى عشر مقعدا صفت حول المائدة الكبيرة ، ومدخل مسقوف يقى من حرارة الشمس وتحف به أصص الازهار ، و (كرار) كبير تختزن فيه المؤونة الكافية ، وحمامين فى الفناء احدهما للرجال والثانى للنساء ، واسطبل كبير ، وحظيرة للدجاج واخرى لبقر حلب اللبن ...

وقد اوشك بناء هذا الصرح على التمام عندما استدرجت أورسولا زوجها من عالمه التخيلى لكى تبلغه انها تلقت أمرا بطلاء الواجهة باللون الازرق بدلا من الابيض كما كانوا يريدون ، وأطلعته على الوثيقة الرسمية التى جاءت ... وقبل ان يفهم (جوزيه اركاديو بوينديا) ما قالته زوجته فك طلاسم التوقيع وسألها :

ـ من يكون هذا الشخص ؟..

فأجابت أورسولا فى مضض :

ـ ... يقولون انه من رجال السلطة وموفد من الحكومة ...

كان دون ابولينار موسكوت ، القاضى ، قد وصل الى ماكوندو بهدوء ، ونزل فى فندق يعقوب الذى بناه أحد العرب الوافدين للتجارة ، وفى اليوم التالى استأجر غرفة صغيرة ذات باب يطل على الشارع على بعد مربعين سكنيين من بيت بوينديا ... وقد وضع منضدة ومقعدا جاء بهما من عند يعقوب ، وثبت على الحائط شعار الجمهورية الذى جاء به معه ، وطلى على الباب كلمة (القاضى) ... وكان أول أمر أصدره هو وجوب طلاء جميع البيوت باللون الازرق احتفالا بالذكرى السنوية للاستقلال الوطنى ...

ولما ذهب اليه « جوزيه اركاديو بوينديا » وبيده صورة من الامر ، وجده ناعسا فى أرجوحة نصبها فى المكتب الصغير ... فبادره قائلا :

ـ هل كتبت هذه الورقة ؟..

كان دون أبولينار موسكوت رجلا مكتملا حييا ، مورد الوجه ، وقد رد بالايجاب ... فسأله جوزيه :

ـ بأى حق ؟..

فالتقط دون ابولينار موسكوت ورقة من درج المنضدة وأراه اياها قائلا :

ـ اننى عينت قاضيا لهذه البلدة ...

ينظر « جوزيه اركاديو بوينديا » حتى الى أمر التعيين ، وقال دون أن يفقد هدوءه :

ـ نحن فى هذه البلدة لا نعطى أوامر بقطع من الورق ... ولكى للمرة الاولى والاخيرة ، نحن هنا لانحتاج الى أى قضاة ، اذ ما يحوجنا الى التقاضى !..

وقف جوزيه فى مواجهة دون ابولينار موسكوت وانشأ يشرح له بالتفصيل ودون أن يرفع صوته حتى الان كيف اسسوا القرية ، ووزعوا الارض وشقوا الطرق وأدخلوا التحسينات التى اقتضتها الضرورة دون أن يعملوا على ازعاج الحكومة ودون أن يعمل على ازعاجهم ... واستطرد يقول :

ـ نحن اناس مسالمون جدا حتى انه لم يمت بيننا احد ولو موتا طبيعيا ، ولك أن ترى أنه ليست عندنا حتى الان مدافن ... ولم يتذمر احد يوما ما لان الحكومة لم تساعدنا .. بل بالعكس ، كنا جميعا سعداء لانها تركتنا نتقدم فى سلام ... والامل معقود على أن تتركنا هكذا ، لاننا لم نؤسس هذه البلدة لكى يأتى أى مدع يقول لنا ماذا نفعل !..

وفى خلال ذلك ارتدى دون ابولينار سترته البيضاء مثل بنطلونه دون أن يفقد فى أية لحظة رشاقة حركاته ... بينما اختتم (جوزيه اركاديو بوينديا) كلامه قائلا :

ـ وهكذا ان اردت ان تبقى هنا مثل اى مواطن عادى فعلى الرحب والسعة ... لكن اذا كنت جئت لكى تثير المتاعب باجبار الناس على طلاء بيوتهم باللون الازرق ، فلك أن تأخذ « عزالك » وتعود الى حيث جئت ... ذلك لان بيتى سوف يطلى باللون الابيض ، مثل الحمام !..

والحق أن دون ابولينار موسكوت شحب وجهه ... وتراجع خطوة الى الوراء ، وقال وهو يضغط على فكيه بشىء من الاسى :

ـ لابد أن احذرك اننى مسلح ...

لم يدر (جوزيه اركاديو بوينديا) متى استردت يداه القوة التى كان يجبر بها الحصان على الركوع أرضا .. فقد جذب دون ابولينار موسكوت من طيتى صدر السترة ورفعه الى مستوى عينيه ، قائلا :

فلم ينظر « جوزيه اركاديو بويندايا » حتى الى أمر التعيين ، وقال دون أن يفقد هدوءه :

ــ نحن فى هذه البلدة لا نعطى أوامر بقطع من الورق ... ولكى تعرف للمرة الاولى والاخيرة ، نحن هنا لانحتاج الى أى قضاة ، اذ لايوجد ما يحوجنا الى التقاضى !..

ووقف جوزيه فى مواجهة دون ابولينار موسكوت وانشأ يشرح له بالتفصيل ودون أن يرفع صوته حتى الان كيف أسسوا القرية ، وكيف وزعوا الارض وشقوا الطرق وأدخلوا التحسينات التى اقتضتها الضرورة دون أن يعملوا على ازعاج الحكومة ودون أن يعمل احد على ازعاجهم ... واستطرد يقول :

ــ نحن اناس مسالمون جدا حتى انه لم يمت بيننا احد ولو موتا طبيعيا ، ولك أن ترى أنه ليست عندنا حتى الان مدافن ... ولم يتذمر احد يوما ما لان الحكومة لم تساعدنا .. بل بالعكس ، كنا جميعا سعداء لانها تركتنا نتقدم فى سلام ... والامل معقود على ان تتركنا هكذا ، لاننا لم نؤسس هذه البلدة لكى يأتى أى مدع ويقول لنا ماذا نفعل !..

وفى خلال ذلك ارتدى دون أبولينار سترته البيضاء مثل بنطلونه دون أن يفقد فى أية لحظة رشاقة حركاته ... بينما اختتم (جوزيه اركاديو بويندايا) كلامه قائلا :

ــ وهكذا ان أردت أن تبقى هنا مثل أى مواطن عادى فعلى الرحب والسعة ... لكن اذا كنت جئت لكى تثير المتاعب باجبار الناس على طلاء بيوتهم باللون الازرق ، فلك أن تأخذ « عزالك » وتعود الى حيث جئت ... ذلك لان بيتى سوف يطلى باللون الابيض ، مثل الحمام !..

والحق أن دون ابولينار موسكوت شحب وجهه ... وتراجع خطوة الى الوراء ، وقال وهو يضغط على فكيه بشىء من الاسى :

ــ لابد أن أحذرك أننى مسلح ...

لم يدر (جوزيه اركاديو بويندايا) متى استردت يداه القوة التى كان يجبر بها الحصان على الركوع أرضا .. فقد جذب دون ابولينار موسكوت من طيتى صدر السترة ورفعه الى مستوى عينيه ، قائلا :

ــ اننى افعل هذا لاننى افضل أن احملك هكذا حيا بدلا من أن اطوف بك ميتا ، فيلازمنى شبحك طول حياتى !..

وعلى هذه الصورة حمله الى وسط الشارع ، معلقا من طيتى السترة ، الى أن أنزله على قدميه فى الطريق المؤدى الى المستنقعات..

وبعد أسبوع عاد دون أبولينار موسكوت برفقة ستة جنود حفاة مهلهين ومسلحين ببنادق مزدوجة قصيرة ، تصحبهم مركبة تجرها الثيران حملت زوجته وسبع بنات ... وجاءت فيما بعد مركبتان أخريان تحملان الاثاث والامتعة والادوات المنزلية ... وقد أنزل أسرته فى فندق يعقوب ريثما يجد مسكنا للاسرة ، وعاد لفتح مكتبه تحت حماية الجنود ...

ان مؤسسى ماكوندو الذين عقدوا العزم على طرد الغزاة ذهبوا مع أبنائهم الكبار لكى يضعوا أنفسهم تحت امرة « جوزيه اركاديو بويندايا » ... بيد أنه كان ضد هذا الاتجاه ... فقد بين لهم انه ليس من الرجولة أن يثيروا المتاعب لاى شخص أمام أسرته ، بعد أن عاد دون أبولينار موسكوت مع زوجته وبناته .. وهكذا حسم الموقف بهذا الاسلوب الحميد ...

وذهب معهم أوريليانو ... وفى ذلك الحين كان قد بدأ يفتل شاربه الاسود بالشمع ، وغدا له صوت جهورى كان مقدرا أن يكون طابعه المميز فى الحرب ... ودخلوا الى مكتب القاضى بغير سلاح غير عابئين بالحرس ... فلم يفقد دون ابولينار موسكوت رباطته وهدوءه ... وقدمهم الى اثنتين من بناته كانتا موجودتين آنذاك : امبارو البالغة من العمر ستة عشر عاما ، السمراء مثل أمها ، وريميديوس التى لم تزد عن التاسعة من عمرها ، وكانت صبية وافرة الملاحة ، ذات بشرة زئبقية وعينين خضراوين .. وكانت كلتاهما موفورة الادب ... وحالما دخل الرجال ، وقبل التعارف ، قدمت اليهم مقاعد للجلوس ، ولزمتاهما الوقوف ...

وقال (جوزيه اركاديو بويندايا) :

ــ حسن جدا ، صديقى ... لك أن تبقى هنا ، لا لان معك قطاع الطرق هؤلاء الواقفين بالباب مسلحين بالبنادق ، ولكن مراعاة لزوجتك وبناتك ...

لقد بدا دون ابولينار موسكوت منزعجا ، بيد أن (جوزيه اركاديو بويندايا) لم يدع له وقتا للرد ، واستطرد قائلا :

صدرها الى أن صارت وحدها ، فوجدتها من بترو كريسبى الوسيم يبثها فيها مشاعر الاعجاب ويثنى على براعتهـا فى الرقص ، ويعد بزيارة قريبة ...

والواقع ان هذه الصداقة المفاجئة بين امبارو وربيكا انعشت آمال اوريليانو ... فان ذكرى ريميديوس الصغيرة مافتئت تعذبه ، بيد انه لم يجد الفرصة المناسبة لرؤيتها ... وهكذا كان ظهور أختها امبارو فى البيت مقدمة طيبة لحضورها معهـا فى زيارة اخرى ، واستقر فى نفسه خاطر يقينى بذلك ظل يراوده حينا ، الى أن سمع صوتها الطفولى عصر يوم لدى باب المعمل الكيميائى ، وعندما رفع نظره شعر بقلبه يتجمد حين أبصرها فى فستان وردى وحذاء مرتفع ابيض وأختها امبارو تقول لها :

— لايمكنك الدخول الى المعمل ياريميديوس .. انهم يشتغلون..

لكن أوريليانو لم يدع لها وقتا للرد ، فقد نهض وبيده سلسلة تدلت منها سمكة ذهبية وقال لها :

— تفضلى بالدخول ...

فدخلت ريميديوس ووجهت اليه بعض الاسئلة عن السـمكة الذهبية ، بيد أن لسانه انعقد فجأة عن الرد .. وكل ما استطاع ان يقوله فى النهاية هو انه سيهديها السمكة الصغيرة ، لكن الصبية اجفلت لهذا العرض ، وأسرعت بالانسحاب من المعمل ...

فى نفس هذا اليوم فقد أوريليانو صبره الدفين واهمل عمله وراح يبحث عنها فى كل مكان ترتاده ولو فى نافذة بيتها ، لكن مساعيه ذهبت سدى ، ولم تطالعه صورتها الا فى خياله ووحدته الاليمة ... وأصبح يمضى ساعات كاملة مع ربيكا يستمعان الى عزف البيانولا ... هى لان الموسيقى تذكرها بالشاب الايطالى بيترو كريسبى الذى علمهـا الرقص ... وأوريليانو لان كل شىء ، حتى الموسيقى ، كان يذكره بريميديوس ...

فأما ربيكا فقد أمرضها طول انتظار الحبيب الذى تأخر عن موعده، حتى رقدت طريحة الفراش ... وكان اوريليانو وحده هو الذى فهم سرها الحقيقى اذ يكابد تباريح الهوى ... وفى غمرة حيرته ذهب مع بعض أصحابه الى مشرب كاتارينو ... وكان يضم ملحقا من غرف خشبية تقيم به نساء وحيدات وتعزف فيه الموسيقى .. وشرب الرفاق عصير قصب مخمرا بصحبة النساء .. وداعبت

احداهن وكانت عجفاء مذهبة الاسنان اوريليانو ... ولكن مداعبتها جعلته يرتعد حتى صد عنها .. وما لبث أن اكتشف انه كلما شرب زاد تفكيره فى ريميديوس ، وان صار أقدر على احتمال عذاب ذكرياته ولم يدر بالضبط متى بدأ رأسه يدور ... ورأى أصحابه والنساء يسبحون جميعا فى ضياء باهر ، دون وزن لهم ولا كتلة ، مرسلين كلاما لا يخرج من أفواههم ، ومبدين اشارات خفية لاتتطابق مع كلامهم ... وعندئذ وضع كاتارينو يده على كتفه وقال له :

— الساعة تقترب من الحادية عشرة ليلا !..

فأدار اوريليانو رأسه ، فرأى وجه كاتارينو ضخما مشوها وقد دس وردة صناعية خلف أذنه .. وعندئذ فقد ذاكرته تماما .. ولما استعادها وجد نفسه فى غرفة غريبة عنه ، وفيها وقفت بيلار تيرنيرا امامه بقميص نومها وهى حافية القدمين مرسلة الشعر ، رافعة مصباحا فوق رأسه ، تبدو عليها امارات الانزعاج وعدم التصديق ، وهتفت : اوريليانو !..

ضبط أوريليانو قدميه ورفع رأسه .. انه لم يدر كيف جاء الى هنا ... ولكنه عرف مقصده ، وهو مقصد كان مخبوءا فى داخله منذ الصغر ... وقد رد عليها قائلا :

— جئت لاننى أريدك ...

كانت ملابسه ملطخة بالوحل والقىء ، فجعلت تنظفه وهى تغمغم قائلة :

— ياطفلى المسكين !..

وعندما أفاق من غمرات نشوته وجد نفسه يبكى .. فانتظرت المراة المجربة حتى فرغ من ذلك النحيب الذى هز وجدانه ، وقالت له بهدوء :

— من هى ؟..

فاخبرها أوريليانو ... فأطلقت ضحكة خافتة ، وقالت متهكمة:

— لابد أن تربيها أولا الى أن تكبر !..

ولكن من ثنايا الضحكة استشف أوريليانو فهما عميقا .. وعندما انصرف من غرفتها بعد أن انزاح من صدره ذلك الهم المرير الذى اثقله طيلة الاشهر الماضية ، وعدته بيلار تيرنيرا قائلة :

— ساتكلم مع البنية ، وستعرف ماذا يمكننى أن أفعل ...

وقد برت بوعدها ... ولكنها اختارت وقتا عصيبا ... اذ كان

البيت قد فقد ماكان يرفرف عليه من سكينة فى الايام الماضية ... ذلك ان امارانتا عندما اكتشفت سر ربيكا العاطفى وكان محالا أن يبقى طى الكتمان ، اصيبت هى الاخرى بنوبة حمى نتيجة غرام لا عزاء فيه ... واصبحت اورسولا لاتكاد تجد القوة لرعاية الفتاتين العليلتين ... ولم تستطع رغم طول الاستجواب ان تتحقق من اسباب علة امارانتا .. وفى النهاية ، وبما يشبه الالهام ، عثرت فى صندوق امتعة ربيكا على حفنة رسائل بللتها ربيكا بدموعها وعطرتها بالورود ولكنها لم ترسلها الى الايطالى بترو كريسبى ... فلم تتمالك أورسولا وهى تبكى غضبا أن لعنت اليوم الذى بدا لها فيه أن تطلب شراء البيانولا ، واصدرت أمرها بمنع دروس التطريز ، واعلنت نونا من الحداد فى البيت الى أن تتبخر آمال الفتاتين ... ولم تفلح وساطة (جوزيه اركاديو بويندیا) الاب الذى أعجب ببراعة بترو كريسبى فى ادارة البيانولا فى تخفيف التأزم ... وهكذا رأى اوريليانو عندما اخبرته بيلار تيرنيرا ان ريميديوس قبلته زوجا لها ان هذا النبأ سيؤدى الى زيادة متاعب والديه ... والواقع أن الاب ما كاد يسمع باسم الخطيبة المرشحة حتى احمر وجهه اهتياجا وصاح هادرا :

— الحب مرض !.. ورغم وجود كثير من البنات الجميلات والمهذبات حوالينا ، فالشىء الوحيد الذى يخطر لك هو الزواج من ابنة عدونا !..

بيد أن أورسولا وافقت على هذا الاختيار ، وراحت تطنب فى امتداح شمائل بنات القاضى موسكوت السبع ، وأطرت سداد راى ابنها ... فلم يجد (جوزيه اركاديو بويندیا) ازاء تحمس زوجته سوى النزول على رايها ، بشرط واحد ، هو أن تتزوج ربيكا بترو كريسبى ، وان تصحب أورسولا ابنتها امارانتا فى رحلة الى عاصمة المقاطعة عندما يسمح الوقت ، لكى يؤدى الاختلاط بالناس الى التخفيف من خيبة أملها ... ولم تلبث ربيكا أن استردت صحتها حالما علمت بهذا الاتفاق ، وسطرت الى خطيبها رسالة حارة بعد موافقة والديها وأرسلتها بالبريد دون حاجة الى وسطاء ... وقد تظاهرت امارانتا بقبول القرار ، وتماثلت للشفاء من الحمى رويدا رويدا ، ولكنها نذرت فى نفسها ألا يتم زواج ربيكا الا على جثتها ..

وفى يوم السبت التالى ارتدى (جوزيه اركاديو بويندیا) أحسن

ملابسه وذهب لطلب يد ريميديوس موسكوت ... فاستقبله القاضى وزوجته بترحات وقلق معا ، اذا لم يكونا يعرفان سبب الزيارة المفاجئة ، ثم بدا لهما بعد ذلك انه ربما كان مخطئا فى اسم العروس المطلوبة .. وازالة لكل لبس ذهبت الام لايقاظ ريميديوس من نومها واتت بها الى غرفة الجلوس وآثار النوم لم تفارقها ... وقد سألاها ان كان صحيحا انها قررت الزواج ، فردت منتحبة بأنها لاتريد سوى ان يتركوها تنام ... ولما أدرك (جوزيه اركاديو بويندیا) حالة الاضطراب التى بدت له من الابوين ، عاد أدراجه لاستجلاء الحقيقة من اوريليانو ... وعند رجوعه وجد الابوين قد ارتديا ملابس رسمية ورتبا الاثاث وغيرا الزهور فى أوعيتها وجلسا ينتظران بصحبة بناتهما الاكبر ... ورغم احساس (جوزيه اركاديو بويندیا) بحرج الموقف فقد أكد أن ريميديوس هى التى وقع عليها الاختيار حقا ... وعندئذ قال ابولينار موسكوت بلهجة الجزع :

— هذا شىء غير معقول !.. عندنا ست بنات اخريات ، وكلهن غير متزوجات ، وسنهن تؤهلهن لذلك تماما ، ويشرف كل واحدة منهن أن تكون زوجة لسيد محترم مجد مثل ابنك ، ومع ذلك فان اوريليانو لايضع نظره الا على البنت التى لاتزال تبلل فراشها !..

بيد أن زوجته سارعت بالاعتذار عن هفوته ... وبعد أن فرغوا من تناول الفاكهة أعربوا عن قبول قرار أوريليانو عن طيب خاطر ، مصحوبا برجاء من الام ان يجتمع مع أورسولا على انفراد ... فلم تمانع أورسولا ، وذهبت الى بيت القاضى فى اليوم التالى ... وبعد نصف ساعة عادت لكى تقول ان ريميديوس لم تبلغ الحلم بعد .. بيد أن اوريليانو لم يجد فى هذا عائقا خطيرا ... فقد انتظر أمدا طويلا ، الى حد أنه يستطيع الانتظار الى أن تبلغ عروسه مرحلة القدرة على الانجاب ...

ونعود الى امارانتا ... فقد وجدت أخيرا فرصتها التى كانت تتحينها لمكاشفة الشاب الايطالى الوسيم بترو كريسبى بحبها الدفين ، الذى بر بوعده لربيكا وحل بالبلدة حيث افتتح محلا لبيع الالات الموسيقية واللعب الميكانيكية فى حى التجار الشرقيين ... والواقع أن الشاب الوسيم الذى كان مرآة يثير تنهدات النساء تلقى اعتراف امارانتا على انه نزوة عابرة لصبية لا يؤخذ كلامها مأخذ الجد ، حتى قال لها :

— لى اخ اصغر .. وسيحضر لمساعدتى فى المحل ...

لقد شعرت امارانتا بالمهانة ، وقالت لبترو كريسبى فى غضب شديد انها على استعداد لمنع زواج أختها حتى لو كان الثمن هو ارتماء جثتها على الباب ... والواقع أن الشاب الايطالى تأثر بهذا التهديد الدرامى الى حد انه لم يستطع مقاومة اغراء ذكر الواقعة لربيكا ... ونتيجة لهذا فان رحلة امارانتا التى كانت اورسولا تعمل على تأجيلها تم ترتيب أمرها فى أقل من أسبوع ... ولم تبد امارانتا أية مقاومة ، بيد أنها عندما ودعت ربيكا مقبلة همست فى اذنها قائلة :

— لاتطلقى العنان لآمالك .. حتى لو أبعدونى الى أطراف الدنيا، فسوف أجد طريقة لمنع زواجك ، حتى لو كان لابد لى من قتلك !..

وبغياب اورسولا عن البيت ، بدا وكأنه خاو على عروشه ... وقد تكفلت ربيكا بالاشراف على تصريف الشئون المنزلية ، بينما تولت المراة الهندية أعمال المخبز ... وعندما كان بترو كريسبى يأتى لزيارة خطيبته عند الغروب ، كانت ربيكا تستقبله فى الصالون الرئيسى مع فتح الابواب والنوافذ دفعا لكل الظنون ... ولم يكن هذا التحوط لازما ، لان الشاب الايطالى كان يسلك مسلك الاحترام فى تصرفاته الى حد أنه لم يكن يلمس يد المرأة التى ستغدو زوجته فى غضون العام ...

والواقع أن هذه الزيارات ملأت البيت بكثير من اللعب الميكانيكية المتنوعة الاشكال والغريبة التصميمات الى حد أن (جوزيه اركاديو بوينديا) الاب وجد فيها تسلية كبرى ، اذ عاد الى أيامه الاولى فى المعمل الكيميائى عاكفا على فكها وتركيبها لكى يضيف اليها نظاما جديدا يجعلها فى حركة دائمة على نسق (بندول) الساعة !..

وقد امتد التأثير الى أوريليانو الذى أهمل عمله فى المشغولات المعدنية وتفرغ لتعليم ريميديوس القراءة والكتابة ... وكانت الصبية تقابل هذا بالنفور أول الامر مفضلة التفرغ لالعابها ، بيد أن صبر اوريليانو ومثابرته اكتسباها آخر الامر الى جانبه ، حتى اصبحت فى النهاية أطوع له من بنانه ...

وكانت ربيكا وحدها هى التى تعانى القلق والتوجس بسبب نقمة امارانتا عليها وتهديداتها الغريبة ... والتماسا منها لما يخفف

معاناتها ، فقد سعت الى بيلار تيرنيرا لكي تقرأ لها الطالع ... فتنبأت لها بعد سلسلة من المقدمات التقليدية قائلة :

— لن تعرف السعادة طالما ان عظام أبويك لم تدفن ...

ارتعدت ربيكا ، وقالت :

— لست أفهم ...

فبدت بيلار تيرنيرا غير مبالية ، وقالت :

— ولا أنا .. ولكن هذا ماتقوله الاوراق ...

لقد انشغل بال ربيكا واشتد انشغالها بهذا اللغز حتى أطلعت « جوزيه اركاديو بوينديا » على الخبر ، فما كان منه الا ان زجرها لتصديق مثل هذه النبوءات ، ولكنه مع ذلك انهمك صامتا فى البحث فى كل موضع عن كيس العظام الذى جىء به مع ربيكا وهى بعد طفلة لاتدرك شيئا ... وتذكر أنه لم يره منذ ان اضطلعوا بتجديد البيت ... فاتصل بالبنائين ، فأخبره أحدهم أنه وضع الكيس داخل احد الحوائط تخلصا من مضايقة وجوده عثرة فى عمليات الترميم والبناء ... وبعد أيام من التسمع والدق على الجدران أمكن فى النهاية تحديد المكان ، فنقبوا الحائط واستخرجوا كيس العظام ودفنوها فى نفس اليوم فى قبر بلا شاهد .. وعاد (جوزيه اركاديو بوينديا » فى نفس اليوم وقد انزاح عنه عبء شديد أثقل ضميره ، ودخل على ربيكا فى المطبخ مبتهجا وقبلها قائلا :

— اطردى تلك الافكار السيئة من رأسك ... سوف تكونين من أهل السعادة ...

ان الصداقة التى نشأت بين ربيكا وبيلار تيرنيرا قد فتحت لهذه الاخيرة باب البيت الذى أغلقته أورسولا بسبب مولد اركاديو وقبوله فى عداد الاسرة كما تقدم ... وهكذا أصبحت تتردد على البيت فى أية ساعة وتطلق نشاطها المحموم فى أشق الاعمال ... وأحيانا كانت تدخل المعمل وتساعد اركاديو (ابنها) فى (تحميض) الصور المطبوعة على المعادن بمقدرة وحنو كانا يثيران ارتباكه وعجبه من مسلكها حياله ... بل ان أنفاسها عن كثب وضحكاتها الغريبة فى الغرفة المظلمة كانت تشتت باله وتنال من ضبطه للعمل ...

وفى احدى المناسبات كان أوريليانو فى المعمل لاتمام بعض المشغولات الفضية ، فاتكأت بيلار تيرنيرا على المنضدة مبدية اعجابها بدأبه وصبره .. وفجأة لمع فى خاطره ذلك الوميض الذى ينبىء بشىء قريب

... وقبل أن يرفع عينيه لملاقاة عينى بيلار تيرنيرا استوثق من وجود اركاديو فى الغرفة المظلمة للتحميض ، تأهبا لاستقراء الخاطرة التى لمحها فى عينى تيرنيرا واضحة كالشمس فى رائعة النهار ، ثم سألها :

— حسن .. قولى ماعندك ...

فعضت بيلار تيرنيرا على شفتيها بابتسامة محزونة ، وقالت :

— انك ستكون مبرزا فى الحرب ... أينما تلقى نظرك ، تصيب رصاصتك مقتلا ...

ارتاح أوريليانو لهذه النبوءة ، وركز من جديد على عمله وكأنه لم يحدث شىء ، ثم قال بصوت مشجع :

— سوف اعترف (به) ... سوف يحمل اسمى ...

واخيرا توصل (جوزيه اركاديو بوينديا) الى ماكان يبتغيه .. فقد أوصل جهاز الساعة بلعبة راقصة ميكانيكية ، واخذت اللعبة ترقص بلا انقطاع على ايقاع موسيقاها مدى ثلاثة أيام كاملة ... والواقع أن هذا الاكتشاف أثاره الى أبعد حد حتى كف عن الاكل وعن النوم ... ولولا سهر ربيكا على رعايته لافضت به تخيلاته الى حالة من الهذيان لا شفاء له منها .. ومع ذلك فقد كان يمضى الليالى وهو يدور فى أرجاء غرفته مخاطبا نفسه ، بحثا عن طريقة تمكنه من تطبيق نظرية (البندول) على مركبات الثيران وعربات اليد وعلى كل اداة أخرى تغدو ذات نفع اذا وضعت فى حالة حركية ..

واستحال عليه النوم بطول الارق والسهر .. وفى أحد الايام خرج من غرفته والجميع نيام ، وعمد الى عضادة الباب فانتزعها ، وبقوته الهرقلية أخذ يهشم أدوات المعمل الكيميائى وأدوات المسبك وهو يصرخ ويهذى بكلام غير مفهوم .. وكاد ينتقل الى باقى غرف البيت يعمل فيها تهشيما لولا أن استنجد اوريليانو بالجيران ... فاحتاج الامر الى عشرة رجال لطرحه أرضا ، والى أربعة عشر لتقييده ، وعشرين لجره الى شجرة الكستناء فى الفناء حيث تركوه مربوطا بها وهو ينبح بكلامه المبهم ويرسل زبدا أخضر من شدقيه ... وحينما عادت أورسولا واماراتنا من الرحلة كان لايزال مربوطا الى جذع شجرة الكستناء من قدميه ويديه ، غارقا فى المطر ، وفى حالة شرود تام ... ولما كلمتاه نظر اليهما دون أن يعرفهما ويقول أشياء لم تفهما منها شيئا .. ولكن أورسولا فكت قيد معصميه وكاحليه

التى تسلخت من ضغط الحبال ، وتركته مربوطا من وسطه فقط .. وفيما بعد أقاموا له وقاء من سعف النخل لكى يحميه من الشمس والمطر ...

الفصل الخامس

عقد زواج أوريليانو بوينديا وريميديوس موسكوت يوم أحد من شهر مارس امام الهيكل الذى أقامه الاب (نيكانور رينا) فى قاعة الاستقبال بالبيت الكبير ... وقد بذلت أسرة العروس جهـودا مضنية فى نقلها من المرحلة الصبيانية وسلوكياتها اللامسئولة الى مرحلة النضج والاتزان وتقدير الحياة الزوجية ... ومنذ ذلك اليوم كان احساسها بالمسئولية باهرا ، كما تجلى ذلك فى الظروف العصيبة التى طرأت فى المستقبل ... وعلى سبيل المثال فهى التى تطوعت من تلقاء نفسها باقتطاع قطعة كبيرة من (تورتة الزفاف) وحملتها فى طبق مع شوكة الى « جوزيه أركاديو بوينديا » ... وقد تلقى العجوز المربوط فى جذع شجرة الكستناء والمكوم فوق مقعد خشبى صغير فى مأواه المؤلف من سعف النخل والذى سفعت وجهه الامطار وأشعة الشمس — تلقى هذه الهدية بابتسامة امتنان شاردة واكل القطعة بأصابعه وهو يهمهم بكلام غير مبين ولا مفهوم.. وكان الشخص التعس الوحيد فى ذلك الحفل هو ربيكا المنكودة .. فقد كان مقررا بترتيب من أورسولا أن يعقد زواجها هى ايضا فى نفس اليوم .. ولكن حدث قبله بيومين أن تلقى بيترو كريسبى رسالة تنبئه بأن أمه فى حالة احتضار .. وهكذا أجل زواجهما بعد أن اضطر بيترو للسفر الى عاصمة المقاطعة بعد ساعة من تلقى الرسالة ... وكانت المفاجأة أن امه وصلت ليلة زفاف اوريليانو وريميديوس وغنت فى الحفل أغنية كانت اعدتها لزفاف ولدها ... ولما عاد بيترو كريسبى مسرعا بعد رحلة شاقة كان الحفل قد انفض .. ولم يعرف قط من هو كاتب تلك الرسالة ... نعم أن أورسولا حملت على اماراتنا حملة شعواء ، ولكن هذه بكت وأقسمت على براءتها امام الهيكل المؤقت !..

ومهما يكن فان هذا الزفاف كان حافزا للاب « نيكانور رينا »

على التفكير فى بناء كنيسة خاصة للبلدة لاتمام الطقوس الدينية على وجهها الكامل ... ولم يمض وقت طويل حتى جمعت التبرعات من أهل البلدة وبدىء فى اقامة المبنى ... وبينما كان الاب نيكانور يتناول الغداء ذات يوم فى بيت الاسرة وهو يحدثهم عما ستكون عليه حفلات الزفاف المقبلة من الروعة والقداسة فى الكنيسة الجديدة ، اذ قالت امارانتا :

– ان العروس التى سوف تسعد بهذا هى ربيكا ...

ولما لم تفهم ربيكا ما تعنيه ، شرحت امارانتا مرادها بابتسامة بريئة قائلة :

– سوف تكونين انت العروس التى يقام أول حفل زفاف فى الكنيسة لها ...

حاولت ربيكا أن تتجاهل هذا النذير .. فان معدل العمل الحالى فى بناء الكنيسة سوف يستغرق عشر سنوات على الاقل بسبب عدم كثرة التبرعات ... ولكن أورسولا التى فطنت الى خبث نوايا امارانتا تبرعت بمبلغ كبير للاسراع فى عمليات البناء ، مما جعل الاب نيكانور يقدر انه بمثل هذه التبرعات يمكن اختصار المدة الى ثلاث سنوات ... ومنذ هذه الجلسة اعرضت ربيكا عن امارانتا بعد أن تجلى لها سوء طويتها ... وفى المشاحنة الحامية التى جرت بين الاثنتين فى تلك الليلة قالت لها امارانتا :

– هذا اقل شىء كان يمكن أن أوعز به .. فبتأثير ايحائى لن اضطر الى قتلك قبل ثلاث سنوات !..

ولكن ربيكا قبلت التحدى وأضمرت فى نفسها أمورا .. فعندما رات ما انتاب بيترو كريسبى من خيبة الامل بسبب هذا التأجيل الجديد بادرته قائلة :

– يمكننا أن نهرب معا فى أى وقت تشاء ...

بيد أن بيترو كريسبى كان ينقصه عنصر المجازفة الذى انطوى عليه طبع خطيبته ، وقال ان الاحترام يمنعه من خيانة الثقة التى وضعتها الاسرة فيه ...

وهكذا فكرت ربيكا فى وسائل أجرا ...

فذات ليلة هبت ريح خفية أطفأت أنوار البيت ، وفاجأت أورسولا العاشقين يتبادلان القبلات فى الظلام ...

وفى مناسبة أخرى نفد الوقود من المصابيح وفاجأتهما أورسولا متعانقين ...

وعندئذ لم تجد أورسولا بدا من التخلى عن واجباتها المنزلية للمرأة الهندية وأخذت تجلس فى كرسيها الهزاز عن كثب من الخطيبين أثناء الزيارات التى يقوم بها بتروكريسبى ، حتى لم تتمالك ربيكا أن قالت متهكمة من شدة الغيظ :

– مسكينة أمى ... عندما تموت ستذهب الى الآخرة وهى فى هذا الكرسى !..

وبعد ثلاثة أشهر من هذا الحب تحت الحراسة ، وبعد أن تعب بيترو كريسبى من استمرار البطء فى بناء الكنيسة ، قرر أن يذهب الى الاب نيكانور ويقدم له المال الذى ينقصه لاتمام هذه العملية ..

بيد أن امارانتا لم تفقد صبرها ، وأخذت تفكر فى مكائد أخرى لتاخير زواج غريمتها قدر ماتستطيع ... فقد عملت خلسة على رفع (النفتالين) من فستان الزفاف ، وكان ذلك قبل شهرين من اتمام بناء الكنيسة ... وكانت ربيكا قد زادت لهفتها باقتراب موعد الزفاف وبدا لها أن تجرب الفستان ، وشد ما كان ارتياعها عندما وجدته مثقوبا بفعل العث بحيث لايصلح لهذه المناسبة الكبرى ... ومع انها كانت واثقة انها وضعت (النفتالين) بيديها ، الا أنها لم تجسر على القاء التبعة على امارانتا ... ذلك ولم يبق سوى شهر واحد على موعد الزفاف ... ولكن امبارو موسكوت وعدت أن تخيط لها ثوبا جديدا فى مدى أسبوع ... وعندما جاءت امبارو بالثوب لتجربته على العروس ، شعرت امارانتا بيأس مطبق ، واضمرت فى نفسها أن تنفذ وعيدها يوم الجمعة الاخير قبل الزفاف، بدس جرعة من السم فى القهوة التى ستقدم الى ربيكا ...

ورغم هذا كله فقد جدت عقبة لم تكن فى الحسبان ادت الى ارجاء هذا الزفاف المنكود الى اجل غير مسمى .. فقبل أسبوع من موعد الزفاف استيقظت ريميديوس الصغيرة فى منتصف الليل غارقة فى دمها اثر نزيف حاد فى أحشائها ، وقضت المسكينة نحبها بعد ثلاثة ايام ، مع جنين لتوأمين ...

كانت الفجيعة شديدة الوقع فى نفوس افراد الاسرة ، لما استأثرت به العروس الفتية المنكودة من محبة الجميع ، وأما اشدهم تفجعا زوجها أوريليانو الذى احبها منذ اللحظة الاولى حبا يقرب من

انعبادة ، وربيكا السيئة الحظ التى حطم هذا المصاب الجلل كل أمل لديها فى اتمام الزفاف فى موعده المحدد ، بل فى أى موعد آخر ـ خصوصا بعد أن أعلنت أورسولا الحداد فى البيت كله على نحو صارم لا هوادة فيه ... لقد بلغ اليأس من نفس ربيكا مداده ، حتى عادت الى بلواها السابقة ، تأكل تراب الارض من جديد ...

ثم فجأة ـ عندما طالت فترة الحداد الى مدى بعيد وبدأت نساء الاسرة موسم التطريز التالى ـ دفع أحدهم باب البيت الخارجى فى الساعة الثانية من بعد ظهر ذلك اليوم المشتد الحر دفعة عنيفة رجت البيت من أساسه ، حتى لقد ظنت امارانتا وهى تشتغل مع صاحباتها لدى المدخل ، وظنت ربيكا وهى تمتص اصبعها كعادتها القديمة كلما استبد بها اليأس ، وظن اوريليانو وهو عاكف فى مسبك المعادن ، بل ظن (جوزيه اركاديو بويندیا) ذاته ـ ان زلزالا حدث ويوشك ان يقوض البيت ...

لقد وصل رجل ضخم كالمارد .. ولم يكد منكباه العريضان ينفذان من المدخل ... وكانت تتدلى من عنقه أيقونة ... وبدا ذراعاه وصدره مكسوة تماما بالوشم ... وكانت بشرته مصبوغة بملح الهواء الطلق ، وشعره قصيرا ورأسيا مثل معرفة بغل ، وفكاه من حديد ، وعلى شفته ابتسامة محزونة ... وكان يتمنطق بحزام غليظ ، ويلبس حذاء (بتزلك) ومهماز ، وحديد فى العقبين ... كان مشهده كله يوحى بزلزال متحرك ...

واجتاز قاعة الاستقبال وحجرة الجلوس حاملا خرج الدابة البالى بيده ، وبدا لاعين امارانتا وصواحبها كقصف الرعد حتى جمدت مشدوهات رافعات ابر التطريز فى الهواء ، ولكنه ألقى الخرج فوق طاولة قريبة دون أن يزيد على كلمة (هالو) قالها بلهجة المكدود ، وكرر مثلها لربيكا التى انتفضت لدى مروره ببابها ، ولاوريليانو المستغرق بكل حواسه فى المسبك ... لكنه لم يعرج على أحد منهم ، بل تقدم الى المطبخ رأسا حيث توقف لاول مرة فى نهاية رحلة بدأت من طرف العالم الآخر ... وعندما كرر كلمة (هالو) وقفت أورسولا مدى ثانية وهى فاغرة الفم ، ونظرت فى عينيه . واذا صرخة تبدر منها ، ثم اذا هى تقذف بذراعيها حول عنقه صارخة باكية من الفرح ..

كان ابنها البكر جوزيه اركاديو .. ولقد عاد اليها فقيرا مفلسا

كما ارتحل عنها ، الى حد انها اضطرت الى اعطائه قيمة أجر حصانه ... وكان يتكلم لغة أسبانية خالطتها لهجة بحارة عامية ... وقد سألوه أين كان ، فرد بقوله : « فى الخارج » ...

وقد علق أرجوحة نومه فى الغرفة التى أفردوها له ، ونام ثلاثة ايام ... وعندما استيقظ أكل ست عشرة بيضة نيئة ، وذهب مباشرة الى حانة كاتارينو ، حيث أثار هيكله الضخم روع النساء ممزوجا بالفضول ... ثم طلب موسيقى وأمر بشراب القصب المخمر للجميع على حسابه ... ولما عرض مصارعة خمسة رجال معا على الطريقة الهندية قالوا له ان هذا غير ممكن ... وعندئذ انبرى له كاتارينو الذى لم يكن يؤمن بالشعوذة فى ألعاب القوى وراهنه على اثنى عشر بيزو اذا استطاع تحريك منصة الشراب من موضعها ... واذا جوزيه اركاديو يرفع المنصة فوق رأسه ويضعها فى الشارع... وتطلب الامر أحد عشر رجلا لاعادتها الى مكانها .. ولما الفى نساء الحانة يحاصرنه حصارا لا مهرب منه ، قدم نفسه لهن فى مزاد علنى ، فلم يترددن فى الدفع ...

على هذه الصورة أصبح يكسب قوت يومه ... لقد طاف حول العالم خمسا وستين مرة ، فى زمرة بحارة ممن لا وطن لهم ... وفى ليلته الاولى تلك ونساء حانة كاتارينو ، أخرجنه عاريا الى صالة الرقص ، لكى يرى الناس انه ليس فى جسده بوصة مربعة واحدة خلت من الوشم ، أماما وخلفا ، ومن عنقه الى أصابع قدميه ... ولم يفلح فى أن يدمج نفسه فى حياة الاسرة ... كان ينام طول نهاره، ويقضى الليل فى الحى الذى يعلوه الضوء الاحمر ، مراهنا على قوته بمختلف الصور ... وفى المناسبات النادرة التى استطاعت فيها أورسولا حمله على الجلوس معهم الى مائدة الطعام ، كان يتصنع التبسط والفكاهة ، ولاسيما فى حديثه عن مغامراته فى البلاد النائية ... فقد تحطمت به السفينة مرة فى بحر اليابان وقضى اسبوعين تتقاذفه الامواج بين الحطام ، فكان يأكل لحم رفيق له مات بضربة شمس ، فوجد لحمه المالح جدا بعد انضاج الشمس له لذيذا شهيا !.. وفى مرة أخرى قتلت سفينته فى بحر البنغال وحشا بحريا هائلا ، فعثروا فى معدته على خوذة وأسلحة وحزام محارب من العصور الماضية ... وكانت أورسولا تسمع هذا والكثير من مثله وهى تبكى ، كما لو كانت تقرأ الرسائل التى لم تصل أبدا

والتى كان جوزيه اركاديو يحدثها فيها عن فعاله ومغامراته ومآزق أسفاره ... وفى ذلك كانت تقول : « وهنا كان بيع واسع ينتظرك يا ولدى ، وطعام كثير كان يرمى للخنازير !.. » ... ولكن من وراء هذا كله لم تكن تتصور ان ابنها الذى أصطحبه (الفجر) معهم هو نفسه هذا الشاب الخليع الرقيع ، الذى يأكل نصف خنزير صغير فى غدائه ، والذى كانت غازات بطنه تذبل الازهار ... ولم تكن امارانتا تستطيع اخفاء اشمئزازها لدى المائدة وهى تراه يتجشأ بهذه الصورة الحيوانية ... وكان اركاديو ، الذى تكتمت الاسرة سر علاقة الابوة والبنوة بينهما ، لا يكاد يرد على الاسئلة التى كان يوجهها اليه اكتسابا لمودته ... وحاول أخوه أوريليانو أن يبتعث ذكرى العهود الخوالى حين كانا ينامان فى غرفة واحدة وأحاديث الطفولة وأفعالها المتواطئة ، لكن جوزيه أركاديو نسى كل هذا ، لان الحياة فى عرض البحار قد شحنت ذاكرته بالكثير والكثير مما يجاوز حدود الاستيعاب والتذكر ...

الا ربيكا وحدها التى انهارت تحت تأثيره منذ اللحظة الاولى ... فمنذ اليوم الذى شاهدته يمر فيه بباب غرفة نومها ، بدا لها بترو كريسبى مثل قطعة حلوى مزخرفة بالقياس الى هذا الفحل الذى كان تنفسه البركانى يتردد صداه فى كل أرجاء البيت ... وذهبت تحاول الاقتراب منه منتحله أى عذر ... وفى احدى المناسبات تطلع جوزيه اركاديو الى جسدها باهتمام وقح وقال لها : « انت امرأة يافتاتى الصغيرة !.. » ... وهنا فقدت كل سيطرة على نفسها .. وفى مخدعها عادت تأكل من تراب الارض ومصيص الحوائط بشراهة الايام السالفة ... وأمضت ليالى ساهرة مسهدة ترتعد من الحمى وهى تنتظر حتى يهتز البيت بعودة جوزيه اركاديو فى الفجر ...

وفى أصيل يوم والكل نيام وقت القيلولة ، لم تستطع مغالبة نفسها ، وقصدت الى غرفة نومه ... فوجدته مستلقيا فى الارجوحة التى علقها فى العوارض الخشبية بحبال سفينة ... ولقد اشتد تأثرها بجسامة الوشم الذى يكسو كل جسده العارى الى حد أنها فكرت فى التراجع ، قائلة : « معذرة ... لم أكن اعرف انك هنا » .. ولكنه قال لها : « تعالى » ... فأطاعت ... ووقفت قرب الارجوحة

وقد شعرت بالعرق البارد يغمرها ... أما هو فقد راح يربت عليها قائلا : « آه ياصغيرتى ... ستكونين زوجتى ! » ..

وبعد ثلاثة أيام عقد زواجهما ... وفى اليوم السابق ذهب جوزيه اركاديو الى محل بترو كريسبى حيث وجده يلقى درسا فى الموسيقى، فلم يتنح به جانبا وانما قال له :

ـ سأتزوج ربيكا ...

لقد امتقع وجه الشاب الايطالى ، وبادر بصرف تلاميذه ، وما ان صارا وحدهما فى الحجرة المكتظة بالادوات الموسيقية واللعب الميكانيكية حتى قال له :

ـ انها أختك ...

فرد جوزيه اركاديو قائلا :

ـ لايهمنى ...

فجفف بترو كريسبى جبينه بالمنديل الذى كان مبللا بالعطر ، وقال له :

ـ ولكن هذا ضد الطبيعة ... والى جانب ذلك فهو ضد القانون ...

تضجر جوزيه اركاديو ، لا من مجادلة بتروكريسبى ، ولكن لما بدا من شحوبه ، وقال :

ـ كل هذا لا قيمة له عندى ... وما جئت الا لاقول لك أن تبتعد من طريق ربيكا ...

ومع ذلك فان فظاظته تحطمت عندما رأى عينى بترو كريسبى تنديان ، وقال له بلهجة مختلفة :

ـ والآن ، اذا كنت تحب العائلة حقيقة ، فأمامك امارانتا ...

لقد كشف الاب نيكانور فى عظة يوم الاحد أن جوزيه اركاديو وربيكا ليسا أخا وأختا .. بيد أن أورسولا لم تغتفر قط ما عدته انتهاكا لواجب الحشمة فى الاسرة ، وعندما عاد العروسان الجديدان من الكنيسة حرمت عليهما دخول البيت ، وعدتهما من الاموات ... وهكذا استأجرا بيتا فيما وراء المدافن وأقاما به دون أن يكون فيه من الاثاث أكثر من أرجوحة نوم جوزيه اركاديو ... وفى ليلة الزفاف تسلل عقرب الى (شبشب) ربيكا ولدغ قدمها ، حتى تورم لسانها ... غير أن هذا لم يمنع أن يستمتعا بشهر عسل صاخب ترامت

أصدقاؤه الى الجيران ، الذين اشفقوا أن تقض مضاجع الموتى فى قبورهم !...

وكان اوريليانو هو الوحيد الذى أقلقه حال العروسين ... فابتاع لهما بعض الاثاث واعطاهما بعض المال الى أن ارتد أخوه جوزيه اركاديو الى عالم الواقع وأخذ يعمل فى اصلاح رقعة الارض المجاورة لفناء البيت لزراعتها ... أما أمارانتا فلم تبرأ قط من حقدها على ربيكا ، رغم ان الظروف أتاحت لها ترضية لم تكن تحلم بهـا .. ولكن أورسولا سعت الى ازالة مالحق بالاسرة من مهانة بمسـلك جوزيه اركاديو وربيكا ، وفى هذا أخذت ترحب بالشاب الايطالى بترو كريسبى فى زياراته للاسرة التى واظب عليها مودة منه واستجابة لطبعه الدمث ... وهكذا توطدت الاواصر بينه وبين امارانتا ... ومع أنه كان يعاملها من قبل كطفلة ، الا أن الايام كشفت فى طباعها أشياء محببة ، وهكذا فاجأها ذات يوم بطلب يدها زوجة له ... أما هى فلم تتوقف عن التطريز الذى كانت آخذة به ، وانتظرت برهة الى أن زالت الحمرة التى صبغت أذنيها ، وقالت وقد أكسبت صوتها رنة النضج :

— طبعا يا كريسبى ... ولكن بعد أن يعرف أحدنا الآخـر أكثر ... ليس من الخير ابدا ان يتسرع الانسان فى مثل هذه المسائل...

والواقع أن هذا اربك أورسولا ... فعلى الرغم من التقدير الذى كانت تكنه للشاب الايطالى ، الا أنها لم تستطع أن تجزم ان كان هذا القرار طيبا أو سيئا من الناحية الادبية بسبب الخطبـة الطويلة المشهورة بينه وبين ربيكا ... ولكن اوريليانو الذى أصبح رب الاسرة زاد من ارتباكها برأيه الفاصل الغامض عندما قال لها :

— ليست هذه الاوقات التى ينشغل فيها النـاس بالتفكير فى الزواج !...

ان هذا الرأى ، الذى لم تفهمه أورسـولا الا بعد مضى بعض الاشهر ، كان هو الرأى الوحيد الصادق الذى كان بوسع أوريليانو أن يبديه فى تلك الآونة ، ليس فقط بالنسبة للزواج ، ولكن بالنسبة لاى شىء لايتصل بالحرب ... انه هو نفسه ، وهو يواجه فريق الرماة بالرصاص ، لم يستطع ان يفهـم حق الفهم ذلك الترابط الغريب لسلسلة الاحداث الرهيبة الغامضة التى أفضت به الى هذا الموقف .. ان وفاة ريميديوس لم يولد فى نفسه ذلك اليأس

الذى كان يخافه ... كان شعوره أقرب الى تبلد حسى غاضب استحال تدريجيا الى لون من الاحباط شبيه بما كان يطبع شعوره وهو مستسلم لحياته كانسان يعيش بغير امرأة .. وقد عاد الى الاستغراق فى عمله من جديد ، بيد أنه حافظ على عادته فى التردد على بيت صهره القاضى دون أبولينار موسكوت لملاعبته «الدومينو» ... وفى هذا البيت الذى كان يلفه الحداد ، تكفل الحديث الليلى بدعم أواصر الصداقة بين الرجلين ... وذات مرة قال له صهره :

— تزوج مرة ثانية ياأوريليانو ... عندى ست بنات ، لك ان تختار احداهن ...

وفى احدى المناسبات ، قرب اجراء الانتخابات العامة ، عاد دون أبولينار موسكوت من احدى رحلاته المتكررة الى عاصمة الاقليم يساوره القلق بصدد الموقف السياسى فى البلاد ... فان الليبراليين المعارضين للحكومة كانوا مصممين على محاربتهـا ... ولما كان اوريليانو فى ذلك الحين ليست لديه سوى أفكار مشوشة عن الفوارق بين الليبراليين والمحافظين ، فقد تكفل صهره بتوضيح ما غمض عليه من هذه الناحية ، خصوصا تمسك حكومة المحافظين بالحفاظ على سلطة الدولة والوحدة الوطنية ودعم روابط الدين والاسرة ومناهضة تقسيم البلاد الى كيانات ذاتية الحكم ... ولكن مهما يكن من تعاطف اوريليانو مع الليبراليين فى بعض النواحى الانسانية مثل الاعتراف بحقوق الاطفال الطبيعية ، فانه لم يفهم قط كيف يتطرف بعض الناس الى حد أشهار الحرب الاهلية بسبب معتقدات قابلة للصواب والخطأ ... ومن هذا القبيل بدا له انها مبالغة من صهره أن يسعى الى استقدام ستة جنود مسلحين بالبنادق تحت امرة رئيس لهم فى مناسبة اجراء الانتخابات ... وقد قام الجنود فور حضورهم بالطواف ببيوت البلدة بيتا بيتا يصادرون كل مابها من اسلحة صيد ومحشات زراعة ، حتى سكاكين المطابخ ، ويوزعون على الركور فوق الحادية والعشرين بطاقات بأسماء المرشحين ، زرقاء للمحافظين وحمراء لليبراليين ...

وبعد اجراء الانتخابات وفوز المحافظين لجأ الليبراليون بعد ماشاع من تزوير نتائج الانتخابات الى التطرف ، الى حد أنهم قرروا اغتيال دون ابولينار وبناته الست فيمن دبروا اغتيالهم من أعوان المحافظين ... وعندما نمى هذا التدبير الى أوريليانو الذى كان حتى ذلك

الحين يقف موقف الحياد دون ان ينحاز الى أحد الفريقين ، ثارت ثائرته ، وواجه زعيم المتآمرين قائلا : « لا أنت ليبرالى ولا أى شىء ... ما أنت الا جزار !.. » ...

وعلى الاثر لزم اوريليانو بيت دون موسكوت كل ليلة ... وقد راى المتآمرون من عزمه ماجعلهم يرجئون تنفيذ المؤامرة الى أجل غير مسمى ..

كانت هذه هى الظروف التى جاءته فيها أورسولا تسأله الرأى فى زواج بتروكريسبى وامارانتا ، والتى رد فيها بقوله انه ليست هذه بالاوقات التى ينشغل فيها الناس بالتفكير فى الزواج ... وقد ظل مدى أسبوع يحمل طبنجة عتيقة تحت قميصه وهو لايغفل عن مراقبة حركات الليبراليين وفيهم كثير من أصحابه ... وكان يذهب فى فترات الظهر لشرب القهوة مع أخيه جوزيه اركاديو وزوجته ربيكا ، اللذين بدآ ينظمان بيتهما .. فاذا كانت الساعة السابعة قصد الى دار صهره للعب « الدومينو » فى الظاهر والسهر على سلامته فى الواقع ... اما وقت الغداء فكان يذهب الى اركاديو فى المدرسة التى اختار أن يقيمها لتعليم الصغار ، والكبار ، وكان قد ترعرع واصبح فتى قويا مثل أبيه جوزيه اركاديو ، ولكن أوريليانو وجده متحمسا للحرب الاهلية التى كانت نذرها تلوح فى الافق ، بعد أن أعدته حمى الليبرالية ... وعندئذ عمل أوريليانو على تهدئته والحد من تطرفه ، وأوصاه بالتزام جانب الحكمة والاتزان — وان كان ابن الاخ هذا قد تمادى فى اندفاعه الى حد انه عير أوريليانو علنا ذات مرة بالضعف والاستكانة ...

وفى النهاية ، وفى بداية شهر ديسمبر ، اندفعت أورسولا الى داخل مسبك المعادن حيث كان أوريليانو منهمكا فى العمل ، صائحة:

— لقد بدأت الحرب !..

والواقع أن الحرب بدأت قبل ذلك بثلاثة أشهر ... فقد اعلنت الاحكام العرفية فى البلاد كلها .. وكان الشخص الوحيد الذى عرف بأمرها مباشرة فى البلدة هو دون ابولينار موسكوت ، بيد انه لم يبلغ النبأ حتى لزوجته بينما كانت السرية التى كان عليها أن تحتل البلدة مباغتة فى طريقها لتنفيذ هذه المهمة ... وفعلا دخلت السرية البلدة فى سكون قبل الفجر ، مصحوبة بقطعتين من المدفعية الخفيفة تجرهما البغال ، واتخذت مقرها فى المدرسة .. وفى الساعة السادسة

مساء اعلن حظر التجول ... وقد قاموا بتفتيش صارم من بيت الى بيت ، مصادرين حتى ادوات الزراعة ... وقبضوا على زعيم المؤامرة وربطوه فى شجرة فى الميدان وأعدموه رميا بالرصاص ... وحاول الاب نيكانور أن يتدخل ، ولكن أحد الجنود شج رأسه بكعب بندقيته ... وهكذا اخمدت النزعة الليبرالية فى البلدة بهذا الارهاب ... ومضى أوريليانو فى انطوائه وغموضه يلعب (الدومينو) مع صهره ، وقد أدرك انه على الرغم من صفته الرسمية كزعيم مدنى وعسكرى للبلدة ، الا انه أصبح مجرد واجهة ، بعد أن صارت القرارات فى يد قائد السرية ، الذى درج كل صباح على جباية ضريبة غير عادية للدفاع عن الامن العام ... وقام أربعة جنود تحت امرته بانتزاع امرأة عضها كلب مسعور من احضان أسرتها وقتلوها بكعوب بنادقهم ... وبعد مضى أربعة أسابيع على الاحتلال ذهب أوريليانو يوم أحد الى دار صديقه جيريلدو ماركيز وكان من أبرز الليبراليين ، وفاجأه بعد شرب القهوة بلهجة آمرة لم تعهد فيه من قبل ، قائلا :

— اجمع الفتيان واستعدوا .. سندخل الحرب ...

لم يصدقه جيريلدو ماركيز ، وقال له :

— وبأية أسلحة ؟..

فأجاب أوريليانو :

— بأسلحتهم ...

وفى يوم الثلاثاء عند منتصف الليل ، وبعملية جنونية ، باغت واحد وعشرون رجلا دون سن الثلاثين وبقيادة أوريليانو بويندبا وهم مسلحون بسكاكين المطبخ والادوات الحادة — باغتوا أفراد الحامية ، وانتزعوا أسلحتهم ، وفى الفناء أعدموا قائدهم مع الجنود الاربعة الذين قتلوا المرأة ...

وفى نفس الليلة ، بينما كان صوت فريق الرماة بالرصاص يتردد، عين اركاديو قائدا مدنيا وعسكريا للبلدة ... ولم يكن المتزوجون من المتمردين يجدون وقتا لتوديع زوجاتهم وتركوهن لتدبير شئونهن وحدهن ... ثم ارتحلوا فى الفجر مشيعين بالهتاف من أهل البلدة بعد ان خلصوهم من الارهاب ، لكى ينضموا الى قوات القائد الثورى فكتوريو مدينا ، الذى تواتر أنه فى طريقه الى مدينة مانور

... وقبل الرحيل أخرج أوريليانو القاضى دون ابولينار موسكوت من داخل دولاب الملابس وقال له :

– لك أن تطمئن ياصهرى ... ان الحكومة الجديدة تضمن بشرفها سلامتك الشخصية وسلامة أسرتك ...

لقد كاد يتعذر على دون ابولينار موسكوت أن يتعرف فى هذا المتآمر ذى الحذاء العالى والبندقية المعلقة على كتفه ذلك الشاب الذى كان يلاعبه « الدومينو » حتى الساعة التاسعة كل ليلة ، ولم يتمالك ان هتف باسم التدليل الذى كان يناديه به :

– هذا جنون ، يا اوريليتو !..

فرد عليه أوريليانو قائلا :

– ليس جنونا ... انها الحرب ... ولا تنادنى باسم أوريليتو بعد ذلك ... أنا الآن الكولونيل أوريليانو بوينديا ...

الفصل السادس

نظم الكولونيل اوريليانو بوينديا اثنين وثلاثين تمردا مسلحا وخسرها جميعا ... وقد انجب سبعة عشر طفلا من سبع عشرة امراة ، ولكنهم هلكوا جميعا واحدا بعد الآخر فى ليلة واحدة قبل ان يبلغ اكبرهم سن الخامسة والثلاثين ... واستهدف لاربع عشرة محاولة لاغتياله ، وثلاثة وسبعين كمينا ، ومرة لاعدامه بالرصاص أمام فريق الرماة – ولكنه نجا منها جميعا ... كما نجا من الموت بجرعة من السم تكفى لقتل جواد ... وقد رفض قبول وسام الجدارة الذى انعمت به عليه الدولة بعد الحرب الاهلية ... وارتقى الى مرتبة القائد العام لقوات المتمردين ، مع تقلده سلطات التشريع والقيادة ، حتى غدا اكثر رجل تخشاه حكومة المحافظين .. بيد أنه لم يسمح قط بأخذ صورته الفوتوغرافية ... ورفض قبول المعاش لمدى الحياة الذى قدم له بعد الحرب ... والى أن ادركته الشيخوخة كان يكسب قوته اليومى من تماثيل الاسماك المذهبة الصغيرة التى كان يصنعها فى معمله ببلدة ماكوندو .. وعلى الرغم من انه كان يقاتل دائما على راس رجاله ، فان الجرح الوحيد الذى تلقاه كان الجرح الذى اصاب نفسه به بعد توقيع (معاهدة نيرلانديا)

التى وضعت نهاية لقرابة عشرين سنة من الحرب الاهلية .. فقد أطلق رصاصة على صدره من طبنجة ، وخرجت الرصاصة من ظهره دون أن تعطب أى عضو من أعضائه الحيوية ... وكان الاثر الوحيد الذى بقى من كل هذا هو اطلاق اسمه على شارع ببلدة ماكوندو .. ومع ذلك ، وطبقا لما صرح به قبل سنوات قلائل من وفاته بالشيخوخة ، فانه لم يكن يتوقع أى شىء من هذا كله ، فى فجر ذلك اليوم الذى خرج فيه مع رجاله الواحد والعشرين للانضمام الى قوات الجنرال فكتوريو مدينا ..

كان كل ماقاله لابن اخيه أركاديو عند الرحيل :

– اننا نترك ماكوندو تحت رعايتكم ... اننا نتركها فى خير حال ... فلتحاول أن تجعلها فى أحسن حال عندما نعود ..

لقد ترجم اركاديو هذه الوصية ترجمة ذاتية منبعثة من شخصه ... فقد ابتكر كسوة مارشال مزخرفة ، وتمنطق بحزام عريض تدلى منه سيف ذو خصلات ذهبية كان يحمله قائد السرية الذى اعدموه ... ونصب قطعتى المدفعية عند مدخل البلدة ، والبس تلاميذه السابقين كسى عسكرية ، أولئك الذين الهب خيالهم بتصريحاته النارية ، وجعلهم يجولون فى الشوارع مسلحين لكى يوحوا الى الغرباء بمنعتهم ... وكان هذا التمويه سلاحا ذا حدين ، لان الحكومة ، لم تجسر على مهاجمة البلدة مدى عشرة أشهر ، ولكنها عندما فعلت أطلقت عليهم قوة كبرى جائحة تكفلت بتصفية المقاومة فى خلال نصف ساعة ... ومنذ اليوم الاول لحكم اركاديو ، كشف عن هيامه باصدار الاوامر العسكرية المتلاحقة ، التى كانت تصل الى اربعة فى اليوم الواحد وتتناول كل مايطرأ على باله ... ومن ذلك انه فرض الخدمة العسكرية الاجبارية على الرجال فوق سن الثامنة عشرة ، وأعلن الاستيلاء على الحيوانات التى تمشى فى الشوارع بعد السادسة مساء واعتبارها من الممتلكات العامة ، وأمر ان يضع الرجال المسنون أشرطة حمراء حول أذرعتهم ... وفرض الحراسة على الاب نيكانور فى بيت الابريشية وحظر اقامة القداس ودق الاجراس الا اذا كانت من أجل اعلان انتصار لليبراليين ... واول الامر لم يأخذ أحد أوامره مأخذ الجد ، واعتبر الناس هذا من قبيل لعب تلامذة مدارس يتقمصون دور الكبار ... ولكن حدث ذات ليلة عندما ذهب أركاديو الى حانة كاتارينو أن حياة (نافخ

البروجى » وكان بين الموجودين بنفخ بوقه مما جعل رواد الحانة يضجون بالضحك ، فأمر اركاديو باعدامه رميا بالرصاص بتهمة الاخلال بواجب الاحترام للسلطات ... وكانت أورسولا فى كل مرة تسمع فيها بعمل من أعماله التعسفية تصرخ فى وجهه قائلة :

ـ ياقاتل ، ياسفاك !.. عندما يعرف أوريليانو سوف يرميك بالرصاص ، وسأكون أول من يفرح بذلك !..

ولكن اركاديو تمادى فى أعمال القمع حتى غدا أقسى حاكم عرفته ماكوندو ... وفى هذا قال دون أبولينار موسكوت ذات مرة :

ـ فلندعهم الان يعرفون الفرق ويتحملون !.. هذاهو الفردوس الليبرالى !..

وعندما ترامى هذا الكلام الى سمع اركاديو قام على رأس قوة من رجاله بمهاجمة البيت حيث دمروا أثاثه وجلدوا بناته وسجنوا دون ابولينار موسكوت الى خارج البيت ..

ولما اندفعت اورسولا الى مقر القيادة بعد أن طافت بالبلدة تندد بهذا العار وتلوح فى غضبتها بكرباج ملطخ بالقار ، وجدت اركاديو ذاته فى فناء المبنى يستعد لاصدار الامر الى فريق الرماة باطلاق النار ، فصرخت قائلة :

ـ اننى اتحداك يابن الزنا !..

وقبل ان يجد اركاديو وقتا لرد الفعل هوت عليه بأول ضربة من السوط صارخة :

ـ اننى اتحداك ياقاتل !... اقتلنى انا أيضـا ، يابن المرأة الموبوءة !... بهذه الطريقة لن تبقى لى عينان أبكى بهما معرتى لاننى ربيت وحشا !..

وجعلت تجلده بلا رحمة وتطارده الى خلف الفناء حيث انكمش اركاديو على نفسه مثل قوقعة ... وكان دون أبولينـار موسـكوت مقيدا الى عمود مغمى عليه .. وفى هذه الاثناء تفرق فتيان فريق الرماة خوفا من أن تحمل عليهم أورسولا أيضا .. بيد أنها لم تكلف نفسها حتى عناء النظر اليهم ، وتركت اركاديو ممزق الكسـوة وهو يضج بالالم محنقا ، وفكت رباط دون أبولينار موسـكوت وصحبته الى بيته ... وقبل أن تغادر مقر القيادة أطلقت سراح المعتقلين الذين زج بهم اركاديو فى المحبس تعسفا ...

ومنذ ذلك الحين أصبحت هى التى تتولى زمام الحكم فى البلدة ،

فأعادت شعائر القداس ، وألغت كافة الاوامر التعسـفية المخبولة التى أصدرها اركاديو ... ولكن بالرغم من قوتها ، فانها كانت تبكى حظها العاثر ... وقد شعرت بوحدة مطبقة الى حد انها كانت تسعى الى صحبة زوجها غير المجدية وهو منسى منبوذ تحت شجرة الكستناء ، وكانت تقول له فى غمرة امطار يونيو التى كانت تهدد بتقويض عشه الواهى :

ـ انظر الى ماصار اليه حالنا .. انظر الى بيتنا الخـاوى ، واطفالنا الذين تفرقوا فى العالم ، ونحن الاثنين وحدنا مرة أخـرى ، مثلما كنا فى البداية !.. ان أوريليانو خرج الى الحرب منذ أكثر من اربعة أشهر ولم نسمع عنه شيئا حتى الآن !.. وجوزيه اركاديو ابننا عاد الينا رجلا ضخما ، وأطول منك ، وجسمه كله مغطى بابر الوشم ، ولكنه لم يفعل أكثر من أنه جلب العار على البيت !...

وعندما بدا لها أن زوجها لابسته مسحة حزن فى لحظات الوعى العابرة التى كانت تلم به ، للاخبار المكدرة ، رأت أن تلون كلامهـا بالكذب ، فمضت تقول فى اختلاقها :

ـ لقد شاءت ارادة الله أن يتزوج جوزيه اركاديو وربيكا ، وهما الان سعيدان .. واركاديو هو الآن رجل جاد ، وباسل جدا ، وشاب جميل الصورة بكسوته العسكرية وسيفه ... وهل تصدق أن الحظ بدا يحالفنا من جديد .. فان امارانتا وعازف البيانولا الايطالى سوف يتزوجان !..

والواقع أن امارانتا وبترو كريسبى قد وطدا صداقتهما ، بحماية من اورسولا ، حتى لم يعد أحد يشك فى انهما سـيكونان زوجين موفقين ... ثم ان مدة الحداد على ريميديوس بدأت تتلاشى فى ظل اثقال الحرب ، وغياب اوريليانو ، ووحشية اركاديو ، واقصـاء جوزيه اركاديو وربيكا من البيت ...

وهكذا جاء اليوم الذى بلغ فيه حب وصبر بترو كريسبى منتهاهما ... وتصادف أن اقترن هذا اليوم بأمطار اكتوبر المنحوسة ... وقد قال بترو كريسبى لامارانتا أخيرا وهو ينحى سلة التطريز من يدها :

ـ سوف تتزوج فى الشهر المقبل ...

لم ترتعد امارانتا لملمس يديه المثلجتين ، وجذبت يدها مثـل حيوان صغير وجل وعادت الى التطريز قائلة :

— لا تكن سليم النية ياكريسبى ... لن اتزوجك حتى لو كنت من الاموات ...

عندئذ فقد بترو كريسبى كل سيطرة على أعصابه .. وأجهش بالبكاء فى غير استحياء وهو يكاد يقصف أصابعه يأسا ، بيد أنه لم يستطع أن يثنيها .. وكان كل ما قالته امارانتا له :

— لا تضيع وقتك .. ان كنت تحبنى الى هذا الحد ، فلا تضع قدمك فى هذا البيت بعد الآن ...

ولقد شعرت اورسولا انها ستفقد عقلها خجلا وخزيا ... وعلى الرغم من ان بترو كريسبى لم يدخر وسيلة الا استعان بها لاسترضاء امارانتا ، الا ان كل محاولاته ذهبت أدراج الرياح ، وظلت امارانتا على ابائها لا تلين لها قناة ولا يرق لها قلب ...

وذات صباح من شهر نوفمبر فتح شقيق بيترو كريسبى الاصغر متجر الادوات الموسيقية واللعب الميكانيكية الذى كان يديره نيابة عن أخيه ، فوجد جميع الانوار مضاءة ، وكل الادوات الموسيقية تعزف ، وكل الساعات تدق دقات الساعة متواصلة — وفى ابان هذا العزف المجنون عثر على بيترو كريسبى لدى المكتب فى اقصى المتجر وقد قطع معصميه بموسى والدم مصبوب فى اناء تحت يديه ..

اصرت اورسولا ان تنقل جثة المتوفى الى بيتها للسهر عليه حتى يتم تشييع الجنازة .. وقد خرجت البلدة كلها فى اليوم المحدد تودعه الى مثواه الأخير فى موكب مهيب بالغ الاسى ... وكانت امارانتا فى فراشها تسمع بكاء اورسولا وخطى وهمسات جموع المعزين ونحيب النادبين دون أن تغادر مخدعها ... ولكن كان لديها من القوة والاحتمال ما نأى بها عن الوقوع فريسة الحمى ... ولقد تجنبتها اورسولا وصدت عنها .. بل انها لم ترفع حتى عينيها نحوها رثاء ومشاطرة عندما رأتها تدخل الى المطبخ عصر ذات يوم وتدس يدها داخل الفحم المتوهج فى الموقد وتبقيها كذلك الى الحد الذى لم تعد تشعر فيه بألم حتى سرت الى انفها رائحة اللحم المحترق .. وظلت اياما كثيرة وهى تتنقل فى أرجاء البيت ويدها مغموسة فى اناء به بياض البيض ، وعندما التأمت الحروق ، بدا وكأن حروق قلبها لن تلتئم ابدا ... وكانت الآثار الوحيدة التى تخلفت عن الفاجعة هى ضمادة من شاش اسود لفتها حول يدها المحترقة وظلت تحملها حتى مماتها ...

وقد ابدى أركاديو كرما نادرا باعلان الحداد الرسمى على بيترو كريسبى .. وفسرت اورسولا هذا على أنه بمثابة عودة الحمل الشارد .. بيد انها كانت مخطئة .. فقد فقدت أركاديو ، لا منذ ان لبس نفسه الكسوة العسكرية ، ولكن منذ البداية ... كانت تظن انها انشأته وربته كابن ، كما أنشأت وربت ربيكا ، دون ما أى تمييز او تفرقه .. وعلى الرغم من ذلك فان أركاديو كان طفلا انعزاليا مرتعبا فى كافة التقلبات التى مرت بالاسرة : فى خلال سيطرة اورسولا وتحكمها كربة للبيت مطلقة السلطان والتصرف ، وفى خلايا أطوار الهوس التى طبعت حياة « جوزيه أركاديو بوينديا » ، وفى ظل اعتزال أوريليانو لمباذل الشباب ، وفى ظل المنافسة الحامية بين أمارانتا وربيكا ... نعم ان أوريليانو علمه القراءة والكتابة ، ولكن كما يفعل حيال أى شخص غريب ، انصرافا منه الى شئون أخرى .. وكان يعطيه ملابسه المستعملة ، حتى كان اركاديو يقاسى من الاحذية المتسعة عليه ، ومن البنطلونات المرقعة .. وهو لم ينجح فى التفاهم مع أحد بأحسن مما كان يتفاهم مع التابعين الهنديين بلغتهما .. ومن ثم كانت المدرسة ، حيث كانوا يعيرونه الاهتمام ويحترمونه ، وحيث استمد منها القوة والصولة فيما بعد ، مقرونتين بالكسوة العسكرية والاوامر النافذة — كانت المدرسة هى التى حررته من اثقال المرارة القديمة التى طالما اعتملت فى صدره .. وذات ليلة تجاسر أحدهم فى مشرب كاتارينو وقال له :

— أنت لا تستحق اللقب الذى تحمله ..

وخلافا لما توقعه الجميع ، لم يأمر أركاديو باعدامه رميا بالرصاص وانما رد قائلا :

— من دواعى عظيم شرفى اننى لست من اسرة بوينديا ...

وقد ظن اولئك الذين يعرفون سر أبويه ان رده يعنى انه عليم أيضا بهذا السر ، بيد انه لم يعلمه قط .. وكانت « بيلار تيرنيرا » — امه — تلك التى كانت تضرم النيران حامية فى عروقه كلما أشرفت عليه فى غرفة التحميض المظلمة بالمعمل — كانت امرأة تذكى مشاعره بقوة عارمة مثلما كانت بالنسبة لجوزيه أركاديو « أبيه » ، ومن بعده أوريليانو ، وعلى الرغم من أنها فقدت مفاتنها وضحكتها الصادحة .. وكان يتعقبها ويستدل على أثرها من ذلك الاريج الدخانى الذى يفوح منها ... وقد حدث قبل الحرب بفترة قصيرة

عندما تأخرت فى الحضور الى المدرسة ظهرا لاصطحاب طفلهـــا الأصغر « من أب مجهول » ، ان راح أركاديو ينتظرها فى الغـرفة التى اعتاد ان ينام فيها قيلولته ... وفيما كان الطفل يلعب فى فناء المدرسة ، كان أركاديو ينتظر فى أرجوحته وهو يرتعد قلقا وتشوقا ، عارفا أن بيلار تيرنيرا لابد أن تمر من الغرفة .. وجاءت فعلا ... واذا أركاديو يجذبها من معصمها محاولا حملها الى الارجوحة .. فقالت بيلار تيرنيرا فى هلع :

ـ لا يمكننى !.. لا يمكننى !.. لا يمكنك أن تتصور الى أى حد اود أن أسعدك ، ولكن يشهد الله ان هذا ليس فى امكانى !..

فأمسك أركاديو بخصرها بقوته الهائلة الوراثية وقد شعر بالدنيا تغيب عنه من ملمس بشرتها ، وقال لها :

ـ لا تمثلى دور القديسة ! .. على أى حال فالكل يعرفون انك بغى ! ..

تغلبت بيلار على التقزز الذى ابتعثه فى نفسها علمها بحظهـــا السيىء ، وغمغمت قائلة :

ـ أن الاطفال سيكتشفون الموقف .. الافضل أن نترك البـاب بغير مزلاج هذه الليلة ! ..

وفى تلك الليلة انتظرها أركاديو فى أرجوحته وهو يرتعد ارتعـاد المحموم .. انتظر دون أن ينام والليل يمر بطيئا متثاقلا حتى اشفى على الفجر ، مما أقنعه بأنه كان مخدوعا ... وفجأة ، عندما استحال الانتظار والقلق الى غضب ، فتح الباب أخيرا ..

كانت الخطى متخبطة فى الظلام وبين « تخت » الفصل .. ولما مد يده وجد يدا أخرى متختمة بخاتمين فى اصبع واحد ، على غير ما عرف فى بيلار تيرنيرا .. واذ لم ينفذ الى انفه الاريج الدخانى واشتم رائحة عطر عادى ، فقد أيقن أن هذه ليست المرأة التى كان ينتظرها ...

كانت فتاة تدعى « سانتا صوفيا بيدال » ، وقد نقدتهـا بيـلار تيرنيرا خمسين بيزو وهى نصف ما ادخرته فى حياتها ، لكى تذهب مكانها ... وكان أركاديو قد شاهدها مرارا كثيرة فى محل البقـالة الصغير الذى يملكه أبواها ولكنه لم يكن يهتم بها .. ولـكن منـذ تلك الليلة درجت على أن تذهب اليه فى المدرسة فى فترة القيلولة ، بموافقة أبويها ، اللذين منحتهما بيلار تيرنيرا النصف الباقى مــن

مدخراتها ... وظل الحال كذلك الى أن اصبح أركاديو قـــائدا عسكريا مدنيا ، وله منها بنت ...

وكان الاقرباء الوحيدون الذين يعرفون ذلك همـــا أبوه جوزيه أركاديو وزوجته ربيكا ، بعد أن وطد أركاديو صلاته بهما فى ذلك الحين ، لا لصلة القرابة ، ولكن لمصلحة خاصة جعلت منه ومن أبيه شريكين متواطئين .. فان الزواج جعل من جوزيه أركاديو انســانا طيعا عاملا ، يخرج الى الغابة كل يوم محتقبا بندقية الصـــيد المزدوجة بصحبة كلاب الصيد المدربة ، ويعود الى البيت الذى جملته ربيكا ، بحصيلته من الارانب والبط البرى ، والغزلان احيانا ... وذات يوم زاره أركاديو فى مستهل حكمه للبلدة زيارة مفاجئة دعى فيها للغداء .. وأثناء شرب القهوة كشف أركاديو عن الغـرض من الزيارة ، وهو شكوى قدمت اليه ضد جوزيه أركاديو .. فقد قيل انه لم يكتف برقعة الارض التى كان يفلحها ، بل عمل على زيادتهـا باغتصاب الاراضى المجاورة بالقوة الجبرية ، وتمادى فى هذا الى حد فرض اتاوة على جيرانه يحصلها كل يوم سبت تحت ارهـــاب كلابه وبندقيته المزدوجة ... ثم تبين أن أركاديو لم يأت لتصحيح الاوضاع ورفع الظلم ، بل لادراج الارض كلها ، ما لاخيه وما ليس له ، فى سجل رسمى ، بشرط أن يترك للحكومة تحصيل الاتاوات ... وعلى هذا تم الاتفاق بين الاثنين .. وفى السنوات التاليـــة ، عندما قام الكولونيل أوريليانو بوينديا بفحص سجل المتلكـــات العقارية ، تبين أنه قد سجلت باسم اخيه جوزيه أركاديو كـــافة الاراضى الممتدة بين التل حيث كانت رقعته الصغيرة وبين الافق ، بما فيها أرض المدافن ... كما اكتشف أن أركاديو لم يكن يحصـــل فقط الاتاوات ، بل كان يتقاضى كذلك رسوما من الافـــراد نظير دفن موتاهم فى أرض جوزيه أركاديو ...

وكان حتما أن تفوح رائحة الفساد الى انف اورسولا وأن تسمع بأن أركاديو ابتنى لنفسه بيتا واستجلب أثاثا فاخرا من الخـــارج ، ولكنها لم تعلم علم اليقين الا بعد أن زارته فى بيته الجديد ذات يوم وهو يلعب الورق مع ضباطه ... عندها أيقنت انه يستغل الاموال العامة لحسابه ، ولم تتمالك أن صرخت فيه قائلة :

ـ أنت عار على اسم أسرتنا وسمعتها !..

أما أركاديو فلم يعبأ بها .. ويومها فقط عرفت أن له طفلة عمرها

ستة اشهر ، وان « سانتا صوفيا بيدال » التى كان يعاشرها بغير زواج ، حامل مرة اخرى .. فاستقر عزمها على مكاتبة الكولونيل أوريليانو بوينديا ، حيثما يكون ، لاطلاعه على احدث مجريات الامور .. بيد ان الاحداث المتلاحقة بسرعة فى تلك الايام حالت دون تنفيذ عزمها ... ذلك ان الحرب التى كانت حتى ذلك الحين مجرد كلمة لوصف ظرف بعيد غامض ، قد استحالت الى واقع محسوس درامى ... فقد حدث قرب نهاية شهر فبراير ان وصلت الى ماكوندو امراة عجوز كالحة الوجه راكبة حمارا محملا بالمكانس ... وكانت علائم المسالمة بادية على المراة الى حد ان الحرس تركوها تمر دون سؤال باعتبارها بائعة متجولة مثل غيرها من الباعة الوافدين من منطقة المستنقعات .. وقد اتجهت المراة العجوز الى الثكنات مباشرة .. فاستقبلها أركاديو فى فصل المدرسة الذى كان قد تحول الى معسكر خلفى للحرس علقت على جدرانه اراجيح النوم وتناثرت على ارضه البنادق والطبنجات وحتى بنادق الصيد القصيرة .. واذا المراة العجوز تنتفض فى وقفة انتباه وتحيى تحية عسكرية معرفة نفسها قائلة :

ـ انا الكولونيل جريجوريو ستفنسون ...

ولقد جاء معه بأنباء سيئة .. فان آخر مراكز المقاومة لليبراليين بدات تتصدع وتسقط تباعا .. وقد عهد اليه الكولونيل اوريليانو بوينديا ، الذى تركه يقاتل متقهقرا قرب بلدة ريوهاشا ، برسالة لابلاغها الى اركاديو .. وكان عليه ان يسلم ماكوندو دون مقاومة ، شرط احترام حياة وممتلكات الليبراليين .. وقال اركاديو للرسول وهو يتفحصه بنظره فى عجب ورثاء معا :

ـ طبعا احضرت معك رسالة خطية ...

فرد المبعوث قائلا :

ـ بالطبع لم احضر معى شيئا من هذا القبيل .. فالمفهوم فى مثل الظروف الحاضرة الا يحمل الانسان شيئا يمكن أن يدينه ...

وشفع هذا الكلام بأن دس يده فى « مشده » النسائى واخرج سمكة مذهبة صغيرة قائلا :

ـ اظن ان هذا سيكفى ...

أيقن أركاديو انها حقا من تلك الحلى الصغيرة التى كان يصنعها الكولونيل أوريليانو بوينديا ... لكن كان من الممكن لأى انسان

ان يبتاع مثلها قبل الحرب أو يسرقها ، فلا يمكن الاعتماد عليها كجواز مرور عسكرى .. وعندئذ لجأ الرسول لكى يصدقوا هويته الى افشاء سر حربى ، فقال انه موفد فى مهمة الى بلدة كوراكاو ، حيث يؤمل فى تجنيد المهاجرين المنفيين من كل انحاء البحر الكاريبى وجمع أسلحة وامدادات تكفى لمحاولة النزول الى البر عند نهاية العام .. ونظرا لايمان الكولونيل أوريليانو بويندا بهذه الخطة ، فانه غير ميال الى بذل تضحيات لا جدوى منها فى ذلك الحين ... ورغم هذا كله فان أركاديو لم ينزل عن اصراره ، فأمر بوضع الاسير تحت التحفظ الى ان يمكنه اثبات هويته ، وصمم على الدفاع عن البلدة حتى الموت ...

ولم يكن له أن يطول انتظاره ... فان أخبار هزيمة الليبراليين غدت حقيقة واقعة .. فقرب نهاية شهر مارس فى فجر يوم هطلت امطاره على غير انتظار ، بدد سكون الاسابيع السابقة فجأة أصوات نفير ملعلع وطلقة مدفع اطاحت ببرج الكنيسة الامامى .. وفى واقع الامر كان قرار أركاديو بالمقاومة جنونا لا شك فيه ... فلم يكن تحت امرته أكثر من خمسين رجلا مسلحين سلاحا هزيلا ، وما معهم من الذخيرة لا يزيد على عشرين طلقة لكل مقاتل .. ولكن التلاميذ السابقين بين الجنود هبوا للدفاع والاستبسال حتى الموت ، مشحونين بالبيانات الحماسية التى كان أركاديو يبثها فى صدورهم ... وفى غمار هذا الوطيس الحامى أفلح الكولونيل ستفنسون المزعوم فى الاتصال بأركاديو وقال له :

ـ لا تدعنى أحتمل مذلة الموت فى الحبس وأنا فى ملابس النساء هذه .. ان كان لابد لى من الموت ، فدعنى أمت مقاتلا ..

واستطاع اقناع أركاديو الذى أمر باعطائه سلاحا وعشرين طلقة ، ومضى مع خمسة رجال للدفاع عن مقر القيادة ، بينما انطلق أركاديو على رأس أركان حربه للاشراف على المقاومة ...

ولم يتقدم بعيدا ... فقد تحطمت الاستحكامات ، وأصبح المدافعون يقاتلون مكشوفين فى الشوارع حتى نفدت ذخيرتهم وغدوا يشتبكون بالايدى .. ومع اقتراب الهزيمة خرجت بعض النساء الى الشوارع مسلحات بالعصى وسكاكين المطابخ .. وفى غمرة الفوضى عثر أركاديو على أمارانتا التى كانت تبحث عنه كمجنونة وهى فى جلباب نومها ومعها طبنجتان قديمتان مملوكتان لجوزيه أركاديو

بوينديا ... فأعطى أركاديو بندقيته لضابط فقد سلاحه وتسلل مع امارانتا من شارع قريب لاعادتها الى البيت .. وكانت أورسولا لدى الباب تنتظر ، غير عابئة بطلقات المدفع التى أحدثت ثغرة فى واجهة البيت المجاور .. وترك اركاديو أمارانتا مع أورسولا وحاول مواجهة جنديين فتحا نيرانا ثقيلة لدى الناصية ... لكن الطبنجتين العتيقتين لم تعملا ... وفى هذه اللحظة عمدت أورسولا الى حماية أركاديو بجسدها محاولة جذبه الى ناحية المنزل صائحة :

ـ تعال معى ناشدتك الله ! .. يكفى ماكان من جنون !..

فصاح أحد الجنديين بدوره :

ـ دعى هذا الرجل ياسيدة ، والا فلن نكون مسئولين ! ...

فدفع أركاديو أورسولا فى اتجاه البيت واستسلم ... وبعد فترة قصيرة توقف اطلاق النار ، وبدأت الاجراس تدق ... فقد ابيدت المقاومة عن آخرها فى أقل من نصف ساعة .. ولم ينج رجل واحد من رجال اركاديو فى هذه المعركة ، ولكنهم قتلوا ثلاثمائة من الجنود المهاجمين قبل مصرعهم .. وكان المعقل الاخير الباقى هو الثكنات .. وقبل مهاجمته أطلق الكولونيل جريجوريو ستفنسون المزعوم سراح الاسرى وأمر رجاله بالخروج والقتال فى الشارع .. وقد أعطت سرعة الحركة ودقة التصويب التى استنفد بها العشرين طلقة التى أعطيت له ـ أعطى الانطباع بأن الثكنات تحت دفاع قوى ، حتى عمل المهاجمون على نسفها بنيران المدافع ... ولقد روع الضابط الذى قاد العملية اذ وجد أنقاض الثكنات خاوية الا من رجل واحد صريع فى ملابسه الداخلية ومازالت يده المبتورة ممسكة ببندقية فارغة ... وكان للرجل الصريع شعر امرأة معقود خلف الرقبة بمشط وحول عنقه سلسلة تدلت منها سمكة ذهبية صغيرة ... وعندما اداره بطرف حذائه وسلط الضوء على وجهه ، لم يتمالك ان هتف متحيرا :

ـ يا الهى ! ...

ولما اقترب منه الضباط الآخرون أضاف قائلا :

ـ انظروا من وجدنا فى هذا القتيل !.. انه جريجورى ستفنسون ! ..

وعند الفجر ، وبعد محاكمة عسكرية قصيرة ، أعدم أركاديو رميا بالرصاص عند حائط المدافن ...

وعندما سئل قبيل تنفيذ الاعدام عن رغبته الاخيرة قال بصوت متموج النبرات :

ـ قولوا لزوجتي أن تسمي طفلتنا باسم أورسولا ... أورسولا جدتها ... وقولوا لها أيضا أن المولود الذى سيولد ، ان جاء ذكرا ، فليسموه جوزيه ـ اركاديو ، لا اسم عمه ، بل اسم جده ! ...

الفصل السابع

انتهت الحرب فى شهر مايو .. وقبل أسبوعين من البيان الرسمى الذى أذاعته الحكومة بلهجة طنانة والذى توعدت فيه بانزال عقاب صارم لا رحمة فيه لاولئك الذين بدأوا التمرد ، وقع الكولونيل أوريليانو بوينديا أسيرا فى الوقت الذى كان فيه موشك على الوصول الى الحدود الغربية متنكرا فى شخصية طبيب ساحر هندى ... ومن بين الواحد والعشرين رجلا الذين خرجوا معه الى الحرب ، لقى أربعة عشر حتفهم فى القتال ، وجرح ستة ، ورافقه واحد فقط لحظة الهزيمة النهائية : هو الكولونيل جيريلدو ماركيز ... وقد أذيع نبأ أسره فى ماكوندو ببيان خاص ... وعندها قالت أورسولا لزوجها :

ـ انه على قيد الحياة ! ... لنبتهل الى الله أن يجعل أعداءه يرأفون به ! ...

وبعد ثلاثة أيام فى بكاء متصل ، سمعت وهى تصنع حلوى باللبن فى المطبخ صوت ولدها يتردد واضحا فى سمعها ... فصرخت وهى تهرول الى زوجها تحت شجرة الكستناء لابلاغه ماسمعت .

ـ هو صوت أوريليانو ! .. لا أعرف كيف حدثت هذه المعجزة ، لكنه حى يرزق ، وسنراه قريبا !..

لقد سلمت بما بدا لها أنه سمعته تسليما .. وعكفت على كنس غرف البيت وتغيير وضع الاثاث .. وبعد أسبوع سرت شائعة من مصدر ما دون أن يصاحبها أى بيان كانت بمثابة تحقيق درامى لنبؤة

أورسولا ـ مؤداها أن الكولونيل أوريليانو بويندیا قد حكم عليه بالاعدام وان الحكم سوف ينفذ فى ماكوندو ليكون درسا للناس ... وصباح يوم اثنين ، بينما كانت أمارانتا تلبس أوريليانو جوزيه الصغير « ابن أوريليانو وبيلار تيرنيرا » ملابسه ، اذ سمعت أصوات مقدم جنود على البعد ودوى نفير عسكرى ، حين اندفعت اورسولا الى الغرفة صائحة :

ـ انهم آتون به الآن !..

وكان الجنود يجاهدون للتغلب على الجمهور المتدفق بكعوب بنادقهم .. فأسرعت اورسولا وامارانتا الى الناحية تشقان طريقهما بين الناس ، واذا هما تبصرانه .. لقد بدا كمتسول .. كان ممزق الثياب ، أشعث شعر الرأس واللحية ، حافى القدمين ... وكان يمشى دون أن يشعر بتراب الارض الملتهب ، مقيد اليدين خلف ظهره بحبل شده ضابط من الفرسان الى راس جواده .. وعلى نفس الصورة من الرثاثة والهزيمة جاء الكولونيل جيريلدو ماركيز .. ولم يبد على الاثنين اى حزن ... وانما كانا أكثر قلقا من أجل الجمهور الذى كان يصرخ بكل الوان السباب فى وجوه الجنود ...

لم تتمالك اورسولا أن صاحت فى خضم هذا الجمع الهادر :

ـ ياولدى !! ..

وصفعت الجندى الذى حاول صدها .. وارتفع جواد الضابط على قائمتيه الخلفيتين .. ومالبث الكولونيل اوريليانو بويندیا ان توقف مشفقا ، متفاديا ذراعى امه ، وسلط نظرة صارمة على عينيها، قائلا :

ـ ارجعى الى البيت يا امى ... خذى اذنا من السلطات لزيارتى فى السجن ...

ونظر الى امارانتا ، وابتسم قائلا :

ـ ماذا حدث ليدك ؟..

فرفعت امارانتا يدها المعصوبة بالضمادة السوداء واجابت :

ـ مجرد حرق ...

وعملت على ابعاد أورسولا لئلا تدوسها الخيل .. واستأنف الجنود سيرهم بعد ان احيط الاسيران بحرس خاص ، متجهين الى السجن ...

وعند الغروب زارت أورسولا الكولونيل اوريليانو فى السجن

ومعها لفافة بما ارادت أن تقدمه اليه .. وقد لقيت فى الحصول على الاذن عناء شديدا بسبب حظر زيارة المسجونين المحكوم عليهم بالاعدام ، ولكن الضابط كان رفيقا بها ومنحها ربع ساعة للزيارة بعد أن فحص اللفافة ، وكان بها ملابس نظيفة والحذاء الذى لبسه يوم زفافه والحلوى باللبن التى احتفظت بها له يوم أن جاءها هاتف بقرب عودته ... وقد وجدته فى الزنزانة ممددا على سرير صغير وقد دلى ذراعيه بسبب جروح تحت ابطيه ... وكانوا قد سمحوا له بحلاقة ذقنه .. وبدت عظام خديه بارزة بجانب شاربه الكثيف المفتول الطرفين .. ووجدته على علم بكل أحوال الاسرة : انتحار بيتروكريسبى ، وأفعال أركاديو العدوانية التى انتهت باعدامه ، وبقاء أبيه « جوزيه أركاديو بويندیا » تحت شجرة الكستناء .. كما كان يعرف أن أمارانتا فى ترملها العذرى قد كرست نفسها لتربية أوريليانو ـ جوزيه الصغير « ابن أوريليانو من بيلارتيرنيرا » ، وأنه أبدى نجابة مكنته من تعلم القراءة والكتابة فى نفس الوقت الذى بدأ فيه يتعلم الكلام ... ومنذ اللحظة التى دخلت فيها أورسولا الزنزانة طالعتها علائم النضج فى ابنها ، وهالة الامر والسلطان التى كانت تشع منه ... وقد أدهشها علمه بكل أحوال الاسرة ، وفى هذا قال لها مداعبا مازحا :

ـ كنت تعرفين دائما أننى ساحر أتنبأ بالاحداث !..

فتنهدت أورسولا قائلة :

ـ وماذا كنت تتوقع غير هذا ..؟ الايام تمر ..

فقال أوريليانو مؤيدا :

ـ هذه هى سنة الحياة ...

وعلى هذا النحو مضت الزيارة التى طال انتظارها فى حديث عادى غير الذى أعده كلاهما فى ذهنه مسبقا ... وعندما أعلن الحارس انتهاء الزيارة نهضت أورسولا لكى تقبله مودعة ، وغمغمت قائلة :

ـ أحضرت لك مسدسا معى ..

ولما رأى الكولونيل أوريليانو بويندیا أن الحارس ساه عنهما قال لها بصوت خافت :

ـ لن يكون له أى فائدة .. لكن هاتيه لئلا يفتشوك وأنت خارجة .

فأخرجت أورسولا المسدس من مشدها ودسته تحت مرتبة السرير .. فقال لها بهدوء واعتداد :

ـ لا تقولى وداعا .. لا تستعطفى احدا ولا تنحنى أمام انسان .. تصورى أنهم أعدمونى منذ مدة ..

فعضت أورسولا شفتها حتى لا تبكى .. وقالت قبل أن تستدير خارجة :

ـ ضع بعض احجار ساخنة على تلك الجراح ...

ووقف الكولونيل أوريليانو بويندیا ينتظر ساهما حتى أغلق الباب ، فاستلقى ثانية على السرير الصغير مدلى الذراعين ... وكان منذ صباه ، عندما بدأ يلابس تلك النذر السابقة التى تتجلى له كنوع من الالهام ينبئه بما سيقع ، يتصور أن الموت عندما يحين حينه يقترن باشارة مداهمة نقض لها ، لكن لم تبق الآن سوى ساعات على موته ولم تطالعه تلك الاشارة بعد .. نعم انهم عندما أصدروا الحكم باعدامه سألوه أن يقول رغبته الاخيرة ، ولحظتها لم يجد أدنى صعوبة فى انتهاز ماهبط عليه من الهام جعله يقول :

ـ اطلب ان يكون تنفيذ الحكم فى بلدتى ماكوندو ...

ولقد استاء رئيس المحكمة العسكرية من هذا الرد وقال له :

ـ دعك من هذا المكر يابويندیا ... هذه مجرد خدعة لكسب وقت أكثر ...

فرد عليه الكولونيل قائلا :

ـ ان كنت لا تريد تحقيق هذا ، فهو شأنك .. لكن هذه هى رغبته الاخيرة ..

ومنذ تلك الآونة هجره الالهام وتراءى له أن الموت ربما لا تسبقه اشارة هذه المرة لانه لا يعتمد على الحظ أو المصادفة ، بل هو منوط بمشيئة جلاديه ...

وامضى يومين على هذه الحال ... وفى يوم الخميس تشاطر الحلوى باللبن مع حراسه ، وارتدى الملابس النظيفة والحذاء اللامع ... وحتى يوم الجمعة لم ينفذوا فيه الحكم بعد ...

أما الواقع فهو انهم لم يجسروا على تنفيذ الحكم .. فان روح التمرد الفاشية فى البلدة جعلت المسئولين يرون ان اعدام الكولونيل أوريليانو بويندیا قد يجر نتائج سياسية خطيرة لافى ماكوندو فقط. بل فى كافة ارجاء اقليم المستنقعات .. وهكذا لجأوا الى استشارة

السلطات العليا فى عاصمة المقاطعة .. وفى يوم السبت ليلا قصد الكابتن روك كارنيرو المنوط بتنفيذ أحكام الاعدام والملقب « بالجزار » ـ قصد مع بعض زملائه الى حانة كاتارينو .. فلم تقبل سوى امرأة واحدة ، وتحت التهديد ، مصاحبته الى غرفتها ... وفى هذا اعترفت له قائلة :

ـ أن زميلاتى لا يرغبن فى مصاحبة رجل يعرفن أنه سيموت ... ولا احد يعرف كيف سيحدث هذا . لكن الجميع يقولون أن الضابط الذى سيطلق الرصاص على الكولونيل أوريليانو بويندیا سوف يقتل هو وكل أفراد فريق الرماة ، دون مهرب ، وعاجلا أو آجلا ، حتى ولو اختفوا فى أطراف الدنيا ...

لقد نقل الكابتن روك كارنيرو هذا الكلام الى زملائه ، فنقلوه بدورهم الى الرؤساء .. فلما حل يوم الجمعة كانت البلدة كلها تعرف أن الضباط كانوا على استعداد للتوسل بكافة المعاذير لتفادى مسئولية تنفيذ الاعدام ... ثم جاء الامر الرسمى يوم الاثنين يقول : لابد من تنفيذ الاعدام فى خلال أربع وعشرين ساعة .. وفى تلك الليلة وضع الضباط سبع قصاصات ورق فى « كاب » ، وبان مصير الكابتن روك كارنيرو الانكد فى القصاصة التى سحبت وبها اسمه ، واذا هو يقول بمرارة :

ـ ان الحظ المنحوس لا تنفذ منه ثغرة أمل ... لقد ولدت « ابن حرام » ، وسأموت « ابن حرام » ! ...

وعند الساعة الخامسة صباحا اختار فريق الرماة بالقرعة ، وشكل الصف فى الفناء ، ثم أيقظ المحكوم عليه قائلا بلهجة الامر :

ـ هيا بنا يابويندیا ... لقد جاءت « ساعتنا » ! ..

فرد الكولونيل قائلا :

ـ هذا اذن تفسير الحلم .. فقد رايت فى منامى أن جروحى تفجرت ...

وفى نفس هذا الموعد كان أخوه جوزيه اركاديو قد استيقظ من نومه وشرب قهوته ، ولم تلبث ربيكا التى كانت تراقب من نافذة غرفة النوم الاستعدادات الاخيرة لتنفيذ حكم الاعدام أن تنهدت قائلة :

ـ انهم آتون به للتنفيذ .. كم هو جميل !..

فنظر جوزيه اركاديو من النافذة ورأى اخاه وقد وقف بظهره الى

الحائط ويداه في خاصرتيه بسبب جروح ابطيه .. وكان الكولونيل أوريليانو بوينديا يقول وقتها :

ــ يظل الانسان يكد ويجهد في حياته ، ثم يأتي في النهاية ستة رجال ضعاف فيقتلونه دون أن يستطيع شيئا ! ..

وجعل يردد هذا الكلام في غضب واحتدام شديدين حتى تأثر الكابتن روك كارنيرو اذ ظنه يصلي ويبتهل .. وعندما سدد الرماة بنادقهم استحال الغضب الى مرارة عقدت لسانه وأطبقت عينيه .. واذ ذاك تلاشى في وعيه وضح الفجر ورأى نفسه مرة أخرى في بنطلونه القصير ووالده يقوده الى داخل خيمة الغجر عصر ذلك اليوم الصحو ليريه الثلج .. وعندما سمع الصيحة الآمرة ظن أنها الامر النهائي لفريق الرماة .. ففتح عينيه وقد سرت فيه رعدة فضول ، متوقعا ان يرى وهج الرصاص المنطلق .. بيد أنه لم يبصر سوى الكابتن روك كارنيرو وقد رفع ذراعيه في الهواء ، وجوزيه أركاديو يجتاز الشارع وبندقيته المرهوبة على أهبة الانطلاق .. وقال الضابط لجوزيه اركاديو :

ــ لا تطلق النار ! .. ان العناية الالهية هي التي ارسلتك !..

وعلى الاثر نشبت حرب اخرى .. فقد ارتحل الكابتن روك كارنيرو ورجاله الستة مع الكولونيل أوريليانو بوينديا لاطلاق سراح الجنرال فكتوريو مدينا الذي حكم عليه بالاعدام في بلدة ريوهاشا .. ولكن وعورة الطريق حالت دون وصولهم قبل فوات الاوان ، اذ تم اعدام الجنرال فكتوريو مدينا فعلا .. وعندها أعلن رجال الكولونيل أوريليانو بوينديا الذين تضاعفت اعدادهم بمن انضم اليهم من الليبراليين في المناطق التي مروا بها ، قائدا للقوات المتمردة في أقاليم الساحل الكاريبي مع منحه مرتبة الجنرال .. فقبل منهم المنصب ولم يقبل اللقب ، طالما بقى المحافظون في الحكم .. وفي نهاية أشهر ثلاثة نجحوا في تسليح أكثر من ألف رجل ، ولكنهم ابيدوا عن آخرهم .. وأذاعت الحكومة بيانا تناقلته جميع مكاتب البريد بأن الكولونيل أوريليانو بوينديا لقي مصرعه .. ثم أذيعت بعد يومين برقية أخرى تنبىء بقيام تمرد جديد في أقاليم الجنوب .. وفي ظل هذا التضارب نشأت وتضخمت اسطورة وجود الكولونيل أوريليانو بوينديا في كل مكان .. ووقتها كان زعماء الليبراليين يفاوضون الحكومة

للمشاركة في الكونجرس ، فما كان منهم الا أن دفعوه بالمغامر الذي لا يمثل الحزب .. ووضعته الحكومة في قائمة قطاع الطرق ، وجعلت ثمنا لرأسه خمسة آلاف بيزو ... وبعد سلسلة من الهزائم بلغ عددها ست عشرة ، استولى الكولونيل أوريليانو بوينديا على ريوهاشا وجعل فيها مقر قيادته ، معلنا الحرب ضد نظام الحكم القائم ... وكانت أول رسالة تلقاها من الحكومة هي التهديد باعدام صديقه الحميم الكولونيل جيريلدو ماركيز في غضون ثمان وأربعين ساعة اذا لم ينسحب مع قواته الى الحدود الشرقية .. فكان رده قاطعا .. قال انه يتوقع جعل مقر قيادته في ماكوندو في مدى ثلاثة أشهر ، فاذا لم يجد الكولونيل جيريلدو ماركيز على قيد الحياة ، فسوف يعدم على الفور جميع الضباط الاسرى لديه ، بدءا بالجنرالات ، وسيأمر رجاله ان يفعلوا المثل الى نهاية الحرب .. وبعد ثلاثة أشهر، عندما دخل ماكوندو مظفرا ، كان أول عناق تلقاه في طريق المستنقعات خارج ماكوندو هو من ذراعي الكولونيل جيريلدو ماركيز ..

وفي بيت الاسرة وجده مليئا بالاطفال .. فقد آوت اورسولا عندها « سانتا صوفيا بيدال » أرملة اركاديو مع طفلتها الكبرى واخوين توأمين ولدا بعد خمسة أشهر من اعدام أبيهما اركاديو ... وخلافا لرغبته الاخيرة سمت الطفلة باسم ريميديوس الجميلة ، وفي هذا قالت : « أنا متأكدة أن هذا هو ما كان يقصده اركاديو ، ولن نسميها أورسولا لان الانسان يعاني كثيرا من التسمية » .. وسمي التوأمان « جوزيه أركاديو الثاني » و « أوريليانو الثاني » ... وقد تولت أمارانتا تربيتهم جميعا ، ووضعت لهم كراسي خشبية صغيرة في غرفة المعيشة وأقامت شبه دار حضانة ضمت اليها أطفال الاسر المجاورة ... وعندما عاد الكولونيل أوريليانو بوينديا وسط اطلاق الصواريخ المدوية والاجراس الرنانة ، رحب بمقدمه « كورس » من الاطفال .. وحياه ابنه « أوريليانو جوزيه » ، وكان فارعا مثل جده ، تحية عسكرية ...

ولم تكن الانباء كلها سارة .. فبعد سنة من فرار الكولونيل اوريليانو بويندا ، انتقل أخوه جوزيه أركاديو مع ربيكا للاقامة في البيت الذي ابتناه أركاديو ... ولم يعرف أحد بدور هذا الاخ في الحيلولة دون اعدام أوريليانو ... وفي هذا المقر الجديد الذي غدا اشبه بدار للضيافة استأنفت ربيكا جلساتها مع صواحبها السابقات

للاشتغال بالتطريز ، وكان بينهن أربع من بنات دون أبولينار موسكوت
اللائى مازلن رهن العزوبة .. واستمر جوزيه أركاديو فى الانتفاع
بالاراضى التى اغتصبها والتى اعترفت حكومة المحافظين بمستندات
ملكية لها .. وكان يرى عصر كل يوم راجعا على ظهر جواده مع كلاب
الصيد والبندقية المزدوجة وقد تدلى من سرج الجواد حصيلته من
الارانب التى صادها .. وذات يوم من سبتمبر لاحت فيه نذر عاصفة
قريبة عاد الى البيت أبكر من المعتاد .. فحيا ربيكا فى غرفة الطعام
وربط الكلاب فى الفناء ، وعلق الارانب فى المطبخ توطئة لتمليحها فيما
بعد ، ثم دلف الى غرفة النوم لتغيير ملابسه .. وقد روت ربيكا
فيما بعد أنه عندما دخل زوجها الى غرفة النوم كانت هى فى الحمام
ولم تسمع أى شىء .. وكانت روايتها يصعب تصديقها ، ولكن لم يكن
ثمة رواية أخرى أقرب الى المعقول ، ولم يخطر ببال أحد أن يكون
لديها أى دافع لقتل الرجل الذى جعلها سعيدة فى حياتها .. ولعل
ذلك كان اللغز الوحيد الغامض الذى لم يكشف النقاب عنه قط فى
ماكوندو .. ذلك أنه حالما أغلق جوزيه أركاديو باب غرفة النوم
عليه ، تردد فى ارجاء البيت صوت عيار نارى من طبنجه .. وسال
خيط من الدم اخترق كثيرا من الغرف والردهات حتى انتهى الى
المطبخ فى بيت الاسرة الكبير ، حيث كانت أورسولا تستعد لصنع كعك
بالبيض .. فلم تتمالك أن صرخت :

ـ رحماك ياربى !..

وهرعت تتبع خيط الدم حتى انتهى بها الى بيت جوزيه اركاديو
الذى لم تدخله من قبل ، ثم الى غرفة النوم التى دفعت بابها
وكادت تختنق برائحة بارود محترق ، وعثرت على ابنها البكر
منبطحا على الارض على وجهه فوق « التزلك » الذى كان قد خلعه ،
وعنده كانت بداية خيط الدم المترامى الذى كان قد توقف مسيله
من الاذن .. هذا ، ولم يعثروا على أى جرح فى جسده ، ولا على
أى سلاح بقربه .. كما لم يستطيعوا ازالة أثر رائحة البارود من الجثة
رغم المحاولات التى بذلت بالماء والصابون والخل وما اليها .. وعندما
بدا لهم أن يضعوا الجثة فى ماء مغلى لازالة رائحة البارود ، بدأت
تتحلل ، ولم يكن بد من دفنها على وجه السرعة .. فجاءوا له بتابوت
طوله سبعة أقدام ونصف ، وعرضه أربعة ، ودعموه من الداخل
بأطواق من الفولاذ ، وعلى الرغم من هذا فان الرائحة كانت بادية فى

الشارع الذى سار فيه موكب الجنازة ... ومع أنهم فى الشهور
التالية دعموا القبر بحوائط من حوله تخللها رماد مضغوط ونشارة
الخشب والجير ، الا أن المقبرة ظلت لسنوات عديدة تفوح منها رائحة
البارود ، الى أن جاء مهندسو شركة انتاج الموز التى انشئت بعد ذلك
وكسوا القبر بطبقة من الاسمنت المسلح ...

وأما ربيكا فقد أغلقت ابواب بيتها و « دفنت » نفسها فيه حية ،
مسربلة بحجاب كثيف من الاعراض عن الدنيا واحتقارها لا تستطيع
اية مغريات أرضية أن تنفذ منه أو تقوضه .. وآخر مرة رآها الناس
على قيد الحياة عندما أطلقت النار على لص حاول اقتحام باب البيت
... وفيما عدا خادمتها المقربة لم يعد لاى انسان أدنى اتصال بها
بعد ذلك حتى كهولتها ومماتها .. ونسيت البلدة كلها أمرها ..

وعلى الرغم من عودة الكولونيل أوريليانو بويندبا المظفرة ، فانه لم
يكن متحمسا لمجريات الامور .. لقد أخلت القوات الحكومية مواقعها
دون مقاومة مما أثار احساسا وهميا بالانتصار بين السكان
الليبراليين لم يكن يجمل تبديده .. لكن المتمردين منهم كانوا يعرفون
الحقيقة ، وكان الكولونيل أوريليانو بويندبا أكثرهم معرفة بها ...
ومع أنه كان لديه فى ذلك الحين خمسة آلاف رجل تحت امرته
واصبح مسيطرا على ولايتين ساحليتين ، الا انه كان يشعر بأنه
يساق فى اتجاه البحر حيث يغدو فى موقف عسير ... وبحثا عن
منفذ للافلات من هذا الموقف ، كان يمضى ساعات بأكملها فى
مكتب التلغراف للتشاور مع قادة البلدان الاخرى ، وفى كل مرة
كان يخرج بانطباع قوى هو أن حربهم خاسرة لا محالة .. وكان
يشكو لضباطه قائلا :

ـ اننا نضيع الوقت ، بينما الانذال من اعضاء الحزب الليبرالى
يستجدون مقاعد لهم فى الكونجرس !..

وفى احدى ليالى البلبلة التى كانت تعتريه وهو مستلق فى أرجوحته
يفكر فى منفذ للخلاص من هذا المأزق ، طلب من بيلار تيرنيرا التى
كانت تغنى مع الجنود فى الفناء ان تقرأ له المستقبل فى الورق
الطالع .. فكأن كل ماقالته بعد تقليب الورق ثلاث مرات هو :

ـ خل بالك من فمك ! .. أنا لا أعرف ما معنى هذا ، لكن
الاشارة واضحة جدا .. خل بالك من فمك ! ..

وبعد يومين أعطى أحدهم ابريق قهوة لجندى مراسلة ، أعطاه

هذا بدوره لآخر ، وظل ينتقل من يد الى يد حتى وصل الابريق الى مكتب الكولونيل أوريليانو بوينديا ... ولم يكن قد طلب قهوة ،ولكن مادامت قد جاءت فقد شربها الكولونيل ... كان بها جرعة من سم زعاف تكفى لقتل جواد .. وعندما حملوه الى البيت كان متصــلبا ومقوسا وقد برز لسانه بين أسنانه ...

لقد راحت أورسولا تصارع الموت لانقاذه .. وبعـــد تفـريغ معدته بالمقيئات لفته بأغطية ساخنة وأطعمته بياض البيض يومــين كاملين الى أن استعاد جسمه المضعضع حرارته العادية .. وفى اليوم الرابع خرج من مرحلة الخطر .. واضطر تحت ضغط أورســـولا وضباطه الى ملازمة الفراش اسبوعا آخر ... وفى فترات الصفاء الذهنى التى كان يفكر فيها فى الحال والمآل ، قال ذات ليلة لصديقه القديم الكولونيل جيريلدو ماركيز :

— قل لى ياصديقى الحميم ... لماذا تحارب ؟..

فأجاب الكولونيل جيريلدو ماركيز :

— ولأى سبب آخر غير الرغبة فى انتصار الحزب الليبرالى ؟..

فقال الكولونيل أوريليانو بوينديا :

— انت محظوظ ، لانك تعرف سبب ماتحارب من أجله .. أمـا فيما يختص به شخصيا ، فقد تأكدت الآن فقط أننى أحارب من اجل كبريائى وكرامتى ...

— هذا شىء سيىء ....

فبدا الكولونيل أوريليانو بوينديا متفكها من انزعاج صــاحبه ، وقال :

— لك حق .. لكن على أى حال ، فهذا أفضل من الا تعرف لماذا تحارب ؟ ...

ثم تفرس فى عينيه وأضاف بابتسامة :

— أو أفضل من المحاربة ، كما تفعل أنت ، من أجل شىء ليس له أى معنى عند أى أحد !..

والواقع أن كبرياءه هى التى منعته من الاتصـــال مع الجماعات المسلحة فى داخلية البــلاد الى أن يصحح زعماء الحـزب الليبرالى علانية تصريحهم بأنه من قطاع الطرق .. ومهما يكن فقد كان يعـرف انه ما أن يطرح جانبا هواجسه تلك ، فسيكون بوسعه ان يضـرب ضربته المؤثرة فى تطورات الحرب .. وبعد طول تفكير وتدبر أثنـاء

فترة النقاهة ، استطاع حمل أورسولا على أن تعطيه مابقى مـــن ميراثها الذهبى المخبوء وكذلك مدخراتها الكبيرة ... وأخــــيرا عين الكولونيل جيريلدو ماركيز قائدا عسكريا ومدنيا فى ماكوندو ، وانطلق بقواته للاتصال بجماعات المتمردين فى داخلية البلاد ..

وفى خلال ذلك كان الكولونيل أوريليانو بوينديا يقتطع من وقته جزءا لارسال تقارير مفصلة الى ماكوندو عن تطورات الحرب كل اسبوعين .. بيد أنه لم يكتب سوى مرة واحدة ، وبعد ثمانية أشهر من رحيله مع قواته ، الى أورسولا . فقد جاء رسول خاص الى بيت الاسرة يحمل مظروفا مغلقا بالشمع وبداخله ورقة بخط الكولونيـل قال فيها : « اعتنوا جدا بأبى ، لانه سيموت » .. فانزعجت أورسولا قائلة : « اذا كان أوريليانو يقول هذا ، فذلك لان أوريليانو يتنبــأ ويعرف ! .. » وطلبت من أهل البيت مساعدتها فى نقل « جوزيه أركاديو بوينديا » الى غرفة نومه فى الداخل .. وكان قد زاد امتلاء تحت شجرة الكستناء طـوال تلك الاعوام حتى عجز سبعة رجال عن رفعه من مكانه واضطروا الى جره جرا ... وفى اليوم التـالى لم يكن فى فراشه ... واذا كان قد عاد الى شجرة الكـستناء فذلك بحكم عادة الجسد ... ولكنهم أعادوه مرة أخرى الى غرفته .. وكانت أورسولا تطعمه وتبلغه اخبار أوريليانو ... وبعد انقضـاء اسبوعين دخلوا عليه وهزوه بشدة وصرخوا فى أذنه ووضعوا مرآة أمام خياشيمه ، بيد أنهم لم يستطيعوا ايقاظه .. وبينما كان النجار يأخذ مقاسات التابوت ، رأوا من خلال النافذة مطرا خفيفا من زهور صفراء صغيرة يتساقط ... وظلت تسقط على البلدة طوال الليل فى عاصفة ساكنة حتى غطت الاسقف وسدت الابواب وخنقت انفاس الحيوانات التى كانت تبيت فى الخارج .. بلغ من كثرة الزهـور التى تساقطت أنها غطت الشوارع ببساط سميك حتى اضطروا الى جرفها لكى يمكن أن يسير موكب الجنازة ...

الفصل الثامن

جعلت أمارانتا تراقب من مقعدها الهزاز أثناء فترة الراحة مـن التطريز ، أوريليانو — جوزيه وهو يكسو ذقنه برغوة الصـــابون

بوطئة لحلاقتها لاول مرة .. فما كان منه الا ان ادنى شفته العليـا وهو يحاول تنميق الشارب الصغير الاشقر ، ولم تتمالك امارانتـا أن شعرت بأنها بدأت تشيخ منذ تلك الآونة ... وقالت له :

ـ انك تشبه اباك أوريليانو عندما كان فى سنك ... انت الان رجل ...

والواقع انه كان يافعا منذ اليوم الذى عهدت به امه بيلار تيرنيرا الى امارانتا لتربيته ... كان أول الامر يزحف الى فراش أمارانتـا لينام الى جانبها خوفا من وحدة الطفولة .. ثم تطور هذا الى مشاعر غريبة بدأت تلابسه فى مدارج العمر الى ان تحولت الى افتتان ، مما جعلها تصده بعد أن فاجأتهما أورسولا ذات يوم فى « الـكوار » وهما يتبادلان القبلات ، ولكنها قالت له ببراءة : « هل تحب عمتك الى هذا الحد ؟ » .. وعندما رد بالايجاب قالت له : « هذا شيء طيب » .. وتركتهما بعد أن أخذت الدقيق الذى جاءت في طلبه ... منذ تلك الآونة أفاق كلاهما من غمرة الحمى التى انتابته ، وانتقل أوريليانو ـ جوزيه للاقامة فى الثكنات اذ كان فى فترة التدريب العسكرى ...

وبعد ذلك بفترة قصيرة بدأت تتوارد أنباء متناقضة عن سير الحرب .. ففى حين اعترفت الحكومة ذاتها بتقدم حركة التمرد : تلقى الضباط الموجودين فى ماكوندو أنباء خاصة عن مفاوضات الصلح وقرب عقد هدنة .. وحوالى أول أبريل جاء رسول خاص الى الكولونيل جيريلدو ماركيز وأكد له أن زعماء الحزب الليبرالى قد اتصلوا فعلا بقادة التمرد فى داخلية البلاد وانهم بسبيل عقد هدنة فى مقابل الحصول على ثلاثة مقاعد وزارية لليبراليين مع تمثيل محدود فى الكونجرس ، وعفو عام عن المتمردين الذين يضعون أسلحتهم ... وقد نقل الرسول أمرا سريا من الكولونيل أوريليانو بوينديا الذى لم يقبل شروط الهدنة مؤداه ان يختار الكولونيل جيريلدو ماركيز خمسة من أفضل رجاله ويستعد لمغادرة البلاد معهم ...وقبل اعلان الاتفاق بأسبوع ،وفى ابان عاصفة من الشائعات المتناقضة ، وصل الكولونيل أوريليانو بوينديا الى ماكوندو سرا بعد منتصف الليل مع عشرة من ضباطه الموثوق بهم وفى عدادهم الكولونيل روك كارنيرو وصرفوا الحامية ودفنوا أسلحتهم ودمروا سجلاتهم ...وما ان أقبل الفجر حتى ارتحلوا عن البلدة ، يرافقهم الكولونيل جيريلدو

ماركيز وضباطه الخمسة المختارون ... ولقد بلغ من تكتم هذه العملية أن أورسولا لم تعلم بها الا فى اليوم التالى .. كما اكتشفت أن أوريليانو ـ جوزيه قد ارتحل مع أبيه ...

وبعد عشرة أيام صدر بلاغ مشترك من الحكومة والمعارضة يعلن انتهاء الحرب ، مقترنا بنبأ حركة التمرد الاولى من جانب الكولونيل أوريليانو بوينديا عند الحدود الغربية ... ولم تحتمل قوته الصغيرة والمحدودة التسليح أكثر من أسبوع لتفريقها .. ولكن فى خلال تلك السنة ، بينما كان الليبرالبون والمحافظون يحاولون اقناع البلاد بالمصالحة الوطنية ، قام الكولونيل أوريليانو بوينديا بسبع محاولات أخرى ، للتمرد ... وفى احدى المناسبات اقترب من ماكوندو الى أقل من خمسة عشر ميلا ، ثم اضطر الى الاختفاء فى الجبال تحت ضغط الدوريات الحكومية ..

وانقطعت أخباره عن أورسولا مدى سنوات ، تردد فيها انه كف عن مناوأة حكومة بلاده ، وانضم الى حركة الفيديراليين فى الجمهوريات الاخرى بهدف توحيد الحركات الفيدرالية فى أمريكا الوسطى سعيا للقضاء على أنظمة حكم المحافظين من الاسكا فى الشمال الى بتاجونيا فى الجنوب .. وكانت أول رسالة تلقتها أورسولا منه بعد سنوات عديدة من ارتحاله مثنية وباهتة لتبادلها بين أيد متعددة ، حتى لم تتمالك بعد أن علمت بمضمونها أن هتفت :

ـ لقد فقدناه الى الابد .. اذا واصل هذا الطريق فسوف يبقى مشردا فى أرجاء الدنيا الواسعة !..

كان الذى قالت له هذا الكلام ، وهو أول شخص أطلعته على الرسالة ، هو الجنرال راكيل موكادا عمدة ماكوندو المحافظ الذى عين فى هذا المنصب منذ نهاية الحرب .. وقد رد عليها بقوله :

ـ من المؤسف أن أوريليانو هذا ليس من حزب المحافظين ..

والواقع أن هذا الرجل كان معجبا بأوريليانو رغم اختلاف انتماءاتهما ... وكان شخصية دمثة استطاعت أن تكتسب قلوب أهل البلدة بعد أن طرح حزبيته جانبا وقام فيها باصلاحات واسعة أدت الى ازدهارها .. وقد حدث ذات مرة عندما اضطرته المناورات الحربية الى التخلى عن أحد المواقع الحصينة للكولونيل أوريليانو بوينديا أن ترك له رسالتين : تضمنت الاولى دعوة له الى مشاركته فى القيام بحملة واسعة لجعل الحرب أكثر انسانية ، وكانت الرسالة الثانية

موجهة الى زوجته التى كانت باقية فى منطقة تحت سيطرة الليبراليين ، وشفعها برجاء منه لتوصيل الرسالة اليها .. ومنذ ذلك الحين درج القائدان العدوان ، حتى فى أشد مراحل الحرب ضراوة ، على ترتيب هدنات لتبادل الاسرى .. وقد أدى ذلك الى توثيق عرى الصداقة بين الاثنين .. بل انهما فكرا فى التنسيق بين المعطيات الاساسية للحزبين بهدف تجاوز تأثيرات السياسيين المحترفين والعسكريين واستخلاص نظام حكم انسانى يجمع أفضل مافى مبادىء كل من الفريقين ..

وفى خلال ذلك كانت أورسولا رغم ضربات الزمن ترفض بعناد واصرار الاستسلام للشيخوخة .. ومضت فى توسيع صناعة الحلوى التى بدأتها منذ حين ، واستطاعت بمساعدة سانتا صوفيا بيدال أرملة أركاديو ، أن تجعل منها صناعة مزدهرة ضاعفت من مدخراتها ... وكان ذلك هو الموقف عندما هجر أوريليانو — جوزيه « ابن أوريليانو وتيرنيرا » صفوف القوات الفيديرالية فى نيكاراجوا وظهر امام أورسولا فى المطبخ قويا كحصان ، أسمر مرسل الشعر كالهنود، مصمما بعزم على الزواج من أمارانتا ...

وحالما رآته امارانتا عرفت فى الحال سبب قدومه ، بيد أنها تحاشت الاجتماع به على انفراد .. غير أنه بعد شهرين من اعتكافها عنه ، تسلل ليلا الى مخدعها ، فصدته عنها قائلة :

— اخرج ... اخرج والا صرخت .. انا عمتك !.. اننى كأمك ، لا بسبب السن ، ولكن لاننى ربيتك !..

وفى مناسبة أخرى قالت له بعد أن أرهقها بالحاجة :

— انت وحش ! .. لا يمكنك أن تتزوجنى الا بتصريح خاص من روما ...

ولما وعد اوريليانو — جوزيه أن يذهب الى روما ولو سعيا على ركبتيه خلال أوربا كلها لتقديم التماسه تحقيقا لامنيته المضطرمة ، ردت عليه أمارانتا بقولها :

— ليس هذا فقط .. ان زواجا كهذا سوف يثمر اطفالا لهم ذيول خنازير ...

بيد أنه صم اذنيه عن كافة الحجج ، قائلا :

— لا يهمنى حتى لو ولدوا خنازير كاملة !..

ولكن رفض أمارانتا كان قاطعا ...

وبعد شهرين من عودة أوريليانو — جوزيه ، جاءت الى البيت الكبير امراة وافدة النمو والقوة معطرة بالياسمين ومعها طفل فى الخامسة من عمره وقالت انه ابن الكولونيل أوريليانو بوينديا وأنها جاءت به الى أورسولا لتتولى تعميده .. ولم يشك أحد لحظة فى منبته ، اذ كان صورة مطابقة للكولونيل وهو فى طفولته .. وقد عمدوه باسم أوريليانو ، مشفوعا بلقب امه ، نظرا لان القانون لا يسمح بحمل اسم الاب الا بعد اعترافه بأبوته للابن ...

كانت أورسولا فى ذلك العهد لم تسمع بالعادة السارية وهى ارسال العذارى الى مخادع مشاهير القادة لانجاب ذرية ممتازة ... ولكنها لم تلبث فى خلال هذا العام أن سمعت وعرفت .. وفى أقل من اثنتى عشرة سنة تولت التعميد ، باسم أوريليانو ولقب الام ، لكافة الابناء الذين انجبهم الكولونيل أوريليانو بوينديا فى مختلف ميادين الحروب التى خاضها : وعددهم سبعة عشر ... وأول الامر كانت أورسولا تملأ جيوب هؤلاء الصغار بالنقود وتحاول أمارانتا استبقاءهم لتربيتهم ... ولكنهم كانوا ينصرفون تباعا مع أمهاتهم ، اكتفاء بالتعميد وما نالوا من نقود .. وكانت أورسولا تدون أسماء الابناء وعناوين الامهات فى سجل خاص أعدته لهذا الغرض ، قائلة :

— ان أوريليانو فى حاجة الى وثائق منظمة حتى يمكنه أن يبت فى الامور عندما يعود الينا ...

وفى هذا قالت يوما للعمدة موكادا أثناء دعوة الغداء وهى تعقب على هذا الخصب الفريد أنها تتمنى أن يعود الكولونيل أوريليانو بوينديا يوما ما لكى يجمع كل هؤلاء الابناء فى البيت الكبير .. فرد عليها العمدة قائلا بأسلوب غامض :

— لا تقلقى يا صديقتى العزيزة ... انه سيعود بأسرع مما تتصورين ...

ان ماكان الجنرال موكادا يعرفه ولم يكن يرغب فى اماطة اللثام عنه على مائدة الغداء ، هو أن الكولونيل أوريليانو بوينديا كان فعلا فى طريقه للقيام بأطول وأعنف حركة فى سلسلة حركات التمرد التى قام بها حتى الآن ...

لقد عاد الموقف الى التأزم مثلما كان أثناء الشهور التى سبقت الحرب الاولى ... وتولى الكابتن اكويل ريكاردو قائد الحامية فى ماكوندو تدريب قوات الاحتياط ... وكان الليبراليون يعدونه رجلا

وفى فجر اليوم الاول من شهر اكتوبر هاجم الكولونيل أوريليانو بوينديا ماكوندو بألف رجل مسلحين تسليحا قويا ، وتلقت الحامية أوامر بأن تقاوم حتى النهاية ... وعند الظهر ، بينما كان الجنرال موكادا يتناول طعام الغداء مع أورسولا ، انطلق مدفع للمتمردين دوى صداه فى البلدة كلها ونسف الواجهة الامامية لدار الخزانة نسفا ... فتنهد الجنرال موكادا قائلا :

ــ انهم مسلحون تسليحا جيدا مثلنا ... لكن الى جانب هذا فانهم يحاربون لانهم يريدون الحرب ...

وفى الساعة الثانية بعد الظهر والارض ترتج ارتجاجا بنيران المدفعية من الجانبين ، استأذن من أورسولا وهو على يقين من انه يقاتل فى معركة خاسرة .. وقال لها :

ــ ادعو الله ألا يجيئك أوريليانو فى البيت هذه الليلة ... فاذا حدث هذا فلتقبليه عنى ، لاننى لا أتوقع أن التقى به أبدا مرة اخرى ...

وفى تلك الليلة وقع أسيرا أثناء محاولته للفرار من ماكوندو بعد ان كتب رسالة للكولونيل أوريليانو بوينديا ذكره فيها بهدفهما المشترك لجعل الحرب انسانية ، وتمنى له الانتصار على فساد دعاة الحرب ومطامع السياسيين فى كلا الحزبين ... وفى اليوم التالى تناول الكولونيل أوريليانو بوينديا الغداء معه فى بيت أورسولا حيث جرى احتجازه الى ان تبت محكمة عسكرية فى مصيره .. وكان فى الحق اجتماعا وديا ... ولكن فى الوقت الذى نسى فيه الغريمان الحرب لتذكر احداث الماضى ، أحست أورسولا بالوجوم لما طالعها من تبدل أطوار ولدها واتجاهاته العدوانية .. لقد شعرت بهذا منذ أن شاهدته يدخل مصحوبا بحاشية عسكرية كبيرة عمدت الى تفتيش غرف النوم وقلبها رأسا على عقب حتى اطمأنوا الى عدم وجود أى خطر .. ولم يتقبل الكولونيل أوريليانو بوينديا هذا فقط ، بل انه أصدر أوامر مشددة بعدم السماح لاحد بالاقتراب الى أكثر من عشرة أقدام حتى أورسولا ذاتها ، فى حين راح أفراد حرسه الخاص يكملون وضع الحراس حول البيت ... وكان يرتدى كسوة عسكرية عادية بغير أية شارات ، وحذاء مرتفعا بمهماز لطخه الطين والدم الجاف ، وتمنطق بحزام تدلى منه حامل مسدس مفتوح اللسان ، وكشفت يده التى كانت دائما على مقبض المسدس مدى اليقظة والتحفز اللذين شفت

عنهما نظراته ــ حتى لم تتمالك أورسولا ان قالت لنفسها حين لمحت كل هذا وأكثر منه :

ــ رحماك يارب ! .. انه يبدو الآن رجلا لا يتردد عن شىء ! ..

وحالما تم تنفيذ الامر بدفن الموتى فى قبر جماعى ، عهد الى الكولونيل روك كارنيرو بمهمة تشكيل محكمة عسكرية ، وانهمك هو على الاثر فى مهمة شاقة ، هى فرض اصلاحات راديكالية لا تدع حجرا فى نظام حكم المحافظين فى مكانه .. وقال لمساعديه فى هذا الصدد :

ــ علينا أن نسبق السياسيين فى الحرب .. فعندما يفتحون أعينهم على الواقع سوف يجدون أمامهم حقائق قائمة ...

وكان من قراراته مراجعة عقود تملك الاراضى التى يرجع تاريخها الى مائة سنة ، فاكتشف المظالم الصارخة التى ألبسها أخوه جوزيه اركاديو ثوب القانون ، وسرعان ما الغى تسجيلاتها بجرة قلم .. ولكى يقوم بلفتة ودية ترك مهامه ساعة من زمن وزار أرملته ربيكا ليطلعها على نواياه ...

والحق انه وجد هذه الارملة التى كانت موضع سره فى غرامياته المكبوحة والتى كان لها الفضل فى انقاذه من كثير من المآزق وهى فى عزلتها فى ظلال بيتها أقرب الى شبح من أشباح الماضى ... وقد بدأ ينصحها أن تخفف من صرامة احزانها ، وأن تدع الهواء يتجدد فى المنزل ، وأن تغفر للدنيا ما نالها من قتل جوزيه اركاديو ... بيد أن ربيكا كانت بمنأى عن هذا كله ، وقبعت فى مقعدها الهزاز تنظر اليه وكأنه هو ذلك الشبح من أشباح الماضى ... بل انها لم تنزعج بالنبأ الذى ساقه اليها عن الاراضى التى اغتصبها جوزيه اركاديو وقرب اعادتها الى ملاكها الشرعيين ، وانما تنهدت قائلة :

ــ ان كل ماتقرره يا أوريليانو سيكون أمرا نافذا ... كان رأيى فيك دائما ، وقد لمسته الآن بالدليل ، انك شخص مرتد عن كل معتقد كان لك ! ..

وقد تمت مراجعة وتعديل عقود التمليك فى نفس الوقت الذى انعقدت فيه المحكمة العسكرية برئاسة الكولونيل جيريلدو ماركيز ، وانتهت باعدام كل الضباط الذين أسرتهم قوات المتمردين ... وكان آخر من حوكم هو الجنرال واكيل موكادا ... وقد بادرت أورسولا بالتوسط من أجله ، وفى هذا قالت للكولونيل أوريليانو بوينديا :

ــ ان حكمه كان من أفضل ما رأينا فى ماكوندو .. ولن أحدثك

عن طيبة قلبه ، وعن مودته لنا ، لانك تعرف هذا أكثر من أى أحد آخر ...

فما كان من الكولونيل أوريليانو بوينديا الا أن نظر اليها مستنكرا ، ورد عليها قائلا :

ـ لا يمكننى ان آخذ على عاتقى مهمة تصريف العدالة ... ان كان عندك ماتقولينه ، فقوليه للمحكمة العسكرية ...

وفى الحق ان أورسولا لم تفعل هذا فقط ، بل انها جمعت كل أمهات الضباط المتمردين المقيمات فى ماكوندو للشهادة .. فأقبلن كلهن واحدة واحدة ، وبينهن كثيرات ممن اشتركن فى تأسيس البلدة عبر الجبال والمستنقعات ، على اداء الشهادة وامتداح فضائل الجنرال موكادا ، وكانت آخرهن أورسولا ... وقد أدت حرارة دفاعها وقوة اقناعها وما تهيأ لها من مهابة واعتبار بين الجميع ، الى جعل ميزان العدالة يتأرجح فترة .. اذ راحت تقول لهم :

ـ انكم اخذتم هذه العملية مأخذ الجد الخطير ، وخيرا فعلتم لانكم تقومون بواجبكم ... لكن لا تنسوا أنه طالما أنعم الله علينا بالحياة فسوف نظل نحن أمهات ، ومهما كنتم ثوريين فان لنا الحق فى خلع بنطلوناتكم وتأديبكم بالعصا لاول بادرة عدم احترام لنا نحن أمهاتكم ! ...

وقد انسحبت المحكمة للمداولة ومازالت هذه الكلمات تتردد فى الاسماع ... وعند منتصف الليل صدر الحكم باعدام الجنرال موكادا ... وقد رفض الكولونيل أوريليانو بوينديا تعديل الحكم على الرغم من مهاترات اورسولا ... وقبل الفجر بقليل زار المحكوم عليه فى زنزانة السجن ، وقال له :

ـ تذكر أيها الصديق القديم اننى لا اعدمك ، وانما الثورة التى تعدمك ...

لم يكلف الجنرال موكادا نفسه عناء النهوض من السرير الصغير عندما رآه داخلا ، ورد عليه قائلا :

ـ اذهب الى جهنم ياصاحبى ...

لم يكن الكولونيل أوريليانو بوينديا قد منح نفسه حتى هذه اللحظة فرصة لقاء الرجل قلبيا .. وقد روعه الان ما رآه من تقدمه فى السن ورعشة يديه وانتظاره للموت بالامتثال المأثور عمن فى موقفه ، واذا هو

يشعر بتقزز بالغ من نفسه ، مشوب ببوادر الرثاء .. ومهما يكن فانه قال :

ـ أنت تعرف خيرا منى أن المحاكمات مهازل ، وانك فى الواقع تدفع ثمن جرائم غيرك ، ذلك لاننا مصممون هذه المرة على كسب الحرب بأى ثمن ... أما كنت تفعل نفس الشىء وأنت فى مكانى ؟..

نهض الجنرال موكادا لكى يمسح نظارته السميكة فى ذيل قميصه ، ورد قائلا ؟

ـ جائز .. لكن مايقلقنى ليس هو اعدامك لى ، لان هذا بالنسبة لاناس مثلنا هو موت طبيعى ...

ووضع نظارته على الفراش ونزع ساعته وسلسلته ، واستطرد يقول :

ـ ان مايقلقنى هو أنه بعد كل احقادك علينا ومحاربتنا بكل هذا العنف ، قد انتهيت الى صيرورتك أسوأ منا ... ولم يعد فى الحياة شىء يوازى هذه الوضاعة ...

ونزع خاتم زواجه وايقونة العذراء ووضعهما بجانب النظارة والساعة ، ثم اختتم قائلا :

ـ وبهذا المعدل لن تكون فقط أشد دكتاتور طغيانا ودموية فى تاريخنا ، بل سوف تعدم صديقتى أورسولا فى محاولة تهدئة ضميرك ...

وقف الكولونيل أوريليانو بوينديا مكانه جامدا ..وما لبث الجنرال موكادا أن أعطاه النظارة والايقونة والساعة والخاتم ، ثم غير نبراته قائلا :

ـ لكننى لم أبعث اليك لتأنيبك .. انما اردت أن أطلب منك معروفا أى ترسل هذه الاشياء الى زوجتى ..

وضع الكولونيل أوريليانو بوينديا الاشياء فى جيوبه قائلا :

ـ أهى لا تزال فى بلدة مانور ؟..

فأيده الجنرال موكادا قائلا :

ـ لا تزال فى مانور .. فى نفس البيت القائم خلف الكنيسة ..

فقال الكولونيل أوريليانو بوينديا :

ـ يسرنى أن أفعل هذا ..

وعندما خرج الى الهواء المشبع بالضباب شعر بالرطوبة تلفح

وجهه .. واستقبله فريق الرماة بالرصاص المصطفون تجاه الباب محيينه بتحية رئيس الدولة ، فأمرهم قائلا :

ـ ليخرجوا به الآن !...

الفصل التاسع

كان الكولونيل جيريلدو ماركيز هو أول من أدرك عقم هذه الحرب وخواؤها .. وفى وضعه الاخير كقائد عسكرى ومدنى فى ماكوندو ، كان يتبادل الاتصال البرقى مرتين فى الاسبوع مع الكولونيل أورليانو بوينديا للاطلاع على آخر تطورات الاشتباكات والبت فى اتجاهاتها المستقبلية ... وعلى الرغم من طول المحادثات البرقية بينهما ، فقد لاحظ الكولونيل جيريلدو ماركيز فى الآونة الاخيرة فتورا غريبا فى حماس الكولونيل أورليانو بوينديا للخوض فى تفاصيل المعارك الدائرة ، حتى انتهى به الامر الى هذا الاحساس بعقم الحرب وخوائها ، واصبح ملاذه الاخير لقتل الوقت والتخلص من أثقال الوحدة هو قضاء فترات بعد الظهر عند امارانتا التى احبها حبا عميقا لم تقابله الا بالفتور المهذب ، ورغم ذلك ظل يتابعها بزياراته اليومية على امل أن يلين قلبها يوما ما ...

ثم كانت المفاجأة بعد شهرين عندها ظهر الكولونيل أورليانو بوينديا فى ماكوندو على غير انتظار ، تلك المفاجأة التى أذهلت صديقه الحميم وأذهلت حتى أورسولا ، لما رأوه من تبدل أحواله ... فقد جاء هذه المرة بلا ضجيج ، ولا حرس ، ملتفا بعباءة رغم شدة الحر ، بصحبة ثلاث محظيات أسكنهن فى نفس البيت ، واخذ يمضى معظم وقته ممددا فى أرجوحته .. وقلما كان يطلع على البرقيات التى كانت ترد عن العمليات العسكرية العادية ..

وفى احدى المناسبات زاره الكولونيل جيريلدو ماركيز يسأله عن تعليماته بصدد اخلاء موضع على الحدود حيث كان ثمة خطر من تحول الصراع الى مشكلة دولية ، فكان الرد هو :

ـ تضايقنى بالتفاهات ... سل السماء ! ...

فى ذلك الحين كانت الحرب تمر بمرحلة عصيبة .. فان ملاك الاراضى الليبراليين الذين ساندوا الثورة فى البداية قد تحالفوا سرا مع ملاك

الاراضى المحافظين بهدف وقف عملية مراجعة وتعديل عقود الملكية .. وعمد السياسيون الذين كانوا يزودون الثورة بالاموال وهم فى المنفى الى التبرؤ علانية من أهداف الكولونيل أورليانو بوينديا المبالغة فى الشدة والتطرف .. هكذا انتابه ضيق بالغ جعله ينصرف عن كل شىء ويخلد الى الاسترخاء واللامبالاة بعد أن بلغت الحرب مرحلة ركود شامل ... وقد ظل على هذه الحال الى أن جاءت لجنة من الحزب الليبرالى كانت مخولة لدراسة أسباب هذا الركود الذى انتهت اليه الحرب ... وفى مجلسه بين مستشاريه السياسيين راح يستمع فى صمت الى مقترحات المبعوثين .. فطلبوا أولا نبذ مراجعة وتعديل عقود الملكية عملا على استعادة تأييد ملاك الاراضى الليبراليين ... وطلبوا ثانيا أن يتخلى عن محاربة النفوذ الاكليريكى لكى يحصلوا على تأييد الجماهير التى تدين بالمذهب الكاثوليكى .. ثم طلبوا أخيرا أن يعدل عن هدفه الخاص بالحقوق المتساوية للاطفال الشرعيين وغير الشرعيين حفاظا على تماسك البيت ...

وهنا قال الكولونيل أورليانو بوينديا باسما بعد أن فرغوا من قراءة المطالب ...

ـ معنى هذا أن كل مانحارب من أجله هو السلطة ..

فرد أحد أعضاء اللجنة قائلا :

ـ هذه مجرد تغييرات تكتيكية .. المسألة الاساسية فى المرحلة الراهنة هى توسيع القاعدة الشعبية للحرب .. وبعد ذلك سوف تكون لنا نظرة أخرى ...

وعندئذ سارع أحد مستشارى الكولونيل أورليانو بوينديا الى التدخل ، قائلا :

ـ هذه تناقضات ، ومعناها أننا كنا نحارب مدى عشرين عاما ضد مشاعر الامة ! .. ان ...

بيد أن الكولونيل أورليانو بوينديا أوقفه عن الاسترسال باشارة من يده ، قائلا :

ـ لا تضيع وقتك يادكتور .. الشىء المهم هو أننا منذ الآن فصاعدا، سنحارب من أجل السلطة فقط ...

وتناول الوثائق التى جاء بها المبعوثون وتأهب للتوقيع عليها ومازال يتبسم ، قائلا :

ـ لما كان هذا هو الموقف ، فلا اعتراض عندنا للقبول ..

جعل رجاله يتبادلون النظر بعضهم الى بعض فى جزع ، وقال الكولونيل جيريلدو ماركيز بصوت خافت :

ـ معذرة ياكولونيل .. لكن هذا يعتبر خيانة !..

فرفع الكولونيل أوريليانو بوينديا القلم فى الهواء وافرغ جماع سلطته عليه آمرا :

ـ سلم سلاحك ! ..

فنهض الكولونيل جيريلدو ماركيز ووضع سلاحه على المنضدة ، بينما مضى الكولونيل أوريليانو بوينديا فى أوامره قائلا :

ـ ارجع الى الثكنات ، وضع نفسك تحت تصرف المحكمة الثورية ...

وما لبث أن وقع الوثائق وأعطاها الى المبعوثين قائلا :

ـ اليكم اوراقكم أيها السادة .. وارجو أن تحصلوا منها على المزايا المطلوبة ..

وبعد يومين حوكم الكولونيل جيريلدو ماركيز بتهمة الخيانة العظمى وحكم عليه بالاعدام ..

وقد أعار الكولونيل أوريليانو بوينديا اذانا صماء لكل طلبات الاسترحام التى قدمت اليه ... وفى ليلة التنفيذ خالفت أورسولا كافة الاوامر الصادرة بعدم ازعاجه ، ودخلت عليه فى مخدعه متشحة بالسواد بالغة الرصانة وابتدرته قائلة وهى واقفة طيلة الدقائق الثلاث التى حددت للمقابلة :

ـ أنا أعرف انك ستعدم جيريلدو ، وليس فى قدرتى أن أفعل أى شىء لمنع اعدامه ... لكننى أوجه اليك تحذيرا واحدا : فى اللحظة التى ارى فيها جثته ، فاقسم لك بعظام أبىَ وأمى ، واقسم لك بذكرى جوزيه اركاديو بوينديا ، واقسم لك أمام الله ـ أننى سوف أجرك جرا من حيثما تكون مختبئا ، وأقتلك بيدى هاتين ! ...

وقبل أن تبرح الغرفة ، ودون انتظار لأى رد ، اختتمت قائلة :

ـ ان هذا يساوى عندى كما لو كنت ولدتك بذيل خنزير !..

وبعد ليلة عصيبة امضاها فى التأمل واستعراض الماضى والحاضر ، ظهر عند الفجر فى زنزانة الكولونيل جيريلدو ماركيز قبل ساعة واحدة من موعد تنفيذ حكم الاعدام ، وقال له :

انتهت المهزلة أيها الصديق القديم ... هلم بنا من هنا قبل أن يتكفل البعوض بتنفيذ الاعدام ! ..

فلم يستطع الكولونيل جيريلدو ماركيز أن يكتم رنة الارتواء التى ابتعثها فيه هذا المسلك ، ورد قائلا :

ـ لا يا أوريليانو .. خير عندى أن اموت من أن أراك تتحول الى طاغية دموى ..

فقال له الكولونيل أوريليانو بوينديا :

ـ لن ترانى هكذا ... البس حذاءك وساعدنى لوضع حد لهذه الحرب القذره ...

والحق أنه حين قال قولته تلك لم يكن يعرف أن شن الحرب أيسر من وضع حد لها ... فقد لبث قرابة عام وهو يبذل جهودا عنيفة لاجبار حكومة المحافظين على عرض شروط صلح مقبولة لدى المتمردين ولبث عاما مثله وهو يجاهد لاقناع رفاقه فى حمل السلاح بقبولها ... وقد توسل بكافة أساليب التشدد والقسوة لاخماد تمرد ضباطه الذين قاوموا وطالبوا بالنصر ، حتى اضطر فى النهاية الى الاعتماد على قوات العدو لحمل رفاقه على الامتثال ..

وباقتراب موعد الهدنة اغتبطت أسرة الكولونيل أوريليانو بوينديا بقرب عودته الى العيش فى أحضانها ، بعيدا عن ويلات الحرب وأعبائها الباهظة ، ليكون بشرا عاديا مثل سائر الناس ، حتى قالت أورسولا فى هذا :

ـ سيكون لنا اخيرا رجل فى البيت ، كما كنا فى الماضى ..

ومن عجب أن الجيش الحكومى كان عليه أن يتولى حماية البيت عند هذه العودة المرتقبة ... اذ كان وصوله مقترنا بالشتائم والاهانات والاتهام بأنه قد عجل بانهاء الحرب بثمن باهظ ..

وفى خلال الايام التالية التى استسلم فيها لمداواة جراحه الجسدية والنفسية ، عمد الى اتلاف كل أثر يربطه بحياته الماضية .. فجرد مسبك المعادن من كل ما له قيمة ذاتية ، ووزع ملابسه على أتباعه من رجال المراسلة ، ولم يحتفظ الا بطبنجة بها رصاصة واحدة ...

وقبل ذلك بساعات جاءت بيلار تيرنيرا لزيارته فراعه تقدمها فى السن وترهل بدنها وانحسار ضحكتها الرنانة المرحة ، وانما راعه اكثر من هذا نفاذ نبؤاتها العجيبة فى قراءتها للطالع ، اذ حذرته له مرة أخرى ، مثلما حذرته وهو فى قمة مجده :

— خل بالك من فمك ! ..

وجاءه طبيبه الخاص .. وبعد أن فرغ من مداواة جروحه ، طلب منه بلهجة عرضية ودون ما اهتمام معين ان يشير له بالتحديد الى موضع القلب .. فتسمع الطبيب بالسماعة ثم رسم دائرة على الصدر بقطعة قطن مغموسة فى اليود — دون أن يعقب بسؤال ...

وحل يوم توقيع الهدنة .. ففى الخامسة صباحا دلف الكولونيل أورليانو بوينديا الى المطبخ حيث شرب قهوته السوداء بغير سكر كعادته ، وقالت له أورسولا :

— لقد جئت الى الدنيا فى يوم ثلاثاء كهذا اليوم .. وكان الجميع فى ذهول من عينيك المفتوحتين ...

بيد انه لم يلق اليها بسمعه اذ كان منصتا الى أصوات تشكيلات الجنود وصدى الاوامر العسكرية ودوى الابواق وهى تمزق سكون الفجر ... ومن عجب أن هذه الاصوات المألوفة لديه جعلته يغص بطعام الافطار ويصد عنه ... وعندما أقبل الكولونيل جيريلدو ماركيز مع زمرة من الضباط المتمردين لمرافقته الى مكان الاجتماع الفاه صامتا بالغ السهوم والوجوم ... وحاولت أورسولا أن تلقى بعباءة جديدة على كتفيه قائلة :

— ماذا سيظن رجال الحكومة عنك ؟.. سيظنون انك استسلمت لانه لم يبق عندك شىء يكفى لشراء عباءة لك !...

لكنه لم يقبل العباءة ... وعندما خرج الى الباب تركها تضع على راسه قبعة قديمة من اللباد كان يلبسها أبوه جوزيه اركاديو بوينديا .. وقالت له أخيرا .

— أورليانو .. عدنى أنك اذا وجدتها ساعة شديدة على نفسك هناك ، فلتتذكر أمك ..

فرد عليها بابتسامة متباعدة ، وخرج من البيت لمواجهة الصيحات والشتائم والحملات التى كان مقدرا أن تلازمه حتى مغادرته ماكوندو ... وارتدت اورسولا الى الباب الخارجى فشدت رتاجه وفى عزمها الا تفتح حتى نهاية حياتها ، وهى تدير هذه الخواطر فى نفسها :

« سوف نفنى هنا ، ونتحول الى تراب فى هذا البيت الذى لم يبق فيه رجال ، لكننا لن ندع لهذه البلدة النكدة فرصة الشماتة بنا ورؤية دموعنا ! » ...

وأمضت ساعات الصباح كلها تبحث عن أى شىء يذكرها بولدها . بيد انها لم تعثر على اثار تنفع للذكرى ...

ووصل الكولونيل أورليانو بوينديا الى مكان الاجتماع على بعد خمسة عشر ميلا من ماكوندو ، حيث تلاقى الوفد الحكومى المحافظ مع وفد المتمردين الليبراليين فى خيمة كبرى بجوار بلدة نيرلانديا ... وكان راكبا بغلا موحلا ... وترك لحيته بغير حلاقة ... وكان يقاسى من آلام جروحه أشد من مقاساته لحبوط أحلامه ، ذلك لانه وصل الى الحد الذى انتهت فيه كل الآمال والاحلام ، وتلاشت كل الامجاد والانتصارات ... وعملا بالتدابير التى طلبها ، فقد خلا الاحتفال من الموسيقى أو الالعاب النارية أو دق الاجراس أو هتافات النصر او غير ذلك من المظاهر التى تغير من الطابع الحزين للهدنة ..

ولم يستغرق الاحتفال سوى الوقت اللازم لتوقيع الوثائق .. وكان بين أعضاء الوفدين اواخر الضباط الذين بقوا على ولائهم للكولونيل اوريليانو بوينديا ... وعندما هم رئيس الوفد الحكومى بتلاوة بنود الاستسلام ، أبى الكولونيل أوريليانو بوينديا قائلا :

— دعونا لا نضيع الوقت فى الشكليات ...

وتأهب لتوقيع الوثائق دون قراءتها ، وعندئذ قطع احد ضباطه السكون الثقيل قائلا له :

— ياكولونيل ... أرجوك ان تكرمنا بألا تكون أول الموقعين ..

فنزل الكولونيل أوريليانو بويندا على رجائه ... وجرت التوقيعات فى صمت رهيب ، الى أن بقى السطر الاول فى كل وثيقة خلوا ، حتى أذاهم الكولونيل بملئه . قال له ضابط آخر من رجاله :

— ياكولونيل .. لا يزال هناك وقت لتصحيح كل شىء ..

بيد انه أجرى قلمه على الاوراق فى المكان الخالى دون أن يتبدل شىء من ملامح وجهه ...

وما كاد يفرغ من التوقيع حتى ظهر فى المدخل ضابط شاب يقود بغلا محملا بصندوقين كبيرين .. كان أمين صندوق المتمردين فى منطقة ماكوندو ... وقد أمضى ستة أيام فى رحلة شاقة وهو يسحب البغل المائت من الجوع لكى يصل الى مكان الهدنة قبل فوات الاوان ... وما لبث أن أنزل الصندوقين وأخذ يخرج منهما قوالب من الذهب بلغ عددها اثنين وسبعين وضعها فوق المنضدة .. لقد نسى الجميع وجود هذا الرصيد الضخم .. ففى فوضى العام الفائت ، عندما

الفصل العاشر

عندما كبر الشقيقان التوأمان جوزيه أركاديو الثانى وأوريليانو الثانى « ابنا أركاديو » كانت الاسرة فى حيرة من تصرفاتهما .. فقد بلغت المشابهة بينهما والمشاكسات الصادرة منهما حدا جعل حتى أمهما سانتا صوفيا بيدال تعجز عن التفريق بينهما ومعرفة من منهما المسمى بالاسم الذى أطلق عليه ، دون خلط أو التباس ...

على أن هذا اللبس مالبث أن تغير بعد تجاوزهما سن المراهقة ، فان أوريليانو الثانى استحال الى فتى ضخم البنية مثل أجداده ، بينما شب جوزيه أركاديو الثانى بادى العظام مثل الكولونيل ، وكانت المشابهة المشتركة بينهما هى سمة الانطواء والعزلة ..

ثم تكشف الفارق الحاسم بينهما فى ابان الحرب ، عندما طلب جوزيه اركاديو الثانى من الكولونبل جيريلدو ماركيز أن يدعه يشهد عملية من عمليات تنفيذ حكم الاعدام .. بعكس أخيه أوريليانو الثانى الذى ارتاع من هذه الفكرة مفضلا البقاء فى البيت ... وفى هذه المناسبة طلب من جدته أورسولا أن تريه الغرفة المغلقة التى كانت معملا لجده الاكبر « جوزيه اركاديو بوينديا » والتى أطلق عليها فيما بعد اسم « غرفة مالكويداس » وجمع فيها كل ما تركه ذلك « الغجرى » الحكيم من كتب ومخطوطات فلم تجد أورسولا ازاء الحاحه الا أن تعطيه مفتاح الغرفة ..

ومن عجب أن أورليانو الثانى عندما فتح الغرفة لم يجد بها آثارا للأتربة والعناكب كما تصور ، ووجد الكتب مصفوفة والمخطوطات منسقة ... وحين تناول أحد الكتب وقرأ بعض ما فيه راعته أعاجيب القصص التى تضمنها ... أما المخطوطات فقد عجز عن فك طلاسمها اذ كانت بخط أقرب الى الرموز الموسيقية ... وقد بلغ من فرط انبهاره بالغرفة وما فيها ، أن ساوره ذات يوم احساس خفى بأنه يرى شبح مالكويداس دائما فى ظلال الغرفة ، على استعداد لتنويره بكل ما يستعصى عليه فهمه وتزويده بالحكمة التى نهل منها جده الأكبر ...

اما جوزيه أركاديو الثانى فقد خرج من تجربة مشاهدة عملية تنفيذ الاعدام بفزع بالغ جعله يمقت الحرب ويهرب الى برج الكنيسة لكى

يدق ناقوسها لمساعدة الاب انطونيو ايزابيل والعناية بديوك المصارعة فى حوش الابرشية .. ولما اكتشف الكولونيل جيريلدو ماركيز الحقيقة زجره بشدة لاهتمامه بأشياء يستنكرها الليبراليون ، فرد قائلا :

ـ الحقيقة هى اننى صرت من المحافظين ، كما أظن ...

وعندما تضايق الكولونيل جيريلدو ماركيز وابلغ أورسولا قالت له متعاطفة مع حفيدها :

ـ هذه الكيفية أفضل ... ندعو الله أن يصبح قسيسا ، لكى يحل الايمان فى بيت المجانين هذا ...

ولكن جوزيه اركاديو الثانى احترف مصارعة الديوك ... ولما رأته أورسولا يدخل البيت لاول مرة بديوكه عارضته بشدة قائلة انها تجلب النحس ، وأن احد أسلاف الاسرة قتل منافسا له بسبب هذه الديوك المشئومة ... ولكنه استمر فى تربيتها فى بيت بيلار تيرنيرا « جدته » ، التى أعطته كل مايحتاج اليه فى مقابل اقامته عندها ...

اما اخوه أوريليانو الثانى فكانت أطواره أدنى الى العجب ... ففى الفترة التى امضاها عاكفا على القراءة فى غرفة مالكويداس كان منطويا على نفسه مثلما كان الكولونيل أوريليانو بوينديا فى شبابه ... ولكن بعد توقيع معاهدة الصلح فى « نيرلانديا » حدث ما أخرجه عن انطوائه وجعله يواجه واقع الدنيا ... فقد التقى ذات مرة بامرأة شابة كانت تبيع « يانصيب الكارتيلا » لجائزة « اكورديون » وحيته بحفاوة ومعرفة أكيدة ، فلم يدهش أوريليانو الثانى اذ كثيرا ماخالط الناس بينه وبين أخيه التوأم .. بيد أنه لم يعمل على توضيح هذا الخلط ، وانتهى اللقاء بأن اخذته المرأة الى حجرتها ... والواقع أن المرأة أحبته حبا شديدا منذ لقائهما الاول ، حتى دبرت الامور بحيث تكون جائزة « الاكورديون » من نصيبه عند سحب أرقام « الكارتيلا » ... وبعد انقضاء أسبوعين تحقق أورليانو الثانى أن المرأة كانت تعاشره بالتناوب مع أخيه ، معتقدة انهما شخص واحد .. وبدلا من أن يعمل على تصحيح الخطأ قرر أن يطيل امد الموقف .. ولم يعد يذهب الى غرفة مالكويداس ... وانما كان يمضى عصر كل يوم فى فناء البيت يتدرب على العزف على « الاكورديون » بالرغم من اعتراضات أورسولا التى كانت فى ذلك الحين قد حرمت عزف

الموسيقى فى البيت بسبب الحداد العائلى ولان « الاكورديون » فى نظرها كان صنعة المتسولين ... وعلى الرغم من ذلك فان أوريليانو الثانى غدا بارعا فى العزف على « الاكورديون » وظل كذلك حتى بعد أن تزوج وانجب أولادا واصبح من أكثر الناس احتراما فى ماكوندو ..

لقد دامت العلاقة بين بائعة « الكارتيلا » والاخوين شهورا .. ولكن « جوزيه أركاديو » الثانى مرض وانسحب .. أما أوريليانو الثانى فقد صارحها بالحقيقة والتمس صفحها ، وبقى معها حتى مماته ..

كانت المرأة تدعى بيترا كوتيس ، وكانت قد جاءت الى ماكوندو فى ابان الحرب مع زوج عرضى يرتزق من « الكارتيلا » ، وبعد وفاته استمرت فى المهنة .. كانت شابة مولدة ذات عينين لوزيتين أسبغتا على وجهها شراسة أفعى البانثر ، بيد أنها كانت طيبة القلب فوارة العاطفة ... وبعد أن تحققت أورسولا أن جوزيه أركاديو الثانى احترف مصارعة الديوك وأن أوريليانو الثانى يعزف على الاكورديون فى تلك الحفلات الصاخبة التى كانت تقام فى بيت عشيقته ، بدا لها أنها توشك ان تفقد عقلها بشذوذ أطوار هذا الثنائى العجيب ، حتى لكأن نقائص الاسرة دون ما شىء من محامدها قد تركزت فى الاثنين ...

وعلى الرغم من أن أورسولا قد بلغت المائة من عمرها واوشكت أن تفقد البصر بسبب « المياه البيضاء » ، فقد ظلت محتفظة بحيويتها البدنية الفائقة ، واستقامتها الخلقية المأثورة ، واتزانها العقلى الموفور..وقد نذرت فى نفسها اذا تزوج أحد حفيديها وانجب ولدا أن تتولى هى تربيته وصياغته ليكون الرجل الفاضل الذى يعيد للاسرة مكانتها الذاهبة ــ الرجل الذى لا يغامر فى الحروب ، والذى لا يحترف مصارعة الديوك ، والذى لا يعاشر النساء الساقطات ــ وهى النقائص التى عدتها عوامل فعالة فى تقويض مكانة أسرتها ...

اما أورليانو الثانى الذى مضى رغم ذلك فى حياته العابثة ، فقد اعتبر أن ما ناله من ثراء بعد ذلك انما كان وليد علاقته مع بيترا كوتيس كما سيرى القارىء فيما يلى ... ان بيترا كوتيس ظلت حتى نهاية الحرب تعول نفسها بما تربحه من بيع « الكارتيلا » ، وكان أوريليانو الثانى يساعدها بما يسطو عليه بين حين وآخر من مدخرات أورسولا ... وظل الاثنان يعيشان عيشة ماجنة ، حتى اذا عاد أوريليانو الى بيته عند الفجر كانت أورسولا تتلقاه صائحة .

ــ ان هذه المرأة هى سبب ضياعك !.. انها سلطت عليك سحرها الى حد أننى سأراك يوما وأنت تتلوى من المرض والآلام !...

بيد أن أوريليانو الثانى لم يفكر وقتها الا فى ايجاد حرفة تمكنه من اقامة بيت لبيترا كوتيس ، يعيش معها بين جدرانه متفانيين فى الحب حتى الممات ... وعندما فتح الكولونيل أوريليانو بوينديا مسبكه المعدنى مرة أخرى ، بدا لاوريليانو الثانى أن يتعلم صناعة حلى الاسماك الذهبية ليتخذ منها موردا للعيش ... بيد أن المشقة التى كابدها فى فترة ثلاثة أسابيع من التدريب جعلته يهرب من المسبك .. وحدث فى خلال هذه المدة أن بيترا كوتيس خطر لها أن تجعل الارانب جائزة الربح فى « الكارتيلا » .. والواقع أن الارانب تكاثرت بسرعة غريبة الى حد ان الوقت لم يكن يتسع لبيع تذاكر « الكارتيلا » بالتوازى مع تكاثر الارانب .. ولم يتمالك أوريليانو الثانى أن قال لها ذات صباح وقد أذهلته كثرة الارانب فى الحوش :

ــ لماذا لا تجعلين جائزة « الكارتيلا » على البقر ؟

وفى محاولة من بيترا كوتيس لتنظيف الحوش قايضت على الارانب ببقرة ، أنجبت بعد شهرين ثلاثة عجول !..

كانت هذه هى البداية ... وفى سنوات قلائل ، ودون ما جهود تذكر ، وانما بعامل الحظ وحده ــ جمع أوريليانو الثانى ثروة من أكبر الثروات فى منطقة المستنقعات ، بسبب ذلك التكاثر الخارق للمواشى ... كانت الافراس تلد ثلاثا ، والدجاج يبيض مرتين كل يوم ، والخنازير تسمن بسرعة غريبة ، الى درجة أن أحدا لم يصدق هذه الخصوبة الفذة الا اذا كانت من قبيل السحر الاسود ! ...

ورسخ فى ذهن أوريليانو الثانى أن حظه العجيب هذا انما هو بتأثير بيترا كوتيس ، حتى أنه كان يحرص دائما على عدم ابعادها عن مراعيه وحظائره ، بل انه بعد أن تزوج وانجب أبناء استمر يعايشها بموافقة زوجته فرناندا ! ..

هكذا أصبح أوريليانو الثانى بين عشية وضحاها مالكا لاراض وماشية متزايدة لم يكن يجد حتى الوقت لتوسيع حظائرها ... وأضحت حفلاته الصاخبة التى كان يريق فيها الشمبانيا بغير حساب مثار العجب فى أرجاء ماكوندو .. وعبثا كانت أورسولا تزجره لهذا الاسراف الذى لا حد له ، اذ كان يقابل زجرها بالتمادى وهو يضحك طربا واستخفافا ... بل انه جاء ذات مرة بصندوق ملىء

بأوراق البنكنوت واناء به معجون وأخذ يلصق الاوراق على حوائط البيت داخلا وخارجا بين انفعال الاسرة وتفجع أورسولا وطـرب الجمهور الحاشد فى الشارع ، حتى صاح أخيرا بأعلى صوته :

ــ الآن لن يكلمنى أحد فى هذا البيت عن النقود مرة أخرى ! ..

وقد عمدت أورسولا الى انتزاع أوراق البنكنوت وطلاء البيت باللون الابيض من جديد ، وهى تدعو قائلة :

ــ سألتك ، يا الهى أن تعيدنا فقراء كما كنا عندما انشأنا هـذه البلدة ، حتى لا نجزى بهذا الاسراف فى آخرتنا !..

ومن عجب أن الدعاء جاء بعكس ما استهدفت .. فان أحـد العمال القائمين بنزع أوراق البنكنوت اصطدم بتمثال ضخم مـن المصيص للقديس يوسف تركه أحدهم فى البيت أثناء السنين الاخيرة للحرب وسقط التمثال الاجوف محطما على الارض .. كان التمثال محشوا بالعملات الذهبية .. ولم يسـتطع أحد أن يتذكر من الذى جاء بهذا التمثال .. وفى هذا قالت أمارانتا :

ــ ان ثلاثة رجال جاءوا به ورجونا أن نبقيه عندنا الى أن تنتهى الامطار ، فطلبت منهم أن يضعوه هناك فى الركن حتى لا يصطدم به احد ، ففعلوا ، وبقى فى مكانه منذ ذلك الوقت ، لان أحداً لم يعـد قط للمطالبة به ..

ان هذا الحادث ضايق أورسولا ، اذ كانت تعتقد بادىء الامر أنه تمثال قديس حقيقى حتى انها وضعت شمعة فوقه وأخـذت تصلى أمامه .. فلما تبينت الحقيقة الآن لم تتمالك أن بصـقت على كوم الذهب البراق وعمدت الى وضعه فى ثلاثة أكياس مـن القنب دفنتها فى مكان سرى ، مؤملة أن يعود الرجال المجهـولون عاجلا أو آجلا لاستردادها ...

فى ذلك العهد كانت ماكوندو تنعم بالرخاء وقد استحالت بيوتها القروية الى أبنية ذات مصاريع خشبية وأرضية من الاسمنت ، مما جعل حر الظهيرة الخانق أقرب الى الاحتمال .. ثم بدا لجوزيه أركاديو الثانى أن ينشىء مشروعا ملاحيا يربط البلدة بالعالم الخارجى فعمل على تطهير قاع النهر من صخوره وشق قناة تصله بالبحر .. ولما اطلع اخاه أورليانو الثانى على مشروعه لم يبخل عليه بالمال ، واختفى عن الانظار مدة طويلة حتى ظن الكثيرون أن خطته لشراء سفينة لم تكن سوى خدعة للهرب بمال أخيه .. الى أن جـاء

يوم هرع فيه سكان ماكوندو الى النهر وعيونهم جاحظة من الذهول، اذ شاهدوا جوزيه أركاديو الثانى يتصدر أول وآخر سفينة تمخر مياه النهر الى البلدة ..

لم تكن فى الواقع سوى طوف خشبى كبير يجذبه بالحبال عشرون رجلا يتقدمون بمحاذاته على الضفة ، وقد وقف فى مقدمته جوزيه أركاديو الثانى تلمع عيناه زهوا وهو يشرف على العملية ... ولقد وصلت معه مجموعة من نساء فرنسيات تحت مظلات ملونة تقيهن حرارة الشمس المتقدة ، وقد تدلت فوق أكتافهن مناديل حريرية كبيرة هفهافة ، وازدانت وجوههن بمعاجين ملونة ، ورشقن الزهور الطبيعية فى شعورهن ، والتفت حول أذرعهن ثعابين من الذهب ، ولمعت أسنانهن بالماس ... ومن عجب أن جوزيه أركاديو الثـانى بعد أن أطلع أخاه على تفاصيـل المغامرة التى عدها دليـلا على قوة الارادة لا أكثر ــ مالبث أن عاد الى ديوكه المتصارعة ، وقضى على مشروع الخط الملاحى بالفشل ... وكان الاثر الوحيد الذى بقى من هذه المحاولة الفاشلة هو روح التجديد التى جاءت بها النسـاء الفرنسيات ، بما أدخلنه من التطور الاجتماعى والسلوكى فى هذا المجتمع المنعزل المغلق ، الى حد أن هذا الاثر امتد الى حانة كاتارينو العتيقة التى أغلقت أبوابها كسادا ، واستحال الشارع ذاته الى ساحة تضيئها المصابيح البدائية وآلات العزف العصرية ... بل انهن كن صاحبات السبق فى اقامة « الكرنفالات » التى جعلت ماكوندو تعيش ثلاثة أيام فى جو مرح صاخب محموم .. وكانت النتيجـة النهائية لهذا كله هى اتاحة الفرصة لاورليانو الثانى للالتقاء بزوجته فرناندا ديل كاربيو ...

لقد اختيرت اخت ريميديوس الجميلة ملكة لمهرجان الكرنفـالات ولم تستطع أورسولا التى كانت مروعة لجمال حفيدتها الصـغرى الصاعق أن تمنع هذا الاختيار .. وكانت حتى ذلك الحين قـد أفلحت فى ابعادها عن أعين الناس خارج البيت ، اللهم الا عنـد الذهاب الى الكنيسة لحضور القداس مع أمارانتا ، ولكنها كـانت تحملها ووجهها خلف شال أسود ... ومن الناس من كانوا يذهبون الى هناك لمجرد القاء نظرة خاطفة على محيا ريميديوس الجميلة التى

كانت ملاحتها الفاتنة مثار الاحاديث المحمومة فى أرجاء اقليم المستنقعات .

والحق أن ريميديوس الجميلة لم تكن مخلوقة لهذه الدنيا ... لقد ظلت حتى سن المراهقة تحت رعاية أمها سانتا صوفيا بيدال التى كانت تتولى تحميمها والباسها ، وكانت تضعها تحت المراقبة لئلا تشوه الحوائط بالرسوم الغريبة التى تنقشها .. وبلغت العشرين من عمرها دون أن تعرف القراءة والكتابة ، جاهلة باستعمال أدوات المائدة ، جائلة فى أرجاء البيت عارية اذ كانت طبيعتها تنبذ التستر ... وعندما طالعها قائد الحرس الشاب بحبه صدته عنها ببساطة لان « مجونه روعها » ، وفى هذا قالت لامارانتا :

ـ انظرى الى سذاجته !.. قال لى انه سيموت بسببى ، كأننى مرض معد يؤدى الى الموت !..

وعندما عثروا على الضابط الشاب صريعا تحت نافذتها ، لم تعد ان قالت لامارانتا :

ـ الم اقل لك انه ساذج ؟ ! ..

ان اورسولا من ناحيتها قد جمدت الى أن منح الاسرة مخلوقة لها مثل هذا الطهر الخارق ، وان كانت فى نفس الوقت يقلقها مثل هذا الجمال ، الذى عدته شركا شيطانيا تحت طابع البراءة ... ومن اجل هذا كان حرصها على ابعاد ريميديوس الجميلة عن الدنيا ؛ حماية لها من كل اغراء دنيوى ، غير عالمة بأنها كانت حتى وهى فى رحم امها بنجوة من كل عدوى ... ولم يخطر ببالها قط أنهم سيختارونها ملكة جمال الكرنفال الجنونى ، ولكن أوريليانو الثانى الذى استبدت به نزوة التنكر فى اهاب نمر ، استقدم الاب انطونيو ايزابيل الى البيت لاقناع أورسولا بأن الكرنفال ليس من الطقوس الوثنية كما قالت ، بل هو من الممارسات التى لا تتنافى مع العقيدة ... ولما اقتنعت فى النهاية ، وان كان على كره منها ، وافقت على التتويج ...

وسرعان ما انتشر نبأ اختيار ريميديوس بوينديا لتتويجها ملكة فى المهرجان حتى تجاوز حدود اقليم المستنقعات فى ساعات معدودة ووصل الى مناطق بعيدة لم تسمع بجمالها ، الامر الذى اثار قلق الدوائر التى مازالت ترى فى لقبها العائلى « بوينديا » رمزا لحركات التمرد ... ولم يكن ثمة أساس لهذا القلق .. فلو كان

هناك احد قد انحاز الى السلم والمهادنة فقد كان هو الكولونيل اوريليانو بوينديا ، الذى دبت اليه الكهولة ، وبعدت صلاته بكافة احوال أمته ، والذى اعتكف فى مسبكه المعدنى يقتل الوقت بصياغة حلى الاسماك الذهبية الصغيرة ...

هكذا لم يكن ثمة أساس للقلق الناجم عن عودة اسم عائلة « بوينديا » للظهور على نطاق شعبى لمناسبة اختيار ريميديوس بوينديا لكى تتوج ملكة فى مهرجان الكرنفالات ، وان كان هناك العديدون ممن لم يروا هذا الرأى ... ومهما يكن فان البلدة التى كانت غافلة عن الفاجعة التى تتهددها تدفقت الى الميدان الرئيسى فى موجات صاخبة من المرح ... وقد بلغ المهرجان ذروته من الهوس، وحقق اوريليانو الثانى حلمه أخيرا بالتنكر فى اهاب نمر والسير فى غمار الزحام وقد بح صوته من فرط الصياح والانفعال ـ عندما ظهر على طريق المستنقعات موكب من عديد الاشخاص يحملون فى محفة مذهبة أبهى امراة يمكن أن يتصورها الخيال ... وفى مدى لحظة نزع أهل ماكوندو أقنعتهم لكى يحسنوا النظر الى الانسانة المنمقة الزهراء ذات التاج الزمردى العباءة المحفوفة بالفراء الثمين والتى بدا وكأنها ملكة شرعية . لا مجرد صورة مصنوعة ... وكان لكثير من الفطنة ما جعلهم يعدون هذا البهاء من قبيل الاغراء والاثارة ... ولكن أوريليانو الثانى سرعان ما تغلب على حيرته وأعلن أن الوافدين الجدد هم ضيوف شرف ، وبادر فأجلس ريميديوس الجميلة والملكة الدخيلة على نفس العرش الذى أعد للتتويج .. وحتى منتصف الليل ظل الوافدون الغرباء ، المتنكرين فى أزياء بدوية ، يشاركون فى البهجة المحمومة ، بل انهم ضاعفوا من أسباب المرح والبهجة باطلاق العاب نارية وممارسة عروض بهلوانية جعلت الناس يتذكرون أفانين « الغجر » ...

ثم فجأة ، وفى ذروة الابتهاج والحبور ، صاح أحدهم هاتفا :

ـ يحيا الحزب الليبرالى ! .. يحيا الكولونيل أوريليانو ـ بوينديا ! ...

وسرعان مادوت طلقات الرصاص تغطى قصف الالعاب النارية ، وانبعثت صيحات الفزع تبتلع عزف الموسيقى ، واستحالت البهجة الى ذعر وهلع ... وبعد انقضاء سنوات عديدة على هذه الفاجعة ، ظل الكثيرون يؤكدون أن حراس الملكة الوافدة الدخيلة كانوا من

الجنود النظاميين الذين أخفوا بنادقهم الحكومية تحت العباءات البدوية الفضفاضة ، برغم ما أذاعته الحكومة فى بيان رسمى من دحض هذا الاتهام ... وبعد أن ساد الهدوء لم يبق فى البلدة أحد من البدو الزائفين ، وتناثرت على ارض الميدان جثث القتلى والجرحى فى ثياب التنكر : اربع راقصات بانتوميم ، وسبعة عشر من ملوك ورق اللعب ، وشيطان ، وثلاث مغنيات ، واثنان من نبلاء فرنسا ، وثلاث امبراطوريات يابانيات ... وفى غمرة الفزع أفلح جوزيه أركاديو الثانى فى انقاذ ريميديوس الجميلة ، وحمل أورليانو الثانى الملكة الدخيلة الى البيت بين ذراعيه وقد تمزق رداؤها وتلوثت عباءتها بالدم ... كان اسمها فرناندا ديل كاربيو ... وكان الاختيار قد وقع عليها كأجمل خمسة آلاف من أجمل نساء البلاد ، وقد جاءوا بها الى ماكوندو بناء على وعد بتسميتها ملكة مدغشقر ... وتولت أورسولا العناية بها كما لو كانت ابنة لها ... وبدلا من أن ترتاب البلدة فى أمرها فقد عطفت عليها ورثت لما نالها ... وبعد ستة أشهر من المجزرة ، وبعد أن شفى الجرحى وذبلت الزهور فوق القبر الجماعى للقتلى ، مضى أورليانو الثانى لاستقدامها من المدينة البعيدة التى كانت تقيم فيها مع أبيها ، وعقد قرانه عليها فى ماكوندو فى احتفال كبير امتد عشرين يوما ...

الفصل الحادى عشر

كاد الزواج أن يتحطم بعد شهرين ، لان أورليانو الثانى فى محاولة منه لاسترضاء بيترا كوتيس عمل على تصويرها فى زى ملكة مدغشقر ... وعندما اكتشفت فرناندا ماحدث ، حزمت حقائب العرس وغادرت ماكوندو دون كلمة وداع ... واستطاع أورليانو الثانى أن يلحق بها على طريق المستنقعات ، وبعد توسلات كثيرة ووعود بالاستقامة أفلح فى اعادتها الى بيت الزوجية ، وهجر عشيقته ...

وثقة من بيترا كوتيس فى قدرتها ، فانها لم تبد أى قلق أو انزعاج ، وهى التى أخرجته من عزلته وقلة خبرته ، وصاغت منه رجلا يعرف كيف يستمتع بالحياة ، فضلا عن تأثيرها فى انماء ثروته

... وكان الشيء الوحيد الذى استبقته عندها من ملابسه هو زوج الحذاء الفاخر الذى قال أنه يريد الاحتفاظ به للبسه فى التابوت حين وفاته ... وفى هذا قالت بيترا كوتيس لنفسها مصابرة :

— سوف يعود الى عاجلا أو آجلا ، حتى ولو لمجرد لبس الحذاء ! ...

ولم يكن لها أن تنتظر طويلا ... فالحقيقة أن أورليانو الثانى ادرك منذ ليلة الزفاف أنه عائد الى بيت بيترا كوتيس لا محالة ... فان فرناندا كانت امرأة غريبة الاطوار هائمة فى هذه الدنيا .. لقد نشأت فى تلك المدينة القاتمة التى تبعد ستمائة ميل والتى تدرج فيها المركبات الملكية نشأة قوامها التزمت والاعتكاف فى بيت أبوين من أسرة رفيعة ، وكثيرا ماسمعت أمها المريضة تردد على سمعها :

— كانت جدتك الكبرى ملكة ... وسوف تصبحين أنت ملكة ذات يوم ...

لقد صدقت فرناندا هذا الكلام حتى بعد وفاة امها وادخالها الدير وهى فى الثانية عشرة من العمر للتعليم ، وحتى بعد اضطرار والدها « دون فرناندو » لرهن بيت الاسرة ليتمكن من شراء جهاز العرس طبقا للتقاليد .. وبعد ثمانى سنوات عادت الى البيت لتجده مجردا من الاثاث الفاخر والتحف الثمينة التى اضطر أبوها لبيعها سدادا لنفقات تعليمها ... وهكذا مضت فرناندا فى عيشتها المنزوية لا أصدقاء لها ولا تعرف شيئا من أحوال الدنيا حولها ، حتى ولا انباء الحرب التى كانت تمزق البلاد ، ولا يشغلها سوى تعلم دروس البيانو وصنع أكاليل الموتى ... بل انها بدأت تفقد الحلم الذى راودها بأن تصير ملكة فى يوم ما بتأثير ماثبتته امها فى رأسها — الى أن جاء يوم سمعت فيه دقا آمرا على الباب الخارجى ، ولما فتحته طالعها ضابط شاب أنيق ، وطلب مقابلة أبيها .. وبعد أن اختلى به ساعتين خرج الاب اليها فى غرفة الحياكة وقال لها :

— جهزى أمتعتك .. ستقومين برحلة طويلة ..

وعلى هذه الصورة كانت رحلتها الى ماكوندو التى صحبوها اليها دون أن تعرف مايراد بها ... وفى ليلة واحدة صدمتها الدنيا صدمة قاسية عنيفة بواقعها المرير وحقيقتها المروعة ... وبعد عودتها الى البيت أغلقت على نفسها باب غرفتها واستسلمت للبكاء والنحيب ، غير عابئة باستعطاف « الدون فرناندو » لهـ..

ومحاولات الشرح والتفسير رغبة فى تلافى آثار الجراح العميقة التى خلفتها تلك الدعابة الخادعة الغريبة .. وقد أقسمت ألا تبرح غرفتها حتى الموت ، عندما جاء أوريليانو الثانى للزواج منها ..

كان ذلك هو بداية حياتها الفعلية ..وكان فى نفس الوقت هو البداية ، والنهاية ، لسعادة أوريليانو الثانى ...

منذ ليلة الزفاف أبدت فرناندا تزمتا غريبا حتى صدفت عن فراش الزوجية مدى أسبوعين كاملين مما اضطر أوريليانو الثانى الى اطالة أيام الفرح عشرين يوما دارت فيها الشمبانيا ونحرت فيها الذبائح وأقيمت الولائم بكرم باذخ — والسر كما اكتشفت أورسولا أن فرناندا كانت ملتزمة بمراعاة أيام معينة طبقا لتقويم لقنته وهى فى الدير ...

ولما ثابت اليه فى النهاية عانى من تزمتها الامرين ، حتى لم يمض شهر الا وقد رجع الى بيت بيترا كوتيس واخذ لها تلك الصورة فى زى الملكة على ماتقدم ... وبعد أن أفلح فى اعادة فرناندا الى بيت الزوجية وخفت حدة تزمتها — احس فى النهاية أنها لا تستطيع أن تهيىء له تلك السعادة التى راودت خاطره حين سعى اليها فى تلك المدينة البعيدة للفوز بالزواج منها ...

ثم ذات ليلة ، قبل فترة قصيرة من مولد طفلهما الاول ، عرفت فرناندا ان زوجها قد عاد سرا الى بيت بيترا كوتيس ... وقد اعترف لها بذلك وقال يشرح لها الموقف بلهجة المستسلم لقضائه :

— هذا ماحدث ... وكان لابد لى أن أفعل هذا ، لكى تستمر المواشى فى التكاثر والزيادة ! ..

ولم يستغرق الا وقتا قليلا لاقناعها بصدق هذه الدعوى الغريبة وبما قدمه من براهين بدا انه لا سبيل الى دحضها ، وكان الوعد الوحيد الذى طلبته منه فرناندا هو الا يدع الموت يفاجئه فى فراش عشيقته ... وعلى هذه الصورة مضى الثلاثة فى حياتهم دون أن يضايق أحدهم الآخر : اوريليانو الثانى المحب المتفانى ، لكل منهما ... وبيترا كوتيس المزهوة المنتصرة .. وفرناندا المتظاهرة بأنها لا تعرف شيئا ...

بيد أن هذا الميثاق الغرامى لم ينجع فى ادماج فرناندا فى حياة أسرة بويندبا ... فمنذ أول يوم فشلت أورسولا فى اقناع فرناندا

باستخدام دورة المياه بدلا من « القعادة » الذهبية التى جاءت بها فى جهاز العروس ، ولكى تعطيها الى الكولونيل أوريليانو بويندبا . لصهرها وصنع اسماك ذهبية صغيرة منها ... وقد شعرت أمارانتا بالضيق من التزام فرناندا أسلوب التحذلق فى الكلام حتى كانت تتهكم عليها ، مما أدى فى النهاية الى القطيعة بين الاثنتين وأصبحتا لا تتصلان الا بالمذكرات الكتابية ..

وعلى الرغم من العداوة الظاهرة من جانب الاسرة لفرناندا ، فانها لم تنفض يدها من فرض اتجاهاتها وعادات أسلافها على هذه البيئة الجديدة .. فقد وضعت حدا لتناول الطعام فى المطبخ كلما شعر أحدهم بالجوع ، والزمتهم بأن يكون هذا فى مواعيد منتظمة وحول المائدة الكبرى فى قاعة الطعام ، مكسوة بمفرش كتانى وعليها أدوات المائدة ومن فوقها الثريات ... وعلى هذا النحو صارت هى المتصرفة فى شئون البيت ، خصوصا بعد أن طعنت أورسولا فى السن وكف بصرها واضطرها ثقل السنين الى الانزواء فى أحد الاركان ..
ثم ان أبواب البيت التى كانت تفتح على مصاريعها منذ الفجر حتى موعد النوم ، أضحت توصد أثناء فترة القيلولة بدعوى أن الشمس تسخن غرف النوم ، وفى النهاية كان اغلاقها دائما .. وعندما قرر زوجها تسمية ابنهما الاول باسم جده الاكبر « جوزيه أركاديو » لم تلجأ فرناندا الى مخالفته اذ لم يكن قد مضى على وجودها فى البيت اكثر من عام ، ولكن عندما ولدت البنت الاولى صممت على تسميتها « ريناتا » وهو اسم أمها ، فى حين أرادت أورسولا أن تسميها ريميديوس .. وبعد احتدام الخلاف الذى كان الاب يقوم فيه بدور الوسيط الضاحك ، تم الاتفاق على تسميتها « ريناتا — ريميديوس» ثم اشتهرت فى البلدة باسم « ميم » ...

ثم توالت الايام وتعاقبت الاعوام ... وفى خلال ذلك شهدت بلدة ماكوندو تطورات كبرى غيرت معالم الحياة فيها حتى أصبحت تعج بالنشاط ... فقد مدت اليها خطوط السكك الحديدية ، وأدخل التليفون والكهرباء ، وانشىء مصنع للثلج وبعض المشروبات المثلجة ... ولكن كان أكبر تطور مؤثر فى حياة الناس الاجتماعية والاقتصادية هو زراعة الموز على نطاق واسع بعد أن تولته شركة خارجية جلبت معها مئات الخبراء والفنيين الذين أقيمت لهم

مساكن خاصة ومرافق معيشية وترفيهية منوعة ، حتى كان ذلك في نظر اهل البلدة أقرب الى الغزو منه الى التعمير ...

واحد فقط رحب بهذا الغزو الخارجي وسعد به الى حد كبير — هو أوريليانو الثاني ... فقد كان القادمون الجدد ينزلون ضيوفا على البيت الكبير قبل استقرارهم في منشآتهم الجديدة ، فكانت المآدب تقام لهم بغير حساب ... واذا كانت أورسولا قد أبدت كرمها المعهود ، فان أمارانتا استبشعت ماعدته اقتحاما للبيت ، وعادت الى تناول طعامها في المطبخ مثل ما كان في الماضي ... وعمد الكولونيل أوريليانو بوينديا الى أغلاق صومعة السبك على نفسه اعتزالا للوافدين الذين وان تظاهروا بأنهم يؤدون واجب التحية لبطل قومي ، الا أنه عدهم دخلاء متطفلين يرونه في واقع الامر أثرا من مخلفات الماضي .. وكانت فرناندا بالطبع اشد الجميع جزعا ازاء هذه الفوضى التي شملت البيت وعصفت بكل ماوضعته من ترتيبات ونظم ...

الا ريميديوس الجميلة التي كانت في منعة من التأثر بشيء من هذا كله — بحكم طبيعتها الهادئة ، ونفورها من المظهريات ، واعراضها عن كل تشكك وسوء ظن ، وسعادتها بدنياها الخاصة القائمة على الواقعية والبساطة ... ومن قبيل ذلك انها لم تكن تفهم لماذا تلجأ النساء الى التعقيد والتكلف بارتداء الجونلات والمشدات ، ولهذا خاطت لنفسها ثوبا خشنا فضفاضا كالجلباب حسمت به مسألة الفستان ، وان لم تغفل عن الاحساس بأنها تبدو فيه شبه عارية ، ولكنها عدته الرداء الوحيد المناسب للبيت .. ولما رأتهم ينتقدونها بسبب شعرها المرسل الذي استطال الى الفخذين ويطالبونها بعقده جدائل وتمشيطه ورشق « الفيونكات » الحمراء فيه — حلقت راسها ببساطة واستخدمت الشعر في عمل عاريات لتماثيل القديسين ... وكان الشيء المروع في تبسيطها لكل شيء هو أنها كلما استغنت عن متطلبات الهندام اللائق اشارا لراحة البدن ، وكلما تجاوزت عن العرف والتقاليد استجابة لعفويتها — كلما بدا جمالها الصارخ أشد اثارة ، واغراؤها للرجال اكثر وافدح .. والواقع أن ريميديوس الجميلة ظلت حتى آخر لحظة لها على الارض غيرمدركة ولا مقدرة أن قدرها الذي لا تبديل له كامرأة مثيرة للقلق واضطراب المشاعر هو كارثة يومية .. كانت في كل مرة تدخل فيها قاعة الطعام على رغم نواهي أورسولا تثير في نفوس الغرباء الوافدين موجة من

البلبلة والجزع ، اذ كان يبدو بكل وضوح انها متجردة تماما تحت ردائها البدائي الخشن ... ولم يستطع أحد أن يفهم أن راسها الحليق وجمجمتها البديعة التكوين ليسا ضربا من ضروب التحدي ، وان جراتها في الكشف عن ساقيها تلطيفا للحر ليس من قبيل الاستفزاز والاثارة الآثمة ... ومثل ذلك ما كانت تعمد اليه من لعق أصابعها بعد الاكل !..

اما هي فكانت غافلة تماما عن البلبلة والاضطراب اللذين كانت تتقلب فيه ، وعن البلاء الذاتي الذي كانت تحدثه كلما مرت بمكان ، ومن ثم كانت تعامل الرجال دون ما أدنى سوء طوية ولا خبث ، وان كانت في نهاية الامر تزلزلهم بهدوئها البريء .. وحينما أصرت أورسولا على جعلها تتناول الطعام في المطبخ مع أمارانتا لكيلا يبصرها الغرباء الوافدون ، كان ارتياحها بالغا ، اذ كانت أبعد الناس عن التزام التقاليد والمجاملات والنظام المرسوم ... والواقع أنه لم يكن يعنيها أين ولا متى تأكل ... أحيانا كانت تستيقظ من النوم في الثالثة صباحا لتناول طعام الغداء ، ثم تنام النهار طوله ... بل كانت تمضي شهورا متوالية ومواعيد طعامها في منتهى الاختلال ... ثم اذا طرأ تحسن على هذا الجدول الزمني كانت تستيقظ في الحادية عشرة صباحا وتغلق على نفسها باب الحمام حتى الساعة الثانية بعد الظهر وهي عارية تماما ، تتسلى بقتل العقارب الى ان تفيق من تأثير نوم عميق ، ثم تأخذ في صب الماء عليها بكوز من الحوض ، وكانت تطيل امد هذه العملية وتبالغ في طقوسها الى حد أن من لا يعرفها جيدا يظن أنها قد كرست نفسها لعبادة جسدها ... اما بالنسبة اليها فان هذه الطقوس الفردية كان يعوزها كل احساس ذاتي ، وكانت مجرد ملهاة لازجاء الوقت الى أن تشعر بالجوع ...

وذات يوم حين بدأت في الاستحمام ، رفع أحد الضيوف الغرباء بلاطة من سقف الحمام ، فتوقفت انفاسه لدى المشهد الصاعق الذي صافح عينيه ... ولقد رأت هي عينيه البائستين من خلال البلاطة المكسورة ، فلم يخامرها رد فعل ينم عن الخجل ، بل عن الانزعاج ، وهتفت :

— احترس !.. ستقع !..

فغمغم الغريب قائلا :

— أردت فقط ان اشاهدك !..
فقالت :
— لا بأس ... لكن احترس .. فان هذا البلاط مخلخل ...
لقد شاعت امارات الذهول الممزوج بالتألم فى وجه الغريب ، وبدا كأنه يكافح فى صمت ضد مشاعره لئلا يتلاشى من امام عينيه هذا السراب ... اما ريميديوس الجميلة فقد ظنت أنه يقاسى من الخوف من احتمال تكسر البلاط كله ، فأخذت تتعجل اتمام حمامها بأسرع من المعتاد لئلا يتعرض الرجل للخطر .. وفيما كانت تصب الماء فوق جسدها من الحوض قالت له أن السقف بهذه الحالة — لان ورق الشجر الذى يحشوه — قد دب اليه العطن بسبب الامطار على ماتظن ، وان هذا هو سبب امتلاء الحمام بالعقارب ... وقد توهم الغريب أن كلامها هذا هو مجرد تغطية لهدوئها المذهل ، ولذلك ما ان رآها تضع الصابون على جسدها حتى استسلم للاغراء وتقدم خطوة أخرى مغمغما :
— دعينى أضع لك الصابون ...
فقالت :
— أشكر لك حسن نواياك ... لكن يدى فيهما كل الكفاية ...
فقال راجيا :
— حتى ولو كان الصابون لظهرك فقط ؟..
فقالت :
— هذه بلاهة ... الناس لا يضعون الصابون على ظهورهم أبدا ! ...
وعندئذ ، وبينما كانت تجفف نفسها ، توسل اليها الغريب وقد امتلأت عيناه بالدموع أن تتزوجه ... فردت عليه بلهجة مخلصة قائلة أنها لا يمكن أن تتزوج رجلا بلغت به السذاجة الى حد ان يضيع ساعة من وقته بل حتى يحرم نفسه من طعام الغداء لمجرد أنه شاهد امرأة تستحم ... وأخيرا ، وعندما كانت تلبس جلبابها ، لم يحتمل الرجل البرهان الذى رآه بعينى رأسه ما كانوا يستريبون فيه من أنها لا تلبس شيئا غير الجلباب ، واحس أن كشف هذا السر كان له وقع حديد محمى فى النار عليه .. وعندئذ نزع بلاطتين اخريين من السقف لكى ينزل الى الحمام .. فقالت تحذره مروعة :

— السقف عال جدا ! .. ستقتل نفسك ! ..
ولقد انكسر البلاط المعطوب بقصف له نذير الشؤم ، ولم يمهل الرجل لاتمام صرخة الهلع التى اطلقها ، اذ تهشمت جمجمته على الارض الاسمنتية ولقى مصرعه على الاثر ...
كان هذا الحادث البشع ، مقترنا بمصرع ضابط الحرس الشاب عند نافذة ريميديوس الجميلة ، هو مصدر الاعتقاد الذى ساد على الاثر ، بأن جمالها الطاغى يجلب الموت ... ومن ثم تخلت أورسولا عن قلقها على الفتاة ورقابتها الدائمة لها وتركتها لمصيرها ، خصوصا بعد مولد الحفيد الاصغر جوزيه اركاديو وما نذرته أورسولا من السهر على تربيته ليكون من رجال الدين .. هكذا مضت ريميديوس الجميلة تهيم فى بيداء وحدتها واعتزالها ، تنضج فى أحلام بغير كوابيس ، وتواصل حماماتها التى لا تنتهى ، وتتناول طعامها دون التزام بأى موعد ، مستسلمة لصمتها الذى لا تعروه ذكريات — الى أن جاء يوم وقفت فيه فرناندا فى الحديقة تطوى ملاءاتها طالبة مساعدة نساء البيت ... وما كادت تبدأ حتى لاحظت أمارانتا أن ريميديوس الجميلة يغطيها شحوب بالغ ، فسألتها :
— هل تشعرين بأى انحراف ؟ ..
فأجابت ريميديوس الجميلة بابتسامة رائية وهى ممسكة بطرف الملاءة :
— بالعكس ... انا فى أحسن حال ...
وما أن فاهت بهذا الرد حتى شعرت فرناندا بلفحة هواء وضياء جذبت الملاءة من يدها ودفعت وسطها الى أعلى ... وشعرت أمارانتا بدورها برفرفة خفية فى اشرطة جونلتها حتى حاولت أن تشد قبضتها على طرف الملاءة لئلا تقع ، فى اللحظة التى بدأت فيها ريميديوس الجميلة ترتفع ... وكانت أورسولا التى كاد بصرها يذهب تماما فى ذلك الحين من الهدوء بحيث فهمت طبيعة لفحة الهواء والضياء هذه وتركت الملاءة تحت رحمتهما وهى تراقب ريميديوس الجميلة تلوح مودعة فى وسط الملاءة الخفاقة التى ارتفعت معها ، مخلفة وراءها بيئة الهوام والزهور ، صاعدتين فى الهواء الى ان غابتا عن الانظار فى أطباق الجو ، الى حيث لا تدركهما حتى أطيار الذكريات ...
ولقد فكر الخارجون عن نطاق البيت بالطبع أن ريميديوس

الجميلة قد انتهت النهاية المحتومة لملكة نحل ، وأن أسرتها انما حاولت بتسريب حكاية الارتفاع عن الارض تلك ، انقاذ شرفها ... اما فرناندا التى كانت تحترق حسدا لمنافستها فى الجمال فقد تقبلت هذه المعجزة فى النهاية ، وظلت وقتا طويلا وهى تبتهل وتصلى عسى أن تعاد اليها ملاءتها الثمينة !! .. وقد صدق اكثر الناس المعجزة ، ومنهم من ذهبوا يضيئون الشموع تبركا ...

الفصل الثانى عشر

أصرت أورسولا بعناد شديد على أن تختص هى بتربية حفيدها الاصغر « جوزيه اركاديو » تربية دينية تؤهله للترقى فى مراتب الكهنوت العليا الى ذروتها ، وبذلت فى هذا اقصى الجهد على الرغم من اشرافها على المائة عام وانطماس بصرها تماما ، وان كان لها من حدة حواسها الاربع الاخرى وبأسها الماضى الطويل طوع لها أن تمضى فى حياتها العائلية كالمبصرين — الى حد ما ... ثم جاء الوقت الذى اخذوا يستعدون فيه لارسال « جوزيه اركاديو » الى المدرسة العليا ... وفى نفس الوقت كانت أخته « ميم » الموزعة بين صرامة فرناندا واحقاد أمارانتا تستعد هى ايضا لارسالها الى مدرسة الدير ، حيث تؤهل أثناء تعليمها للتفوق فى العزف على « الكلافيكورد » ...

وأما أبوهما أورليانو الثانى فما لبث أن عاد الى حياته اللاهية العابثة ، فامتلأ البيت من جديد بالسكارى يسكبون الشمبانيا بغير حساب ، وبعزف « الاكورديون » يتردد صداه بلا انقطاع ، حتى لم تتمالك أورسولا أن تمنت الموت لكى يريحها من اثقال هذا « البيت المجنون » ، على حد تعبيرها ...

ثم حل اليوم المحدد لرحيل « جوزيه اركاديو » الى المدرسة العليا ، فبدا هادئا رصينا لا يذرف دمعا ، وظل كذلك طوال وليمة الغداء الوداعية التى أقيمت لهذه المناسبة ، وفى خلالها كانت الاسرة تتكلف السكينة والمرح ، ولكن ما أن نقلت حقيبة أمتعته الى الخارج حتى بدا لهم وكأن تابوتا يحمل الى خارج البيت ... وكان الوحيد الذى ابى أن يشارك فى الوداع هو الكولونيل أورليانو بويندا

المعتزل الا من العكوف فى صومعة السبك على صنع أسماكه الذهبية الصغيرة قتلا للوقت وزهدا فى كل شىء حتى الحياة ذاتها ، اذ غمغم يقول :

— كاهن ! .. كأن هذا هوكل مانحتاج اليه !..

وبعد ثلاثة شهور صحب أورليانو الثانى وفرناندا ابنتهما «ميم» الى المدرسة ، وعادا ومعهما معزف « الكلافيكورد » الذى وضعاه فى مكان البيانولا ... وحوالى هذه الفترة بدات أمارانتا تخيط قماش كفنها .. واقترن ذلك بفتور «الحمى» التى جاءت بها شركة زراعة الموز فى المنطقة ، وبعد أن وجد سكان ماكوندو القدامى أنفسهم محاطين بأفواج لغرباء الوافدين ، مما دفعهم الى الاستمساك بمواردهم المحدودة التى كانت لهم منذ الازمان الخوالى ، ولكن كان عزاؤهم على اى حال انهم استطاعوا الصمود والنجاة فى خضم هذا الغرق الاكبر ... أما فى البيت الكبير فكان الضيوف مايزالون يتوافدون لتناول الغداء ، ولم يتمكن أصحابه من استعادة أنماط حياتهم القديمة الا بعد رحيل شركة الموز بعد ذلك بسنوات ... ومع ذلك فقد طرات تغييرات أساسية على نظم الضيافة القديمة ، لان فرناندا هى التى اضطلعت الآن باقرار نظمها الجديدة ... فانه بتنحية أورسولا الى الخلف بعد أن طعنت فى السن وفقدت البصر ، وبانهماك أمارانتا فى اعداد لفائف الكفن ، فقد تهيأت لملكة الكرنفال الحرية فى اختيار الضيوف وفرض النظم والتقاليد المنقولة عن أبويها ... ولقد جعلت صرامتها من البيت مثابة للعادات والتقاليد القديمة فى بلدة روع أهلها بالسفاهة التى كان الغرباء الوافدون يبعثرون بها أموالهم ... وكان أفاضل الناس عندها هم أولئك الذين لا صلة لهم بشركة الموز ... وحتى جوزيه أركاديو الثانى شقيق زوجها لم يسلم من هذا التغيير ، اذ اضطر الى التخلى عن هواية مصارعة الديكة مرة أخرى والالتحاق بالعمل كرئيس عمال فى شركة الموز ... وفى هذا قالت فرناندا :

— لا يصح بعد هذا أن يعود الى البيت ، طالما انتقلت اليه لوثة الاغراب ...

على هذا الصورة فرض التشدد فى البيت الى حد أن أورليانو الثانى أحس أنه اوفر راحة عند بيترا كوتيس .. أولا ، بدعوى رفع العبء عن زوجته والتخفيف عنها ، فقد نقل مقر ولائمه وحفلاته

من البيت الكبير ... وثانيا ، بدعوى ان مواشيه بدات تفقد خصوبتها ووفرتها ، فقد نقل اسطبلاته وملحقاتها ... وثالثا ، بدعوى أن حرارة الطقس اخف فى بيت عشيقته ، فقد نقل مكتبه الصغير الذى كان يباشر فيه أعماله ... وعندما أدركت فرناندا أنها أرملة لم يتوف زوجها بعد ، كان الوقت قد فات لكى تعود الامور الى حالتها السابقة ... وأصبح أوريليانو الثانى لا يأكل فى بيته الا لماما ، وكانت المظاهر القليلة التى حاول أن يستر بها موقفه ، مثل النوم فى فراش الزوجية ، من الندرة بحيث لا تقنع أحدا ... وذات ليلة طلع عليه النهار ، بعامل الاهمال ، وهو فى مخدع بيترا كوتيس ... بيد أن فرناندا ، بعكس كل التوقيات ، لم تبد أى استياء ، وانما أرسلت فى نفس اليوم صندوقين كبيرين مملوءين بملابسه الى دار عشيقته ... ولقد أرسلتهما فى رائعة النهار ، وحرصت على أن يكون المرور بهما فى وسط الشارع ، حتى يستطيع كل انسان رؤيتهما ، ظنا منها بأن زوجها الآبق لن يقوى على احتمال هذا العار ويبادر بالعودة الى الحظيرة مطأطىء الرأس ... ولكن هذه البادرة البطولية من جانب فرناندا كانت مجرد برهان آخر على مبلغ جهلها بطباع زوجها ، الذى ابتهج بهذه الحرية التى جاءت اليه تسعى ، باقامة حفلة دامت ثلاثة أيام ... وفى مواجهة هذه الفترة من حياة الزوجية التى التزمت فيها فرناندا بملابسها القاتمة الطويلة وحليها العتيقة وترفعها النابى عن المكان ، بدت العشيقة وهى تكاد تتفجر بشباب متجدد ، بملابسها الحريرية الزاهية وعينيها البارقتين بوميض الظفر والتشفى ... وهكذا أسلم أوريليانو الثانى نفسه اليها بعنفوان الفتوة والمراهقة .. وكان ينحر بلا حساب عديد الابقار والخنازير والدجاج من اجل ولائمه المتلاحقة حتى اسود الحوش ملطخا بالدم والوحل وتكدست فيه العظام والامعاء ، الى حد أنهم كانوا يفجرون الديناميت فى كل وقت ابعادا للجوارح المنقضة لئلا تفقأ اعين الضيوف !..

ولقد أصبح أوريليانو الثانى بدينا ، مورد الوجه ، مكورا كسلحفاة بحرية ، بسبب شهيته التى لا يباريه فيها أحد ... بل ان شهرته كمضياف كبير ومبذر اكبر تجاوزت حدود اقليم المستنقعات واجتذبت الى دار عشيقته الاكوليين من الاقاليم الساحلية ، فتوافد مشاهيرهم الى الدار للمساهمة فى تلك الولائم الخرافية التى كانت

تدور فيها المباريات بينهم ، كان فيها أوريليانو الثانى الفارس المجلى والاكول الذى لا يشق له غبار ... وظل الحال كذلك الى أن جاءت الساعة المحتومة التى اصيب فيها أوريليانو الثانى بتخمة عاتية أفقدته الوعى وبدا أنه ملاق حتفه بسببها ... ولم يتمالك فى بارقة صحو عابرة أن غمغم :

ــ خذونى الى فرناندا ...

وهكذا حمله أصحابه الى البيت الكبير ظنا منهم بأنهم قد ساعدوه على تحقيق وعده لزوجته بألا يموت فى فراش عشيقته .. وبادرت بيترا كوتيس الى « تلميع » حذائه الفاخر الذى كان يريد لبسه فى تابوته ، وأخذت تفكر فيمن ترسله بالحذاء ، عندما جاءوها ليقولوا أنه نجا من الخطر ... والواقع انه ثاب من غاشية التخمة فى أقل من أسبوع ، وبعد أسبوعين كان يحتفل بنجاته من الموت بولائم لم يسبق لها مثيل ... واستمر يعيش مع بيترا كوتيس ، بيد أنه كان يزور فرناندا كل يوم ، وكان أحيانا يبقى ليأكل مع الاسرة ، وكأن القدر قد عكس الموقف ، وجعله زوج العشيقة ، وعشيق الزوجة ! ...

كان ذلك بمثابة راحة لفرناندا ... وفى غمرة الملل أثناء هذا الهجر ، كانت تسليتها الوحيدة دروس « الكلافيكورد » وقت القيلولة والرسائل التى كانت تكتبها لولدها وابنتها ... والحق أن جميع الرسائل المطولة التى كانت تبعث بها كل أسبوعين ، لم تتضمن سطرا واحدا ينطوى على الصدق ... فقد حرصت على اخفاء متاعبها عن ولديها ... وكانت تهيم وحدها بين الاشباح الثلاثة الحية فى البيت الكبير وشبح « جوزيه أركاديو بويندا » مؤسس الاسرة الراحل والذى كانت أورسولا كثيرا ماتعرج على مكانه تحت شجرة الكستناء تتحدث وتناجى وتنفض متاعبها وأحزانها وكأنه لايزال على قيد الحياة ! ..

وكان أشد ما يقلق فرناندا فى سنوات الهجر تلك هو خشيتها من عودة « ميم » فى أجازتها السنوية الاولى فلا تجد اباها أوريليانو الثانى فى البيت .. ولكن الوعكة التى نزلت به وضعت حدا لهذا التخوف .. فعندما رجعت « ميم » كان الاتفاق قد تم بين الاثنين على أن يكون أوريليانو الثانى موجودا فى البيت كزوج مثالى ، وعلى ألا تلاحظ الصبية شيئا من علائم الكآبة المخيمة على البيت ..

وعلى مدار شهرين من كل عام كان أوريليانو الثانى يقوم خير قيام بدور هذا الزوج المثالى ، ويقيم حفلات لها تقدم فيها الحلوى وبدور فيها عزف « الكلافيكورد » ... وقد بدا جليا منذ ذلك الحين أن الصبية لم يخالطها ذلك المزاج الانطوائى الذى كان طابع الاسرة وأنها على وئام مع دنياها بغير عقد ولا أشجان ، وقد تجلى هذا فى عكوفها على « الكلافيكورد » فى فترة القيلولة تتدرب على « الكلافيكورد » ، وعلى ترحيبها بصحبة الشباب الذين كان مقدمها يجىء بهم الى البت ـ الامر الذى كان يوحى بأنها لم تكن بعيدة عن التطبع بطباع والدها المنبسطة السخية ... وكانت أول علامة على هذا الميراث المحفوف بالكوارث هو قدومها الى البيت الكبير فى اجازتها السنوية الثالثة برفقة أربع راهبات واربعين من زميلاتها فى الدراسة اللاتى دعتهن من تلقاء نفسها الى قضاء أسبوع مع أسرتها ودون سابق اخطار ! ...

ان فرناندا لم تتمالك أن هتفت نائحة :

ـ يا للفظاعة ! .. ان هذه الطفلة همجية مثل أبيها !..

ولم يكن هناك مفر من اقتراض أسرة وأراجيح نوم من الجيران ، وتخصيص تسع نوبات للجلوس الى مائدة الطعام ، وتحديد مواعيد للاستحمام ، واقتراض أربعين مقعدا خشبيا صغيرا حتى لا تقضى الفتيات طوال نهارهن وهن يجرين من مكان الى مكان .. كانت هذه الزيارة فى الواقع فشلا ذريعا ، لان التلميذات الصاخبات كن لا يفرغن من طعام الافطار حتى تتخذ الاستعدادات لطعام الغداء ، ثم للعشاء ، وفى مدى الاسبوع كله لم يتسع لهن الوقت لزيارة مزارع الموز سوى مرة واحدة .. وعند حلول الليل كانت الراهبات يغلبهن الاعياء ويعجزن عن كل أمر أو نهى ، فى حين تبقى الفتيات المتوثبات فى الحوش يرددن الاناشيد المدرسية بنغم كله نشاز ... وذات مرة كدن يدسن أورسولا بأقدامهن لاعتراضها الطريق وهى تظن فى ظلمة بصرها أنها تخدم وتفيد. .. ومرة أخرى كادت أمارانتا أن تثير الفزع عندما دخلت احدى الراهبات عليها فى المطبخ وهى تضع الملح فى الحساء ، وكان أول ماخطر لها أن تقوله هو السؤال عن نوع ذلك المسحوق الابيض الذى تضعه ، فردت أمارانتا بكلمة واحدة :

ـ زرنيخ ! ..

وعلى الرغم من أن بعضهن أصبن بالحمى وبلذعة البعوض ، ألا أنهن أبدين روح الجلد الوافر وهن يقاومن أشد المصاعب ، وحتى فى خلال فترات الحر الملهب كن يلهون ويتواثبن فى الحديقة .. وعند رحيلهن فى النهاية كانت الزهور مقطوعة ، والاثاث مكسورا ، والحوائط مغطاة بالرسوم والكتابة ، غير أن فرناندا سامحتهن بعد ارتياحها للرحيل ...

وفى خلال تلك الايام عاد « جوزيه أركاديو » الثانى الشقيق التوأم لرب البيت الى الظهور فيه .. لقد دلف فى المدخل دون أن يبتدر احدا بتحية ، واعتكف على الاثر مع الكولونيل أوريليانوبوينديا فى مسبك المعادن ... ولم يكن هذا التصرف مثار دهشة أورسولا عندما عرفت بحضوره من وقع خطى حذائه العمالى الثقيل، وهى التى عهدته متنائيا عن الاسرة ، مختلفا عن أخيه التوأم أوريليانو الثانى على الرغم من تشابه أطوارهما فى الصغر وبلبلة أفكار الاسرة والجيران بما كانا يقومان به من الخدع والاحابيل الماكرة التى يولدها هذا التشابه ... كان الآن مختلفا عن أخيه تماما ، أدنى الى النحول والجد والسهوم والوجوم ... ولم يكن أحد يعرف الآن دقائق حياته ... وفى فترة ما عرف أنه ليس له مقر معين ، وأنه يربى ديوك المصارعة فى بيت بيلار تيرينرا حيث ينام لديها أحيانا ... ولكنه كان يمضى أكثر لياليه متنقلا من مكان الى مكان ، دون أن تربطه مودة بأحد ، ودون ما أى هدف محدد ، وكأنه نجم شارد فى نظام أورسولا الكوكبى ...

ولقد حاولت أورسولا أن تستعين بجوزيه اركاديو الثانى لحمل الكولونيل أوريليانو بوينديا على الخروج من حبسه الاختيارى فى المسبك ، وفى هذا قالت له :

ـ اجعله يذهب الى السينما ... وحتى اذا كان لا يحبها ، فعلى الاقل سوف يتنفس بعض الهواء النقى ! ..

لكنها لم تلبث أن أيقنت أنه مثل الكولونيل تماما ، لا يعيرها أنفا صاغية ، وأن كليهما قد صيغ من معدن واحد لا تنفذ منه خوالج المودة والتآلف ... وعلى الرغم من أنها لم تكن تعرف لا هى ولا غيرها كنه تلك الاحاديث التى يتبادلانها فى المسبك ، الا أنها قدرت

أنهما العضوان الوحيدان فى الاسرة اللذان يبدو أن بينهمـا رابطة وثيقة ...

وحل اليوم الحادى عشر من أكتوبر والكولونيل لا ينسى هـذا اليوم ماعاش ، اذ هو اليوم الذى استيقظ فيه من نومه فوجـد زوجته ريميديوس قد فارقت الحياة فجأة وتركت له مرارة الذكريات ... ولكن « جوزيه أركاديو » الثانى لم يحضر للقائه فى المسبك كعادته أخيرا ، ثم تذكر أنه يوم دفع الاجور فى مزارع شركة الموز .. ثم بدا له أن يذهب الى الحمام ، فوجد أمارانتا قد سبقته اليه .. فعكف فى المسبك على صنع أسماكه الذهبية ، حتى اذا كـانت الساعة الرابعة سمع موسيقى بعيدة صـادرة عن آلات نحاسـية وطبول مقترنة بصياح أطفال ، ولاول مرة منذ شبابه وقع فى حنين الذكريات عندما تذكر بعض ظهر ذلك اليوم الذى صحبه فيه أبوه الى مضارب « الغجر » للفرجة على ألعابهم وغرائبهم ... وفى هذه اللحظة تركت سانتا صوفيا بيدال ما كان بيدها فى المطبخ وجرت الى الباب قائلة :

ـ هذا هو السيرك !..

ومن عجب أن الكولونيل أوريليانو بوينديا ذهب هو أيضا الى الشارع واختلط بالمتفرجين الذين كانوا يراقبون مرور الموكب ... فراى امراة مرتدية ملابس موشاة بالذهب جالسة على رأس فيل .. وراى دبا فى زى فتاة هولندية يواكب نغمات الموسيقى بمغرفة واناء حساء ... وراى « البهلوانات » يدورون فى الهواء فى آخـر الموكب ـ ومرة أخرى الفى نفسه فى وحدته المطبقة بعد ان مر الموكب كله ولم يبق أمامه سوى الشارع المهجور الا من بعض المتفـرجين المتسكعين ... فعاد الى الداخل وقصد الى الحوش للتبول تحت شجرة الكستناء ، وفى خلال ذلك حاول أن يستعيد ذكرى السيرك ولكنه لم يستطع ... فجلس واضعا راسه بين كتفيه مثل كتكوت ، وظل جامدا فى مكانه مسندا راسه الى جذع الشجرة ... ولم تعثر عليه الاسرة الا فى صباح اليوم التالى فى الساعة الحادية عشرة ، عندما خرجت سانتا صوفيا بيدال لالقاء القمامة ، فاسـترعى نظرها مشهد الجوارح المحلقة فوقه ...

الفصل الثالث عشر

تصادف وقوع أجازة « ميم » الاخيرة فى فترة الحـداد على الكولونيل أوريليانو بوينديا ، فان البيت الموصد الابواب والنوافذ ليس بالمكان الملائم لاقامة الحفلات ... كانوا يتكلمون همسـا ، ويأكلون سكوتا ، ويرددون الصلوات والادعية ثلاث مرات يوميـا ... وكانت فرناندا هى التى فرضت صرامة الحداد ، متأثرة بما أبدته الحكومة من تكريم لذكرى عدوها الراحل ... وعاد أوريليـانو الثانى للنوم فى البيت الكبير أثناء أجازة ابنته ، ولابد أن فرناندا قـد أوفت بمقتضيات الزوجية ، اذ وجدت « ميم » فى العـام التالى أختا لها وليدة تم تعميدها وتسميتها على خلاف رغبة فرناندا باسم « أمارانتا أورسولا » ...

لقد أتمت « ميم » دراستها ونالت دبلوما يقرر أنها عـازفة « كلافيكورد » متخصصة فى حفل رسمى اقترن بانتهـاء فترة الحداد ، وكان ذلك ايذانا باختتام مرحلة الطفولة وانتقالها الى مرحلة الشباب ... أما الحقيقة فان « ميم » التى كانت تعانى الامرين من تزمت امها وتحكمها فى كل تصرفاتها والتى كانت فى دخيلتها مطبوعة على حب المرح والانطلاق ـ لم تختر هذا التخصص الا استرضـاء للام ، خصوصا وأن الراهبات لم يمنعنه باعتباره ملهاة بريئة موروثة من الماضى ... وفعلا كان ذلك ثمنا لحريتها المنشودة ، اذ اصبحت فرناندا مزهوة ببراعة ابنتها فى العزف حتى لم تعد تمانع بعد انتهاء فترة الحداد فى استقدام صديقات « ميم » الى البيت وفى قضائهـا معهن لفترة بعد الظهر فى المروج والبساتين ، وفى ارتيـاد السـينما مع ابيها أوريليانو الثانى وبعض السيدات الفضليات طالما كان الفيلم المعروض مما يجيزه الاب انطونيو ايزابيل ... وفى خلال فترات الاسترواح هذه تكشفت ميول « ميم » على حقيقتها ... اذ كانت سعادتها قائمة على النقيض من تطرف أمها وانظمتها الصارمة : على الحفلات الصاخبة ، والثرثرة بأحاديث العشاق ، والخـلوات الطويلة مع صاحباتها حيث تعلمن التدخين ، وحيث امتدت أيديهن الى شراب مسكر من عصير القصب أفضى بهن الى التجـرد مـن الملابس واستعراض أعضاء الجسد فى تلك الخلوات ...

ان « ميم » لن تنسى قط تلك الليلة التى عادت فيها الى البيت بعد قضاء ساعتين مشهودتين فى مخدع صديقتها تضحكان بلا حساب وتذرفان الدمع من الخوف ، لتجد فرناندا وأمارانتا تتناولان طعام العشاء دون تبادل للكلام ... لقد راعها مشهدهما ذاك حتى بذلت جهدا كبيرا لئلا تصارحهما بحقيقة شعورها حيالهما وتقذف فى وجهيهما تزمتهما وفقر مشاعرهما وأوهام عظمتهما المصطنعة .. والواقع أن « ميم » عرفت منذ ثانية اجازة لها أن أباها يقيم فى البيت الكبير سترا للظواهر فقط .. ولمعرفتها بأطوار أمها ، فقد بدا لها أن أباها محق فى مسلكه ... ولم تتمالك فى جلستها هذه الى المائدة ورأسها يدور مما شربته أن بدرت منها ابتسامة خبث ودهاء اذ فكرت فى مدى الفضيحة التى كانت تحدث لو أنهـا صارحت الاثنتين بحقيقة خواطرهما ... واذا فرناندا التى فطنت لحالها تقول لها :

ـ ماذا جرى ؟..

فأجابت « ميم » :

ـ لا شيء .. اكتشفت الآن فقط الى أى حد احبكما !..

ان أمارانتا قد ريعت مما انطوى عليه هذا التصريح من كـره دفين ... أما فرناندا التى تأثرت به فقد كان جزعها هذه الليلة لا حدود له عندما استيقظت « ميم » فى منتصف الليل وهى تشكو من صداع حاد عنيف وقد غرقت فى القىء .. فسارعت الى اعطائها زيت خروع ووضعت « كمادات » على معدتها ومكعبات ثلج على رأسها ، وألزمتها الفراش مدى خمسة أيام كانت تقتصر فى خلالها على الغذاء الذى وضعه الطبيب الفرنسى الوافد والذى قرر بعد الفحص مدى ساعتين انها تشكو من داء غير معهود فى أمـراض النساء ... ولم يكن أمام « ميم » التى انهارت كل شجاعة كـانت عندها الا أن تصمد الى النهاية .. الا أورسولا التى كانت رغم عماها المطبق محتفظة بحيويتها وشفافيتها ـ فهى وحدها التى عـرفت حقيقة التشخيص ، اذ قالت :

ـ بقدر مايصل اليه علمى ، فان هذا هو مايحدث للسكارى ..

ورغم ذلك فانها نبذت هذه الفكرة ، بل انبت نفسها للتفـكير فيها ... أما أوريليانو الثانى فقد شعر بوخز الضمير عندما رأى حالة ابنته ، وأخذ على نفسه عهدا بأن يواليها برعايته فى المستقبل .

وهكذا كانت بداية تلك الصحبة الودودة بين الاب والابنة ، تلك التى خلصته الى حين من أثقال مجونياته ، وكفلت للفتاة أن تتحرر من عين فرناندا الدائمة اليقظة ، ودرأت عنهم جميعا تلك الازمات العائلية التى كان محتما أن تحدث فى المستقبل ... فـكان يصحبها الى السينما او السيرك ، وأخرجها من غرفة نومها الكالحة التى كانت حبيسة فيها منذ أول طفولتها ، وأعد لها غرفة نوم أخرى وثيرة الاثاث مزودة بكل أدوات التجميل والعطور للمرأة العصرية .. ولقد روعت فرناندا حقا عندما شاهدت هذا المخدع ، بيد أنهـا كانت موزعة الجهد فى تلك الايام بين رعاية طفلها الوليدة « أمارانتـا أورسولا » وبين أطباء خارج ماكوندو كانت تراسلهم سرا لاستشارتهم فى أمور صحية تعنيها ...

وهكذا فانها عندما لمست هذا التواطؤ وهذا التوافق بين الاب والابنة ، كان الوعد الوحيد الذى استخلصته منه هو ألا يأخـذ « ميم » أبدا الى دار بيترا كوتيس ... ولم يكن لهذا من موجب ، لان العشيقة كانت فى ضيق واستياء من هذه الصحبة بين عشيقها وابنته بحيث لم تكن تريد أن يكون لها شأن بالفتاة ... ولـكن لعلمها بطبيعة أوريليانو الثانى وفرط ثقتها فى مبلغ سلطانها عليه ، فانها لم تنفذ ما كان يخشاه من اعادة صندوقى ملابسه المتجولين الى البيت الكبير ، واستبقتهما لديها الى حين يعود اليها مستكينا متزلفا ...

وكان بين صديقات « ميم » ثلاث فتيات امريكيات نشأت صداقة بينهن وبين فتيات ماكوندو ... وكانت احداهن باتريشـيا براون ابنة مستر براون من مديرى شركة مزارع الموز ـ الذى أعرب عن امتنانه لما لقيه من كرم الضيافة فى بيت أوريليانو الثانى ، بدعوة « ميم » الى داره للمشاركة فى الحفلات الراقصة أيام الآحاد ، وهو المكان الوحيد الذى يختلط فيه الاجانب الوافدون بالاهلين .. ولكن ما ان سمعت فرناندا بهذا حتى هاجت وماجت واستنجدت بأورسولا لولا أن هذه رأت ، بعكس ماكانت فرناندا تتوقع ، انه لا مأخذ على « ميم » فى الذهاب الى الحفلات الراقصة الخاصة هذه ومصاحبة فتيات أمريكيات من سنها ... بل ان « ميم » خصصت حفـلا عزفت فيه على « الكلافيكورد » فاستأثرت بأشد الاعجاب ، مما هيأ للأم أن تهدأ فى النهاية وتطيب خاطرا ... وبعدها كانت تدعى

الى حفلات السباحة أيام الآحاد وتناول الغداء مرة فى الاسبوع . وقد أبدت براعة فى السباحة ولعب التنس وتعلم اللغة الانجليزية ، حتى أن أوريليانو الثانى ابتاع لها دائرة معارف انجليزية مصورة من ستة أجزاء كانت « ميم » تطلع عليها فى وقت فراغها ـ الامر الذى باعد بينها وبين الخلوات الماضية مع صاحباتها للثرثرة بأحاديث العشاق ومكاشفة بعضهن البعض بما لا يباح ... بل انها استنكرت مغامرة السكر الماضية وعدتها من قبيل الطفوليات ولم تتردد فى مكاشفة والدها بها ، فأغرق فى الضحك وامتدح شجاعتها فى الصدق ، وطلب منها وعدا بأن تخبره يوم أن تقع فى الحب بنفس الصراحة والصدق هذين ...

هكذا رد نضج « ميم » الوئام والسكينة الى البيت الكبير ، ومكن أوريليانو الثانى من أن يكرس وقتا أكثر لبيترا كوتيس ، وان غدا الآن أكثر اعتدالا بعد الوعكة الصحية التى ألمت به ...

ثم قطع هذه السكينة وفاة أمارانتا فجأة ... وسرعان ما عاد الاضطراب الى البيت الكبير ... وكانت « ميم » تعزف « الكلافيكورد » فى حفل خاص خارجى عندما أبلغت النبأ ، فقطعت الحفل وعادت بسرعة الى البيت ، لتجد والدها أوريليانو الثانى يشق طريقه بين جمهور المعزين ليلقى نظرة على جثة العذراء العجوز بوجهها المتقع الكالح ويدها المعصوبة بالسواد منذ مغامرتها الغرامية الفاشلة اثر انتحار بيترو كريسبى ، وقد سجيت فى الفراش ملفوفة فى الكفن الفاخر الذى تأنقت فى اعداده ...

ولم تعد أورسولا تقوم من مكانها مرة أخرى بعد أيام الحداد التسعة ، وتولت سانتا صوفيا بيدال العناية بها ... وكانت متعلقة بأمارانتا أورسولا الصغيرة حتى علمتها القراءة ... وفى اعتكافها هذا الذى فرضته المائة عام ونيف من عمرها ، تيسر لها من الفراغ ما أصبح يمكنها من التسمع والاحاطة بكل ما يدور فى البيت ، حتى كانت أول من لاحظ بلوى « ميم » الصامتة ... فاستدعتها اليها وقالت لها :

ـ نحن الآن وحدنا ، فاعترفى لجدتك الكبرى العجوز بما يقلقك ...

فتحاشت « ميم » الحديث بضحكة قصيرة ... ولم تلح عليها أورسولا ، ولكنها استخلصت ما أكد شكوكها بعد ان كفت « ميم » عن زيارتها .. كانت تعرف أن « ميم » تستيقظ فى ساعة أبكر فى

الصباح من عادتها ، وأنها لم تكن على استقرار وهى تنتظر ساعة الخروج المعهودة . وأنها كانت تمضى الليالى بطولها وهى تروح وتجىء فى غرفة النوم المجاورة ... وكان واضحا كل الوضوح أن « ميم » كانت منغمسة فى شئون خفية وأمور مقلقة قبل فترة طويلة من تلك الليلة التى أقامت فيها فرناندا البيت وأقعدته بعد أن ضبطتها تقبل رجلا فى السينما ...

والواقع أن فرناندا رغم انشغالها بشئونها الخاصة والبيتية لم تلبث هى الاخرى أن استرعى انتباهها انحياز « ميم » الى الصمت العميق ، وبوادر الحدة الفجائية ، واختلال المزاج ، والسلوك المتناقض من جانب فتاتها ، حتى قررت فى النهاية أن تسهر عليها وتراقبها سرا .. وقد توسلت فى هذا بالحذر حتى لقد تركتها تمارس حريتها المحدودة فى الاختلاف الى حفلات الرقص والسباحة لكى لا تثير ارتيابها ... الى أن كانت ليلة قالت فيها « ميم » انها ذاهبة الى السينما مع أبيها ... ولكن لم تمض فترة قصيرة حتى سمعت فرناندا صخب احدى الحفلات التى درج زوجها أوريليانو الثانى على اقامتها فى بيت عشيقته بيترا كوتيس مقترنة بقصف الالعاب النارية وعزف الاكورديون .. وسرعان ما قامت فرناندا الى ملابسها وقصدت من فورها الى دار السينما ، واستطاعت فى ظلام القاعد أن تعرف ضحك ابنتها .. أن وقع المفاجأة على نفسها حال دون أن تتبين الرجل الذى كانت ابنتها تقبله ، ولكن صوته المتهدج سرى الى سمعها رغم جلبة الضحك واللغط وهو يقول لها :

ـ أنا آسف ياحبيبتى !..

وفى الحال انتزعت « ميم » من مكانها دون أن تقول شيئا . وعرضتها لمهانة المرور بها فى الشارع تحت أنظار أصحاب الدكاكين . ثم حبستها فى غرفة نومها ...

وفى الساعة السادسة من بعد ظهر اليوم التالى عرفت فرناندا صوت الرجل الذى جاء لزيارة « ميم » ... كان شابا أسمر شاحبا ، تشف عيناه السوداوان عن الاكتئاب : وتشيع فى وجهه سمات حالمة تكفى لكى تجعل أية امرأة أقل صلابة من فرناندا تفهم بواعث ابنتها فى التعلق به ... وكان يرتدى بذلة رثة من التيل وحذاء لم يفلح الطلاء المتراكم فى اخفاء ترقيعه ، وقبعة من الخوص اشتراها منذ عهد قريب .. وبدا أنه فى كل حياته الماضية لم يشعر

بوجل ورهبة كالذين كان يشعر بهما فى هذه اللحظة ، ولكن كان به من الكرامة والاعتداد ما نفى عنه المهانة ، وان نال منهما ، بدا من تلوث يديه واظافره بآثار قدرت منها فرناندا أنه ليس أكثر من ميكانيكى ... وقد صح ظنها اذ لمحت فى صدر قميصه شارة العاملين فى شركة الموز ...

ومهما يكن فان فرناندا لم تدع له فرصة للكلام ... بل انها لم تدع له سبيلا حتى للدخول من الباب ـ الذى اضطرت بعد قليل الى اغلاقه اذ امتلأ البيت بفراش أصفر ...

قالت له :

ـ اذهب ! ... لا حق لك فى الحضور وزيارة الناس الشرفاء !..

كان يدعى موريشيو بابيلونيا .. ولد ونشأ فى ماكوندو وعمل مساعد ميكانيكى فى جراجات شركة زراعة الموز ... وقد التقت به « ميم » مصادفة عصر يوم عندما ذهبت مع صاحبتها باتريشيا الامريكية لاستحضار سيارتها للنزهة بين البساتين .. ولما كان السائق الخاص مريضا فقد تهيأت الفرصة لميم لجلوسها الى جانب موريشيو بابيلونيا وتلقى الدرس الاول فى تعليمها قيادة السيارات ... ثم تلته دروس أخرى ...

ويوم أن ذهبت « ميم » الى السينما مع والدها شاهدت موريشيو بابيلونيا جالسا فى مقعد غير بعيد ، ولاحظت أنه ظل طول الوقت منصرفا عن متابعة الفيلم ، متجها بكليته نحوها ...

لقد صعقها هذا الشاب واكتسح قلبها اكتساحا .. ولم تعبأ بوضعه المتواضع ... وتكررت لقاءاتهما بمعزل عن أعين الرقباء .. وانما استرعى نظرها تلك الفراشات الصفراء التى كانت تحلق لدى ظهور موريشيو بابيلونيا ، ولكنها قدرت أن لها ارتباطا به على نحو ما ...

وتكررت اللقاءات ، والخلوات ، على مدار الايام والاسابيع ، الى أن كانت تلك الليلة التى فاجأتهما فرناندا فيها فى دار السينما ..

فى أعقابها شعر أوريليانو الثانى بوقر باهظ يثقل ضميره ، وزار « ميم » فى غرفة نومها حيث حبستها فرناندا ، واثقا أن « ميم » سوف تكاشفه بسرها على ماتعاهدا عليه .. بيد أنها أنكرت كل شىء

... وأبدت من التباعد ماجعله يرى أن كل رابطة بينهما قد انتهت ، وأن ماحسبه صحبة ومشاركة بينهما انما كان وهما مضى .. وهكذا ترك الموقف كما هو ، على أمل أن احتجازها فى غرفة النوم سوف يكون فيه ختام متاعبها ...

ولم يبدر من ناحية « ميم » ما ينم عن أى ابتئاس ... وكان الشىء الوحيد الذى حير أورسولا بعد شهرين من العقاب هو أن « ميم » لم تعد تأخذ الحمام فى الصباح مثل الباقين ، بل فى السابعة مساء ... وكانت الظاهرة الغريبة هى أن الفراش الاصفر كان يجتاح البيت عند الاصيل ... وفى كل ليلة عندما كانت « ميم » تعود من الحمام كانت ترى فرناندا فى حالة حنق وهى تقتل الفراش بمبيد حشرى ... وكانت تسمعها تقول :

ـ هذا شىء فظيع ! ... سمعتهم طول حياتى يقولون أن الفراش فى الليل ، يجلب الشر !..

وذات ليلة دخلت فرناندا الى غرفة « ميم » بينما كانت فى الحمام فوجدتها مملوءة بالفراش الى حد عجزت معه عن التنفس .. فاختطفت اقرب قطعة قماش أمامها لهش الفراش ، واذا قلبها يكاد يجمد من الرعب ، اذ سرعان ما ربطت بين حمامات ابنتها المسائية وبين دواء الاجهاض الذى تدحرج من القماش على الارض ..

لم تنتظر فرناندا لحظة أخرى ... وفى اليوم التالى دعت عمدة ماكوندو الجديد لتناول الغداء ، وكان مثلها من اقليم المرتفعات وقد طلبت منه ان يقيم حارسا على الحوش الخلفى لشكها فى وجود لصوص يسرقون الدجاج ... وفى نفس الليلة صرع الحارس موريشيو بابيلونيا برصاصة وهو يرفع البلاط للتسلل الى الحمام حيث كانت « ميم » تنتظره على أحر من الجمر غير عابئة بالعقارب والفراش ، كما كانت تفعل كل ليلة طوال الاشهر القليلة الماضية .. أن الرصاصة التى استقرت فى عموده الفقرى أقعدته الفراش بقية حياته ... وقد مات بالشيخوخة فى عزلته دون أن يبوح بشىء ، تعذبه الذكريات والفراش الاصفر ، مدموغا بأنه لص دجاج ..

الفصل الرابع عشر

ان الاحداث التى كان مقدرا ان توجه الى ماكوندو ضربة قاصمة لم تلبث ان بدت بواكيرها حينما جيء بمولود « ميم بويندیا » الى البيت الكبير ...

كان الموقف الشعبى مزعزعا الى حد ان الناس لم يكن لديهم الاستعداد الكافى للزج بأنفسهم فى فضائح شخصية ، وهكذا استطاعت فرناندا ان تعتمد على جو عام مكنها من ابقاء الطفل مخفيا عن العيان وكأنه لم يوجد قط ... ولقد اضطرت الى قبوله لان الظروف التى جيء به فيها جعلت رفضه أمرا مستحيلا ... ولم يكن امامها مناص من احتماله ضد ارادتها طوال حياتها ، اذ أعوزتها الشجاعة فى اللحظة الفاصلة لتنفيذ ما اعتزمته من اغراق الطفل فى صهريج الحمام ... وكذلك أغلقت عليه الباب فى مسبك الكولونيل أوريليانو بويندیا .. وقد أفلحت فى اقناع سانتا صوفيا بيدال بأنها وجدته فى سلة طافية فى النهر ... ولسوف تموت أورسولا قبل أن تعرف منشأه .. وصدقت « امارانتا اورسولا » الصغيرة التى دخلت عليها المسبك وهى تطعم الطفل هى أيضا حكاية السلة الطافية ... ولم يعرف اوريليانو الثانى الذى انفصل عن زوجته نهائيا بوجود حفيده الا بعد ثلاث سنوات من المجيء به الى البيت الكبير ، اثر فرار الطفل من الاسر نتيجة سهو من جانب فرناندا ، حين ظهر فى مدخل البيت الكبير مدى لحظة خاطفة عارى الجسد ملبد الشعر كمخلوق متوحش ... وما كان لفرناندا أن تغالط نفسها وهى تعلم ان الطفل يمثل عارا حسبت انها تخلصت منه الى الابد اذ اقصت ابنتها عن البيت ...

فعندما حملوا موريشيو بابيلونيا من البيت وقد تحطم عموده الفقرى ، وضعت فرناندا خطة رتبت تفاصيلها بكل دقة مستهدفة ازالة كل أثر لتلك الكارثة .. ودون ما استشارة لزوجها حزمت حقائبها ووضعت لابنتها الملابس الضرورية فى حقيبة صغيرة وذهبت اليها فى غرفة نومها قبل وصول القطار بنصف ساعة وقالت لها :

ـ هيا بنا ...

لم تُبادرها بأى بيان أو تفسير ... ومن ناحية « ميم » فانها لم

تتوقع غير هذا ... انها فقط لم تعرف الى أين تذهبان ، بل كان سيانا لديها لو كانوا سيذهبون بها الى المجزر .. انها لم تفه بكلمة واحدة ولن تفوه بكلام مدى حياتها ، منذ اللحظة التى سمعت فيها صوت العيار النارى فى الحوش وصيحة الالم التى اقترنت بها صادرة من موريشيو بابيلونيا ... وعندما أمرتها أمها بالخروج من غرفة نومها لم تمشط شعرها ولم تغسل وجهها ، ودلفت معها الى القطار وهى تمشى كمن يمشى فى نومه ، ولم تلاحظ حتى الفراش الاصفر الذى ما فتىء يصاحبها ... ولم تعرف فرناندا قط ولا حاولت أن تعرف ان كان ذلك الصمت المطبق وليد تصميم جازم أو ان الفتاة قد أصيبت بالخرس من وطأة الفاجعة ... وظل ذلك حالها أثناء الرحلة الطويلة فى القطار وفى السفينة النهرية التى أقلتهما الى تلك المدينة البعيدة القائمة وراء التلال ... وغداة وصولهما صحبتها فرناندا الى مبنى قاتم عرفت فيه « ميم » الدير الذى ربيت فيه لكى تصبح ملكة ، وعندها فقط ادركت أنهما وصلتا الى خاتمة المطاف .. وبينما كانت فرناندا مجتمعة بشخص فى المكتب المجاور ، وقفت « ميم » تنتظر فى بهو الاستقبال وهى لا تكف عن التفكير فى موريشيو بابيلونيا ، الى ان أقبلت راهبة مبتدئة موفورة الحسن من غرفة المكتب وبيدها حقيبة ملابسها الصغيرة ، فأخذت بيدها دون توقف قائلة :

ـ تعالى معى ...

وكانت آخر مرة رأتها فيها فرناندا وهى تمشى الى جانب الراهبة عندما أغلق الباب الكبير خلفها ... وفى كل ذلك لم تكف « ميم » لحظة عن التفكير فى موريشيو بابيلونيا وهالة الفراش التى تلاحقه ، ولن تكف عن هذا التفكير طوال حياتها ـ حتى ذلك اليوم البعيد من أيام الخريف عندما توفيت بالشيخوخة وقد تغير اسمها وحلق شعرها ودون ما كلمة واحدة فاهت بها ـ فى مستشفى قاتم بمدينة كراكاو ...

وعادت فرناندا الى ماكوندو فى قطار يحرسه جنود البوليس المسلحون ... ولاحظت أثناء الرحلة جو التأزم الذى كان يسود الركاب ، والاستعدادات العسكرية فى البلدان القائمة على طول الطريق ، مما استشفت منه قرب وقوع أحداث خطيرة .. بيد أنها لم تعرف حقيقة الموقف الا عند وصولها الى ماكوندو ، حيث علمت

أن جوزيه أركاديو الثانى شقيق زوجها التوأم يقوم بتحريض عمال شركة زراعة الموز على الاضراب ... فلم تتمالك فرناندا أن قالت لنفسها :

ـ هذا ما كان ينقصنا .. فوضوى فى العائلة !..

والواقع أن جوزيه أركاديو الثانى كان بعد المصادمات الاولى بين الشركة الأجنبية وبين العمال المطالبين بتحسين أوضاعهم الاجتماعية قد استقال منها منضما الى جانب العمال ... وعلى الاثر اتهم بانه عميل لمؤامرة دولية ضد الامن القومى .. وذات ليلة فى أسبوع اتسم بالشائعات المبلبلة للأفكار نجا بمعجزة من أربع رصاصات أطلقها عليه مجهول وهو يغادر أحد الإجتماعات السرية .. وكان الجو السائد طيلة الشهور التالية بالغ التأزم الى حد أن أورسولا احست به حتى وهى فى ركنها المظلم بالبيت الكبير ، وبدا لها أنها تعيش مرة أخرى فى حياة المخاطر عندما سلك ابنها الكولونيل أوريليانو بويندا .. مثل هذه المسالك المهلكة ... وقد حاولت أن تكلم جوزيه أركاديو الثانى ناصحة محذرة ، غير أن أوريليانو الثانى أخبرها أن أحدا أصبح لا يعرف مكانه منذ الليلة التى تعرض فيها للاعتداء على حياته ... فما كان من أورسولا الا أن هتفت قائلة :

ـ مثل أوريليانو تماما !.. كأن التاريخ يعيد نفسه !..

أما فرناندا فكانت معرضة عن أحداث تلك الايام ... فلم يكن لها أى اتصال بالعالم الخارجى منذ تلك المشادة العنيفة التى حدثت بينها وبين زوجها بعد أن قررت وحدها مصير ابنتها بادخالها الدير ... وكان أوريليانو الثانى على استعداد لانقاذ ابنته بمساعدة البوليس اذا لزم الامر ، بيد أن فرناندا اطلعته على أوراق تثبت أن « ميم » دخلت الدير بمحض ارادتها الحرة ... والواقع أن « ميم » وقعت مرة على وثيقة تتضمن هذا المعنى ، وقد فعلت هذا بنفس اللامبالاة التى كانت منها عندما اقتيدت الى هذا المصير ... ومع أن أوريليانو الثانى لم يؤمن بمصداقية هذا الاجراء وشرعيته ، الا أنه وجد فيه ما يريح ضميره ، لكى يعود دون مؤاخذ من ضمير الى حظيرة بيترا كوتيس والى لياليه وحفلاته الصاخبة الماجنة ... وأما فرناندا التى اعارت أذنا غير صاغية لقلاقل البلدة وتنبؤات أورسولا المتوجسة ، فلم تلبث أن مضت فى خطتها الشاملة الى النهاية ، اذ كتبت الى ابنها « جوزيه أركاديو » البعيد فى المدرسة العليا والذى كان يوشك على

التخرج فى دراساته اللاهوتية تبلغه فيها أن أخته « ميم » قد توفيت الى رحمة الله نتيجة لعدوى وبائية ... ثم عهدت بابنتها الصغيرة « أمارانتا أورسولا » الى رعاية سانتا صوفيا بيدال جدتها ... وبعد ذلك تفرغت لمراسلاتها مع أطبائها الخصوصيين طالبة تحديد موعد لاجراء عملية استئصال لذلك الورم الذى شخصوه فى الرحم .. غير أنهم ردوا عليها مستصوبين أرجاء العملية بالنظر الى حالة الاضطرابات المستبدة فى ماكوندو ... ولكنها عادت تخبرهم فى رسالة جديدة أن الموقف ليس بالخطورة التى تصوروها ، وأن كل مايحدث هو نتيجة تهوس من جانب شقيق لزوجها تورط فى هذه الاعمال بعد أن كان يضيع وقته فى مصارعة الديوك وما الى ذلك من العبث ...

وظلت الشهور تمضى وفرناندا فى هذا التعارض بينها وبين الاطباء الى أن جاء ذلك الاربعاء الحار الذى أقبلت فيه راهبة مسنة تطرق الباب ومعها سلة صغيرة ... وعندما فتحت سانتا صوفيا بيدال الباب حسبت القادمة تحمل هدية وحاولت أن تأخذ منها السلة الصغيرة التى كانت مغطاة بمفرش مطرز جميل ... غير أن الراهبة حالت دونها قائلة أن عندها تعليمات دقيقة بأن تعطى السلة شخصيا وبصورة سرية الى « الدونا فرناندا ديل كاربيودي بونديا » .. كان فى السلة ابن « ميم » المولود ... وقد أبلغتها رئيسة الدير ومربيتها الروحية السابقة فى رسالة خاصة أنه ولد منذ شهرين ، وأنهم تصرفوا من تلقاء أنفسهم فسموه أوريليانو ، باسم جده ، نظرا لان أمه لم تفتح فمها لتخبرهم برغبتها فى هذا الشأن ... ولقد ثارت فرناندا فى دخيلتها ضد هذه الخدعة القدرية ، بيد أنها سيطرت على أعصابها لاخفاء شعورها عن الراهبة ، وقالت لها باسمة :

ـ سنقول لهم أننا وجدناه فى سلة طافية فى النهر ...

فقالت الراهبة :

ـ لن يصدق أحد هذا ...

فردت فرناندا قائلة :

ـ اذا كانوا قد صدقوه فى الماضى ، فلم لا يصدقونه الآن ؟!..

وتناولت الراهبة طعام الغداء فى البيت انتظارا لعودة القطار . وعملا بالتوجيهات التى صدرت اليها ، لم تذكر شيئا عن الطفل . ولكن فرناندا عدتها شاهدا غير مرغوب فيه على عارها ، وتحسرت على انقراض تلك العادة التى كانت متبعة فى العصور الوسطى :

من شنق الرسول الذى يحمل أنباء مشئومة !.. وعند هذا الحد قررت أن تغرق الطفل فى الصهريج حالما ترحل الراهبة ، غير أن قلبها لم يكن بهذه القوة ، وآثرت أن تنتظر صابرة الى أن تسنح لها الفرصة المواتية للخلاص منه ...

وكان أوريليانو الصغير قد أتم العام الاول من عمره عندما اشتدت الازمة بين العمال وبين شركة زراعة الموز الى حد اعلان الاضراب الذى تطور الى اعمال للعنف واتلاف للمزارع ... وبقى الموقف على تأزمه حتى أصدرت السلطات المحلية بيانا دعت فيه العمال الى الاجتماع فى ماكوندو للاستماع الى القائد العسكرى والمدنى للاقليم الذى سيصل فى اليوم التالى للتوسط فى الخلاف الناشب ووضع حد له بما يرضى الفريقين ...

وكان جوزيه أركاديو الثانى بين الجماهير التى احتشدت فى ميدان المحطة والتى قدر عددها بما لا يقل عن ثلاثة آلاف ... ولاحظ أن القوات قد حاصرت المكان مزودة بمدافع رشاشة ... وما أن تنتصف النهار حتى سرت شائعات تقول أن القائد قد أجل حضوره الى اليوم التالى ... وبعدها اعتلى قائد القوة المنصة وأعلن فى الميكروفون نص الامر الصادر من الحاكم العسكرى يصف المضربين بأنهم مجموعة من المشاغبين وأنه خول القوات اطلاق النار عليهم اذا لم يبادروا بالتفرق ...

وفى غمار الهياج والهرج الذى ساد على الاثر لم يستطع أحد أن يعرف على وجه التحديد كيف بدا اطلاق النار وكيف أصبح الميدان كله ساحة اختلط فيها الحابل بالنابل وتدافع الناس فى كل مكان يلتمسون النجاة بأنفسهم من وابل الرصاص ...

وبعدها استمر تعقب زعماء الاضراب واقتناصهم واحدا بعد الآخر ...

وكان جوزيه اركاديو الثانى اثر افلاته مختبئا فى غرفة مالكويداس عندما طرق الباب ليلا بكعوب البنادق ودخل ستة جنود بقيادة ضابط لتفتيش البيت بحثا عن الهارب والمطر يقطر من ملابسهم فى ابان عاصفة مطيرة استمرت أياما وليالى بعد جفاف طويل .. وكان أوريليانو الثانى موجودا بعد أن عاقه المطر الغزير عن الانتقال الى بيت عشيقته ... ودون ما كلمة اخذوا يفتشون البيت غرفة غرفة من قاعة الاستقبال الى المطبخ ... وقد استيقظت أورسولا عندما سلطوا

الضوء عليها ، فلم تكد تتنفس أثناء عملية التفتيش ، وجعلت أصابعها على شكل صليب أخذت توجهه الى حيث كانوا يوالون تفتيش بقية الغرف ... وفى خلال ذلك استطاعت سانتا صوفيا بيدال تحذير ابنها جوزيه اركاديو الثانى حيث كان نائما فى غرفة مالكويداس ، بيد أنه رأى أنها جاءت بعد فوات الاوان وأنه يستحيل عليه الهرب ... وبعد أن اغلقت عليه الباب بالقفل لبس قميصه وحذاءه وجلس على حافة السرير الصغير منتظرا حضورهم .. وفى تلك اللحظة كانوا يفتشون غرفة المسبك ... فقد أمر الضابط جنوده برفع القفل وسلط ضوء مصباحه بحركة شاملة فى أرجاء الغرفة ، ولما رأى الدواليب الزجاجية وزجاجات الاحماض سأل أوريليانو الثانى ان كان يشتغل بسبك المعادن ، فأجاب أن هذا مسبك الكولونيل أوريليانو بوينديا ... فهز الضابط رأسه هزة العارف وتناول اناء كان به مجموعة من الاسماك الذهبية الصغيرة ، وبعد أن فحصها مليا قال وقد هزته عاطفة انسانية :

ـ بودى أن آخذ واحدة منها اذا أمكن ... فى وقت ما كانت هذه الاسماك رمزا للعمل السرى ، أما الآن فهى شىء تذكارى ..

فأعطاه أوريليانو الثانى ماطلب ... ووضع الضابط السمكة فى جيب قميصه قائلا :

ـ هذا تذكار جميل ... ان الكولونيل أوريليانو بوينديا كان واحدا من عظماء رجالنا ...

ومع ذلك فان هذه البادرة الانسانية لم تغير من سلوكه الوظيفى وعند باب غرفة مالكويداس التى اعيد اغلاقها بالقفل حاولت سانتا صوفيا بيدال التعلق بأمل أخير ، فقالت :

ـ لم يسكن أحد فى هذه الغرفة منذ عشرات السنين ...

ولكن الضابط أمر بفتحها ، وسلط ضوء مصباحه عليها .. وأبصر أوريليانو الثانى وأمه عينى أخيه جوزيه أركاديو الثانى فى اللحظة التى مر فيها شعاع الضوء على وجهه ، وشعرا بأن النهاية قد حانت ... بيد أن الضابط استمر فى فحص الغرفة بالمصباح ولم يبد منه اهتمام بأى شىء ... وكان جوزيه أركاديو الثانى جالسا على حافة الفراش على استعداد للذهاب وقد اشتدت على وجهه علائم الرصانة والسهوم ... ووقف الضابط برهة موجها نظره الى الفراغ الذى كانت فيه الام وابنها يبصران فيه جوزيه أركاديو الثانى وقد أدركا أن

الضابط كان ينظر أيضا دون أن يبصره ... ومالبث الضابط أن أطفأ المصباح وأغلق الباب ، ثم قال لرجاله :

ـ من الواضح أن أحدا لم يكن فى هذه الغرفة منذ مائة سنة على الاقل .. ولابد أن فيها ثعابين أيضا ...

منذ هذه اللحظة زاد جوزيه أركاديو الثانى اقتناعا بأن غرفة مالكويداس هى حصنه الحصين وملاذه من الخوف فى العالم الخارجى المضطرب بالقلاقل والحروب ، ففى جوها الخارق عمى الضابط عن رؤيته ، وفى رحابها بات يشعر بالسكينة والراحة النفسية التى طالما افتقدهما طوال حياته الماضية .. وهكذا كرس جوزيه أركاديو الثانى نفسه للاطلاع على مخطوطات مالكويداس ومحاولة أكتشاف رموزها .. ولقد أصبح صوت سقوط المطر معهودا فى سمعه ، وكان الشىء الوحيد الذى يقلق عزلته هو تردد أمه سانتا صوفيا بيدال عليه بالطعام ، فطلب منها أن تضعه على حافة النافذة وتغلق الباب بالقفل ... ثم نسيته العائلة ، بما فيها فرناندا التى لم تمانع فى تركه هناك بعد أن وجدت ان الجنود راوه دون أن يبصروه ... وبعد ستة أشهر رفع أوريليانو الثانى القفل عن الباب طلبا لشخص يتحدث اليه الى أن ينقطع هطول المطر المتواصل ... وما كاد يفتح الباب حتى صدمته الروائح المنبعثة منها ... ووجد أخاه جوزيه أركاديو الثانى الذى عراه الصلع ما يزال عاكفا على قراءة المخطوطات ومحاولا فك طلاسمها فى وهج خفى نورانى يتخللها ... ولم يكد يرفع عينيه عندما سمع صوت فتح الباب ، بيد أن تلك النظرة كانت كافية لكى يعرف فيه أوريليانو الثانى مصير جده الاكبر الذى كان ذلك مآله ...

كان جوزيه أركاديو الثانى لا يفتأ يردد هذه العبارة :

ـ كانوا أكثر من ثلاثة آلاف فى ميدان المحطة ... لقد حصدهم الرصاص حصدا ، ونقلت جثثهم فى القطار حيث ألقى بهم ليلا فى البحر ! ..

الفصل الخامس عشر

انهمرت الامطار فى ماكوندو ... وظلت تنهمر مدى اربع سنوات ، واحد عشر شهرا ، وثلاثة أيام ...

وكانت تحدث فترات يقل فيها انهمار المطر الى رذاذ ، فكان الناس

يخرجون من بيوتهم احتفاء به ، ثم لا يلبثون أن يجدوها فترة صحو عابرة يتضاعف بعدها انهمار المطر ...

وكانت السماء ترسل عليهم عواصف مدمرة ، ومن الجانب الشمالى كانت تهب أعاصير تنتزع السقوف وتقوض الجدران وتستأصل زراعات الموز من منابتها ... وفى البيت الكبير اضطروا الى حفر قنوات لتسريب مياه الامطار الى الخارج والعمل على تجفيف الارضيات تخلصا من الضفادع والقواقع المتخلفة ، والاسماك أحيانا ...

وفى خلال ذلك احتبس أوريليانو الثانى فى البيت بعد أن كان قد عرج عليه لبعض شأنه ، مؤملا أن يتحسن الطقس ليعود الى بيت عشيقته بيترا كوتيس ...

ومضى عام على هذه الحال تشاغل خلاله بالانهماك فى اصلاح ما أفسده المطر من أبواب ونوافذ البيت وسائر أثاثه ـ دون أن يتوقف انهمار الامطار ...

وفى خلال هذه الفترة وقع ذلك التهاون الذى كان من جرائه ظهور أوريليانو الصغير فى مدخل البيت وما أدى اليه من تصرف جده أوريليانو الثانى على هويته ... فقص شعره ، وكساه بعد عرى ، وعلمه ألا يخاف من الناس ، وبعد فترة وجيزة بدا واضحا أنه من سلالة بويندبا بما لا يدع مجالا لأى شك : بعظام الخدين العالية ، وسمات الانطواء والعزلة ... وكان ذلك مبعث ارتياح فرناندا .. فلو كانت تعلم أن أوريليانو الثانى سيسلك هذا المسلك وسيسر بصيرورته جدا ، لما عرضت نفسها لكل ماتعرضت له من عناء وكرب ... وأما « أمارانتا أورسولا » الصغيرة التى بدلت أسنانها فقد وجدت فى ابن أختها لعبة تلهو بها فى مواجهة متاعب الامطار ... ولم يلبث أوريليانو الثانى أن تذكر دائرة المعارف الانجليزية المصورة التى بقيت سالمة فى غرفة « ميم » القديمة ... فبدأ يطلع الطفلين على الصور ، خصوصا صور الحيوانات ، وانتقل من ذلك الى الخرائط وصور الاقطار البعيدة ومشاهير الناس ... ولما كان لا يعرف اللغة الانجليزية ولم يكن بوسعه أن يتعرف الا على المدائن المشهورة وأبرز زعمائها ، فقد كان يخترع الاسماء والاساطير اختراعا لاشباع فضول الطفلين الذى لا يرتوى .

وكانت فرناندا تعلم يقينا أن زوجها ينتظر تحسن الاحوال الجوية لكى يعود الى معشوقته بيترا كوتيس ... ومع ذلك لم تتضايق لأن

علتها التي كانت تخفيها عن كل انسان وهى تورم الرحم والتى كانت تراسل بسببها أطباءها الخصوصيين البعيدين عنها ، أصبحت حائلا بينها وبين زوجها .. والآن وقد أدى استمرار هطول الامطار الى قطع كل سبل التراسل والاتصال ، فلم يكن أمامها سوى الاعتصام بالصبر والانتظار ...

وزادت الاحوال الجوية سوءا حتى لم يعد أحد يخرج الى الشارع ... وبلغ من تشاؤم أورسولا أن قالت أنها لا تنتظر سوى انقطاع الامطار لكى تقضى نحبها وتستريح ...

والواقع أن حالة الشوارع أزعجت اوريليانو الثانى ، وتزايدانزعاجه بشأن مواشيه ، حتى اضطر أخيرا أن يغطى رأسه بمشمع ويذهب الى بيت بيترا كوتيس ... فوجدها فى الحوش غارقة فى المياه الى وسطها وهى تحاول تعويم جثة حصان ... فساعدها بواسطة رافعة حتى أمكن دفع الجثة الى تيار الوحل المتدفق ليحملها بعيدا .. وكان هم بيترا كوتيس منذ بدأت الامطار هو تطهير الحوش من الحيوانات الميتة .. وخلال الاسابيع الاولى كانت تبعث برسائل الى اوريليانو الثانى لاتخاذ الاجراءات العاجلة التى يقتضيها الموقف بعد أن زاد تفاقما ، فكان يرد عليها بأنه لا لزوم للعجلة ، وأن الوقت سيكون متسعا للتفكير فيما يجب عمله بعد أن ينكشف الجو .. وكان مما قالته أن مراعى الخيل قد غمرتها المياه ، وأن المواشى تهرب الى المناطق المرتفعة حيث لا يوجد ما تأكله وحيث تكون تحت رحمة الوحوش والامراض ... والواقع أن بيترا كوتيس كانت ترى الحيوانات تنفق جماعات ، وكانت تعمد الى ذبح بعضها وهى غارقة فى الوحول ... بل رأت وهى عاجزة عن أى فعل أن الفيضان كان يستأصل بكل قسوة ثروة كانت معدودة فى وقت من الاوقات أضخم ثروة فى ماكوندو ، ثم ذهبت بددا ... وعندما قرر أوريليانو الثانى فى النهاية أن يذهب اليها ليرى ماهو حادث ، لم يجد سوى جثة حصان وبغل قذر فى الاسطبل ... ولما رأته بيترا كوتيس تلقته بنظرة لاهى نظرة دهشة أو فرحة أو استياء ، وابتسمت سخرية قائلة :

— جئت فى وقتك !..

لقد تقدمت بها السن ، وبدت كتلة عظام وجلد ، وغدت عيناها الوحشيتان مستأنستين مكتئبتين بطول النظر الى الامطار ... ولبث أوريليانو الثانى فى بيتها أكثر من ثلاثة أشهر ، لا لان المقام فيه كان

أفضل من بيت أسرته ، ولكن لانه احتاج الى كل هذه المدة لكى يحزم أمره ويضع قطعة الشمع الواقية فوق رأسه مرة أخرى ! ... وخلال الاسبوع الاول من اقامته اعتاد مافعلته الامطار والزمن بمحاسن عشيقته ، وشيئا فشيئا غدا يراها كما لا كانت تبدو له فى ماضى أيامها المليئة بالمغريات ، ولكنها صدته عنها برفق ، مذكرة اياه بما فعلت بهما الايام والسنون ، مما لا يدع مجالا لاى عبث أو فتون ...

وعاد أورليانو الثانى الى البيت الكبير مع حقائب ملابسه وقد اقتنع بأنه ليست فقط أورسولا هى التى كانت تنتظر انقطاع الامطار لكى تموت ، بل كل سكان ماكوندو ... فقد أبصرهم فى الطرقات جاثمين فى ردهات بيوتهم بأذرع مشبكة وأعين محدقة فى الامطار التى لا تنقطع ، حتى ماعاد لتعاقب الايام والاسابيع والشهور حساب عندهم ... ولكن الطفلين تلقيا عودته بالاحتفال والفرح ، ومرة أخرى كان يصحبهما الى غرفة « ميم » ليريهما دائرة المعارف الانجليزية المصورة ويلاعبهما باللعب المتخلفة فى الغرفة ... وظلت الايام تمضى على هذه الوتيرة الى أن جاء يوم قالت له فيه زوجته فرناندا أنه لم يبق فى « الكرار » من القوت الا ثلاثة ارطال من اللحم المقدد وكيس أرز واحد ... فقال لها :

— وماذا تريدين منى أن أفعل من أجل هذا ؟..

فردت فرناندا قائلة :

— لا أعرف .. هذا اختصاص الرجال ...

فقال أوريليانو الثانى :

— لا بأس ... سنفعل ما يمكن عندما يتكشف الجو ...

كان أوريليانو الثانى أكثر اهتماما بدائرة المعارف المصورة منه بالشئون المعيشية ، حتى عندما راض نفسه على الاكتفاء بمزقة لحم وقليل من الارز فى طعام الغداء .. وكان يقول لزوجته :

— لا يمكن أن تستمر الامطار الى آخر حياتنا ... أما الآن فيستحيل عمل أى شىء ! ..

وبقدر ما كان رصيد « الكرار » يتناقص ويتضاءل ، كان اهتياج فرناندا يشتد ويتزايد ، الى أن تفجرت غضبتها المكظومة حتى صارت كالسيل الدافق ، اذ بدأت ثورتها العارمة فى الصباح وامتدت طيلة النهار وهى تدور فى أرجاء البيت شاكية أنهم ربوها فى بيت أبويها كملكة لكى تصبح فى النهاية خادمة فى بيت مجانين مخبولين ، مع

زوج كسول عربيد يستلقي على ظهره انتظارا لخبز ينزل عليه من السماء ، بينما تكد هي وتكدح طول النهار لتدبير شئون بيت مفكك الاوصال لاصلاح لامره ...

أما أوريليانو الثاني فقد ظل يستمع الى هديرها الساعات وهو جامد الملامح وكأنه أصم ... ولم يرد عليها ولم يقاطعها حتى كاد النهار أن ينصرم ، وعندها لم يطق صبرا ، قال لها :

ـ ارجوك أن تسكتي !..

ولكن فرناندا بالعكس زاد صوتها ارتفاعا قائلة :

ـ لا سبب يدعوني الى السكوت ! .. من لا يريد أن يسمعني فليذهب الى أي مكان آخر ! ...

عندئذ فقد أوريليانو الثاني كل سيطرة على أعصابه ، وفي سورة الاحتدام التي تملكته راح يحطم أصص الزهور والاطباق والكؤوس وكل مايمكن تحطيمه ، حتى تناثر الحطام في كل مكان ... بل امتدت سورته الى الصور الزيتية المعلقة فمزقها تمزيقا ، والى أواني المطبخ فهشمها تهشيما ... ثم غسل يديه ، وألقى قطعة المشمع الواقي على رأسه وخرج ... وقبل منتصف الليل عاد ومعه مزق من اللحم المقدد ، وبعض أكياس الارز والقمح ، وعنقود موز أعجف .. وبعدها لم يعد البيت يشكو نقصا في القوت ...

وفي خلال ذلك كان الصغيران « أمارانتا أورسولا » وأوريليانو يتذكران الامطار كشيء جالب للبهجة .. وعلى الرغم من صرامة فرناندا فانهما كانا يلهوان بفقاقيع المياه في الحوش ويقتنصان السحالي ويقومان بتشريحها بدعوى أنها تعمل على تسميم الحساء بالغبار الذي تنثره أجنحة الفراش ـ وذلك في غفلة من فرناندا وساتنتا صوفيا بيدال ..

وكانت أورسولا هي لعبتهما المفضلة ... كانا ينظران اليها على أنها « عروس » كبيرة مكسورة ينقلانها من مكان الى آخر ... وكادا مرة أن يفقآ عينيها بمقص تقليم الزهور كما كانا يفعلان بالضفادع .. وما كان لشيء أن يستهويهما ويمتعهما سوى شطحات شرود العقل التي كانت تلم بها في العام الثالث من تساقط الامطار المستمر ، وفيها كانت تفقد الاحساس بالواقع وتخلط الزمن الحاضر بعهود حياتها الماضية ، اذ يمضي الوقت وهي تبكي أقرباء لها ماتوا منذ أزمان غابرة ، وتحسب الحفيدين أبناءها المغيبين تحت الثرى .. ثم كانت تعود الى الصحو والرشد فتتذكر رجلا جاء الى البيت الكبير

بتمثال للقديس يوسف طالبا حفظه الى أن ينقطع المطر فيعود لاسترداده ... فكان من جراء ذلك أن تذكر أوريليانو الثاني الثروة المدفونة في مكان لا يعرفه سوى أورسولا ، ولكن كل ماتوسل به من الاسئلة والمناورات لم يفلح في استدراجها الى البوح بالسر ، اذ أنها برغم خبالها قد بقيت لها بارقة تعقل جعلتها تحرص على الاحتفاظ بالسر الا للرجل الذي يقدم الدليل على أنه هو صاحب الكنز الذهبي الدفين ... بل لقد بلغ من فكرها وتدقيقها أنه عندما لقن أوريليانو الثاني واحدا من بطانة مباذله ومجونه للتقدم الى العجوز على أنه هو صاحب الثروة ، لم تزل أورسولا بهذا الدعي تستجوبه وتضيق الخناق عليه بأسئلتها الماكرة حتى تخلى أوريليانو الثاني في النهاية عن المحاولة ...

وكما أن لكل شيء بدايته ، فلكل شيء في الحياة نهايته ... فذات يوم من أيام شهر يونيو بعد تلك السنوات المطيرة الطوال ، بدأت الامطار تقل ، والسحب تنقشع ، وبدا واضحا بين لحظة وأخرى أن الجو يوشك أن يتكشف ... وهذا ماحدث .. ففي الساعة الثانية من بعد ظهر يوم الجمعة أضاءت السماء بأشعة قرمزية لشمس مترنحة ، وبعدها لم يسقط المطر مرة أخرى مدى عشر سنوات ..

وكانت ماكوندو قد استحالت الى خرائب ... ففي الشوارع تناثرت بقايا الاثاث المحطم وهياكل الحيوانات .. وغدت البيوت التي بنيت على عجل للعاملين في زراعات الموز قاعا صفصفا بعد أن فر منها سكانها ، وقوضت شركة زراعة الموز ذاتها منشآتها ومرافقها .. أما الناجون من الكارثة من سكان ماكوندو الاصليين فقد وجدهم أوريليانو الثاني عند خروجه أخيرا لتفقد الاحوال جالسين في وسط الشوارع يستمتعون بدفء الشمس ، فرحين باستعادة البلدة التي ولدوا فيها رغم الدمار الذي حل بها ...

وكانت بيترا كوتيس هي أكثر سكان البلدة تجلدا ... فقد شاهدت الدمار الشامل لاسطبلاتها ، واكتساح العاصفة لمخازن حبوبها ، بيد أنها أفلحت في استبقاء بيتها قائما ... ولما رأت تقاعس أوريليانو الثاني عن نجدتها عندما استغاثت به أكثر من مرة ، اقسمت على أن تعمل لاستعادة الثروة التي بعثرها عشيقها ثم أتى عليها الفيضان ... ولقد كان عزمها في هذا القرار راسخا الى حد أنه عندما زارها أوريليانو الثاني بعد ثمانية اشهر من رسالتها الاخيرة

اليه ، الفاها ممتقعة غائرة العينين ، ولكنها كانت تكتب ارقامــا فى قطع صغيرة من الورق لاستئناف عملية يانصيب « الكارتيلا » السالفة ... لقد دهش أوريليانو الثانى حقا ، أما هى فقد بدا لهــا لفرط ما رأته من علائم التشعث فى مظهره أن القادم ليس عشيقها ، بل شقيقه التوام ... وقال يعبر لها عن دهشته :

ـ انت مجنونة ... الا اذا كنت ستعرضين فى الكارتيــلا ... العظام ! ..

وعندئذ طلبت منه ان ينظر فى غرفة النوم .. فرأى أوريليــانو الثانى بغلا .. كان جلده ملتصقا بعظامه مثل صاحبته ، بيد أنه كان حيا ومتماسكا مثلها ايضا .. لقد أطعمته بيترا كوتيس من غضبها ، وعندما لم يبق لديها قمح ولا عليقة ولا جذور ، آوته فى غرفة نومها ، وجعلت تطعمه قماش الشيت ، ثم السجاد ، ثم الستائر المخملية ، ثم مظلة السرير الموشاة بخيوط الذهب ـ وكلها من مخلفات غـرفة النوم الفاخرة التى أفتن أوريليانو الثانى فى تأثيثها بها عندما كـان فى أوج النشوة والافتتان ..

الفصل السادس عشر

كان على أورسولا ان تبذل جهدا كبيرا لكى تفى بنبؤتها أن تمـوت بعد انقطاع الامطار ... فان موجات الصحو والشفافية التى كانت تلم بها نادرا ابان فصل الامطار ، غدت كثيرة بعد أن بدأت الريــاح الحاقة تهب على البلدة وترد اليها بعض الذاكرة ... ولقـد بكت أورسولا الى حد العويل والندب عندما اكتشفت أن الطفلين أوريليانو و « امارانتا أورسولا » جعلا منها العوبة يتقاذفانها على مدار ثلاث سنوات ونيف ... ولاول مرة منذ وفاة ابنتها امارانتا قامت مـن الفراش بغير مساعدة من احد لكى تشترك فى حياة الاسرة من جديد ، وكان لها من روح العزم فى قلبها الذى لا يقهر ما جعلها تدرج فى أرجاء البيت رغم عماها مستهدية بحواسها الاخرى ... ومنذ قومتها تلك لم تسمح لنفسها بلحظة راحة ، بل جعلت كل أفراد الاسرة يشاركونها فى تنظيف البيت واصلاح ما أفسدته الامطار من متاع وأثاث .. الى أن وصل بها المطاف الى غرفة مالكويداس المغلقة بالقفل من الخـارج

تنفيذا لمطلب جوزيه أركاديو الثانى من أمه سانتا صوفيا بيدال ألا تفتحها الا بعد وفاته ... فقد أصرت على أن يفتحوا لها الغـرفة خصوصا وقد تذكرت انه فى احدى الليالى المطيرة .. جاءت شلة من الجنود وفتشت البيت بحثا عن جوزيه أركاديو الثانى ولم تستطع اكتشاف وجوده ... ولما نزلوا على اصرارها كادت تسقط فى المدخل من فساد الهواء لولا أن تعلقت بالباب ، هاتفة وكأنها رأت ما بالداخل !

ـ الرحمة ياربى ! .. علمتك طول حياتى النظافة يابنى ، فاذا بك تنتهى مثل خنزير ! ...

كان جوزيه أركاديو الثانى لا يزال عاكفا على فك طلاسم المخطوطات ... وكان الشىء البادى منه هو الشعر القليل المتناثر فى رأسه وأسنانه المخضرة وعيناه الجامدتان ... وعندما سمع صوت جـدته الكبرى ادار رأسه نحو الباب وحاول الابتسام ، ولم يسعفه مـن الكلام سوى العبارة التى طالما سمع أورسولا ترددها :

ـ وماذا نتوقع ؟.. الزمن يمر ...

لكنها لم تبال بقوله ، وراحت توبخه كأنه طفل ، وأصرت على ان يأخذ حماما ويحلق ويمد يده للمساعدة فى اصلاح ماحل بالبيت ... والواقع ان فكرة خروجه من الغرفة التى أعطته الامان والسـكينة قد أفزعته ، حتى لقد صاح بأنه لا توجد قوة بشرية يمكن أن تحمله على الخروج لانه لا يريد أن يرى القطار المحمل بالموتى الذى غـادر ماكوندو ليلا متجها الى البحر ... وعندئذ فقط ادركت أورسولا انه يعيش فى عالم من الخيالات اكثف من عالمها وأشد عزلة من عالم جـده الاكبر « جوزيه أركاديو بويندا » عندما اطبق عليه الجنـون ... وهكذا تركته فى الغرفة ، ولكنها أصرت على أن يرفعوا القفل عن الباب وأن يجعلوه نظيفا لائقا مثلما كان حال جده الاكبر تحت شـجرة الكستناء ... وأول الامر فسرت فرناندا تلك الجلبة كنوبة من خبال الشيخوخة ، وكان من الصعب أن تكتم سخطها ... ولكن حدث فى ذلك الوقت أن ولدها جوزيه أركاديو بعث اليها برسالة قال فيهـا انه ينوى القدوم الى ماكوندو من روما قبل أن يرسم فى منصبه الدينى بصورة نهائية ، فكان فى هذا النبأ ما أفعم نفسها حماسة حتى راحت تروى الزهور أربع مرات فى اليوم ، لكيلا ينطبع فى نفس ولدها أثر سيىء عن البيت ..

وكان أوريليانو الثانى الذى أعاد صناديق ملابسه المتجولة الى دار

بيترا كوتيس يجاهد ما وسعه الجهد لكيلا تتضور أسرته جوعا ... فقد استطاع هو وبيترا كوتيس بعد عرض البغل فى يانصيب « الكارتيلا » أن يشتريا بعض حيوانات أخرى ، مما مكنهما من ادارة عملية يانصيب جديدة كان أوريليانو خلالها يطوف بالبيوت لبيع التذاكر ، وان نال ذلك من صحته حتى ذهبت عنه البدانة والتورد وغدا أقرب الى النحول والضعف ، ولكنهما كانا يقتران على نفسيهما لتوفير أسباب المعيشة الضرورية لاهل البيت الكبير ...

وقد أدى انهماك أوريليانو الثانى فى عمليات اليانصيب هذه الى اهمال رعاية الطفلين .. فعمدت فرناندا الى الحاق ابنتها « امارانتا أورسولا » بمدرسة خاصة صغيرة لا يجاوز عدد تلميذاتها ست بنات ، ولكنها رفضت السماح لحفيدها أوريليانو الصغير « ابن ميم » بالذهاب الى مدرسة عامة ... فقد اعتبرت أنها تسامحت أكثر من اللازم اذ تركته يبارح الفرقة .. وفضلا عن ذلك فان المدارس فى ذلك العهد لم تكن تقبل سوى الابناء الشرعيين ، فى حين قد ورد فى شهادة ميلاده التى جاءت معه من الدير أنه لقيط ... وهكذا بقى أوريليانو الصغير معزولا تحت رحمة سانتا صوفيا بيدال الطيبة ونزوات أورسولا المتقلبة بين الصحو والخبال ، لا يتعلم فى دائرة البيت الضيقة سوى ما يتلقاه من جدتيه ... كان فى الحق مخلوقا نحيلا رقيقا شديد حب الاستطلاع الى حد يضايق الكبار ، لا تكف عيناه عن الاختلاج ... وفى حين كانت « أمارانتا أورسولا » فى روضة الاطفال ، كان هو يصيد الديدان ويعذب الحشرات فى الحديقة ... ولكن عندما ضبطته فرناندا يوما يضع بعض العقارب فى علبة لدسها فى فراش أورسولا ، حبسته فى غرفة « ميم » القديمة حيث أصبح يمضى ساعات العزلة فى تصفح صور دائرة المعارف .. وعندما وجدته أورسولا فى هذه الغرفة عصر ذات يوم ، وعلى الرغم من انها كانت معه مرارا ، فانها سألته من يكون ، فأجابها :

ـ أنا أوريليانو بوينديا ...

فردت عليه قائلة :

ـ تمام ... والآن جاء الوقت لكى تتعلم سبك المعادن ...

لقد خلطت بينه وبين ابنها الكولونيل أوريليانو بوينديا فى صغره ؛ فان الرياح الحارة التى جاءت فى أعقاب الفيضان وكانت تجلب لها فترات الصحو والادراك قد ولت ... ولم تسترد عقلها بعد ذلك

قط ... وأصبحت تجلس فى فراشها تكلم نفسها وتبتعث سير الموتى من أقربائها ومعارفها وتخلط الماضى بالحاضر على نحو مثير للرثاء .. وغدت تزيد انكماشا وضآلة بمرور الايام حتى أصبحت فى الشهور الاخيرة مثل ثمرة ذابلة فى فراغ جلبابها ... وذات يوم ظلت جامدة عدة أيام حتى راحت سانتا صوفيا بيدال تهزها لكى تقتنع بأنها على قيد الحياة ، ثم أجلستها فى حجرها وسقتها بضع ملاعق من ماء محلى بالسكر .. ومرة أخرى أخفاها أوريليانو و « أمارانتا أورسولا» فى دولاب فى الكرار ، حيث كان يمكن أن تنهشها الفئران ...

ثم وجدوها ميتة صباح يوم الجمعة الحزينة ... وكانت آخر مرة سألوها أن تقدر عمرها التقريبى أيام وجود شركة زراعة الموز ، قدرته فيما يتراوح بين مائة وخمس عشرة سنة وبين مائة واثنتين وعشرين ... وقد دفنوها فى تابوت لا يزيد حجمه عن حجم السلة التى جاء فيها أوريليانو الصغير ، ولم يشهد جنازتها الا نفر معدود من الناس ، ومرجع ذلك الى قلة من يتذكرونها من أهل البلدة ، ثم الى شدة القيظ فى ذلك اليوم الى حد أن الطيور فى اضطرابها كانت تترامى على جدران البيوت وتشق ستائر النوافذ لكى تموت أفواجا فى غرف النوم ...

وبوفاة أورسولا ارتد البيت الكبير مرة أخرى الى حالة من الاهمال لا يمكن انقاذه منها حتى بعزيمة قوية مثل عزيمة « أمارانتا أورسولا » ـ تلك التى تهيأ لها بعد تعاقب أعوام كثيرة وبعد أن أصبحت امرأة عصرية سعيدة خالية من العقد ، أن تفتح ابواب البيت ونوافذه على مصاريعها لكى تطرد عنه الدمار وتعيد للحديقة نضارتها وتستأصل النمال التى أصبحت تسعى فى المدخل فى وضح النهار ، وان حاولت عبثا أن تبعث فى البيت روح الضيافة الذاهبة ...

كانت تلك كلها هى الصورة بعد الامطار والفيضان ... وفى خلال ذلك كانت فرناندا مشغولة بمرضها الذى لم تكاشف أحدا من أهل البيت بحقيقته ترفعا واستعلاء ، وان كان الباقون منهم على قيد الحياة لا يعيرونها اهتماما ... فان سانتا صوفيا بيدال كانت تمضى ايام شيخوختها الهادئة فى طهى الطعام القليل الذى يأكلونه ، متفرغة أكثر الوقت لرعاية ابنها جوزيه أركاديو الثانى ... وكانت « أمارانتا اورسولا » التى ورثت بعض محاسن ريميديوس الجميلة تقضى وقتها الذى كانت تضيعه من قبل فى تعذيب أورسولا ـ فى استذكار دروسها

وقد أبدت فى هذا من التقدم والتفانى ماجعل أوريليانو الثانى يعد بايفادها الى مدينة بروكسل لاتمام تعليمها ... وكانت المرات القليلة التى زار فيها البيت الكبير ، من أجل « أمارانتا أورسولا » .. فقد اصبح بمضى الوقت غريبا عن زوجته فرناندا ، وغدا أوريليانو الصغير اكثر انطواء وهو يقترب من دور المراهقة ... وكان أوريليانو الثانى يؤمل أن يلين قلب فرناندا بتقدمها فى السن حتى يتهيأ للطفل أن يندمج فى حياة بلدة أصبح أهلها لا يتشددون فى شىء مثل الاهتمام بمنبته ... بيد أن أوريليانو الصغير ذاته كان يفضل العزلة ولايبدى أقل رغبة فى معرفة العالم الذى يبدأ من باب الشارع فى البيت الكبير ... وعندما عملت أورسولا على فتح باب غرفة مالكويداس أخذ اوريليانو الصغير يتلصص بنظره الى داخلها ، ولم يعرف احد فى اية لحظة توثقت الصلة بينه وبين جوزيه اركاديو الثانى حتى استحالت الى مودة مشتركة ... وقد اكتشف أوريليانو الثانى هذه المودة بعد وقت طويل من بدئها ، حين وجد الصبى يردد ما كان يقوله جوزيه اركاديو الثانى عن مذبحة القتل فى ميدان محطة سكة الحديد ونقل القتلى بالقطار الليلى لالقائهم فى البحر ... لقد ردد الصبى هذا الكلام اثناء الجلوس الى المائدة بين أفراد الاسرة بلهجة انسان ناضج، مؤكدا ان هذا من تدبير شركة الموز خلاصا من الاستجابة لمطالب العمال ... ولما كانت فرناندا مقتنعة بما جاء فى البيانات الرسمية من دحض لهذه الدعوى ، فقد بدا لها أن الصبى ورث الاراء المتطرفة عن الكولونيل اوريليانو بويندیا ، وانتهرته لكى يصمت ... اما اوريليانو الثانى فقد عرف فى كلام الصبى تأثير اخيه التوام ... وعلى الرغم من ان الجميع كانوا يعدون جوزيه اركاديو الثانى من المجانين ، فانه كان اكثر أهل البيت تعقلا اذ ذاك ... فقد علم أوريليانو الصغير القراءة والكتابة ، وكان يشركه فى محاولة فك طلاسم المخطوطات ويعمل على توسيع دائرة معلوماته ...

وتتعاقب الايام والشهور على هذا النحو ، الى ان يأتى يوم يستيقظ فيه أوريليانو الثانى فى منتصف الليل وهو يشعر باختناق شديد فى حلقه وكأنما أنشب فيه سرطان بحرى مخالبه ... وكانت هذه أول بادرة احس فيها بقرب دنو أجله ... لكنه لم يخبر احدا .. كان يعذبه فى ذلك الحين أن يموت قبل أن يحقق وعده بارسال « امارانتا أورسولا » الى بروكسل لاتمام تعليمها ... وهكذا راح

يجهد نفسه فى العمل بما لم يفعل مثله فى كل حياته الماضية .. وبدلا من السعى الى توزيع يانصيب كارتيلا واحدة فى الاسبوع ، اتجه الى توزيع ثلاث كارتيلات ... فكان يبدأ فى ساعة مبكرة من الصباح طوافه بالبلدة الى ساعة متأخرة من الليل ملحا على الناس لشراء تذاكر اليانصيب ، وهو فى ذلك يتعرض لنوبات الالم الفتاكة فى حلقه الى حد يقعده فى حالة يرثى لها فى الطريق ... وكثيرا ما غدا يتعرض لسخرية الناس واستهزائهم لفرط ما كان يبدى من الحاح وترغيب فى الشراء ... وبعد وقت بدا له أن عملية عرض الخنازير والمعز وما اليها فى يانصيب الكارتيلا لن تكفى لارسال ابنته الى بروكسل ... وهكذا هداه طول التفكير الى عرض الاراضى البور التى اتلفها الفيضان فى هذا اليانصيب ... وعندما عرض هذه الفكرة على عمدة البلدة رحب بها ، وتكونت على الاثر روابط لشراء تذاكر بقيمة مائة جنيه للتذكرة الواحدة بيعت كلها فى اقل من اسبوع .. وفى ليلة السحب أقام الفائزون حفلا كبيرا عزف فيه أوريليانو الثانى على الاكورديون — لآخر مرة ...

ولم ينقض شهران حتى ذهبت « أمارانتا أورسولا » الى بروكسل ... وقد أعطاها أوريليانو الثانى كل النقود التى جمعها من يانصيب الاراضى ، مضافا اليها ما ادخره فى الماضى ، مما عده كافيا للوفاء بنفقات الدراسة والمعيشة ... وكانت فرناندا فى أول الامر ضد الرحلة بعد أن روعها رحيل ابنتها الى بروكسل القريبة من باريس مدينة اللهو والمفاتن ، لولا أن الاب انجيل الكاهن الجديد زود الفتاة بتوصية الى دار للاقامة مخصصة للفتيات يشرف عليها راهبات .. وقد أعدت لها فرناندا مع الملابس والمتاع الضرورى حزاما من القنب تحفظ فيه نقودها وشددت عليها الا تخلعه حتى فى نومها ... وبعد أشهر معدودة ، عندما حانت ساعة أوريليانو الثانى الاخيرة وهو على فراش الموت ، لم تبرح ذاكرته صورة فتاته وهى تطل من نافذة القطار ملوحة لوالديها على رصيف المحطة وقد تجلت رشاقتها ونضوجها ولكن دون دموع ولا ضعف ، مما دل على قوة عزم مبكر ... وظلا واقفين على الرصيف يلوحان مودعين وقد تأبطا ذراعيهما لاول مرة منذ الزواج ، الى أن غاب القطار عن الانظار ..

وفى التاسع من شهر اغسطس ، قبل ورود الرسالة الاولى من

بروكسل ، كان أوريليانو الصغير يتحدث مع جوزيه أركاديو الثانى فى غرفة مالكويداس ، ودون سابق تمهيد قال له هذا :

ـ تذكر دائما أنهم كانوا أكثر من ثلاثة آلاف رجل ، وأنهم القى بجثثهم فى البحر..

وعلى الاثر وقع جوزيه أركاديو الثانى على ظهره فوق المخطوطات وفاضت روحه وهو مفتوح العينين ... وفى نفس اللحظة تقريبا ، وفى فراش فرناندا ، كانت نهاية أخيه التوأم أوريليانو الثانى ، بعد المرض الطويل المفترس الذى أكل حلقه وغيب صوته تماما فى الاسابيع الاخيرة وحبس أنفاسه أو كاد ـ وفاء بما وعد من ان يكون موته بجانب زوجته ... وكانت بيترا كوتيس قد عاونته فى الفترة الاخيرة فى جمع ملابسه وودعته قبل رحيله من دارها دون أن تذرف دمعة وحدة ، ولكنها نسيت أن تعطيه الحذاء الفاخر الذى كان يريد لبسه فى تابوته ... وهكذا ما أن سمعت بوفاته حتى اتشحت بالسواد ولفت الحذاء فى جريدة وطلبت الاذن من فرناندا لالقاء نظرة أخيرة على الجثة ... فلم تسمح لها فرناندا بأن تطأ قدمها عتبة البيت ، فقالت بيترا كوتيس مستعطفة :

ـ ضعى نفسك مكانى ... تصورى مقدار حبى له بحضورى اليك والتعرض لهذه المهانة ...

فردت عليها فرناندا قائلة :

ـ ليست هناك مهانة لا تستحقها عشيقة ... ولك ان تنتظرى حتى يموت واحد آخر من عشاقك الكثيرين لكى تلبسيه الحذاء !..

وعملا بوصية جوزيه أركاديو الثانى الذى طالما خشى ان يدفن حيا بعد موته ـ متأثرا بما رآه فى صغره مرة من دفن المحكوم باعدامهم وعيونهم لا تزال مفتوحة ـ فقد تولت أمه سانتا صوفيا بيدال حز رقبته بسكين المطبخ ... وقد وضعت جثتا الاخوين التوامين فى تابوتين متماثلين ، وهكذا تحقق فى الموت عودة التماثل بينهما كما كانا حتى عهد المراهقة ... وجاء أصحاب اوريليانو الثانى فى اللهو لوداعه الاخير ومعهم اكليل زهور محفوف بشريط وردى كتبت عليه عبارة كانت شعارهم فى مجونهم : « تمتع ، فالحياة قصيرة » ... بيد ان فرناندا التى أسخطها هذا الاجتراء على حرمة الموتى رفعت الاكليل والقته فى القمامة ... وفى ثنايا الهرج الذى ساد فى اللحظة

الاخيرة ، خلط السكارى المحزونون التابوتين وهم يحملونهما ، وهكذا دفن التوأمان فى القبرين المغلوطين ...

الفصل السابع عشر

لم يفارق أوريليانو الصغير غرفة مالكويداس زمنا طويلا ... لقد لفظ عن ظهر قلب الاساطير الخرافية التى تضمنتها تلك الكتب العنبفة ، من مذكرات عن علوم الجن والشياطين ، ومفاتيح الوصول الى حجر الفلاسفة ، وحوليات نوسترا داموس وأبحاثه ـ الى غير ذلك مما جعله يبلغ سن المراهقة دون أن يعرف شيئا عن الزمن الذى يعيش فيه ، مزودا فقط بالمعرفة الاساسية لانسان من العصور الوسطى ... وكلما دخلت عليه جدته سانتا صوفيا بيدال وجدته مستغرقا فى القراءة ... وكانت تأتيه عند الفجر بابريق القهوة بغير سكر ، وعند الظهر بطبق أرزوشرائح الموز المقلى ، وهو الطعام الوحيد الذى كان يؤكل فى البيت منذ وفاة أوريليانو الثانى .. وكانت تعمل على قص شعره ، والباسه الملابس القديمة التى تعثر عليها بعد جعلها على مقاسه ... وعندما نبت شاربه جاءته بموسى الكولونيل أوريليانو بويندا والاناء الصغير الذى كان يستخدمه فى حلق ذقنه .. وكان يبدو لها أحيانا أنه يكلم نفسه ... أما الواقع فانه كان يكلم طيف مالكويداس ... فقد حدث ظهر يوم متقد الحر بعد وفاة الاخوين التوامين أن أبصر منعكسا من وهج النافذة طيف مالكويداس كما كان يتصوره ... وقد سأله مالكويداس بعد أن رآه يراجع الحروف الابجدية للمخطوطات كما تلقاها عن جوزيه أركاديو الثانى ، عما اذا كان قد اكتشف اللغة التى كتبت بها المخطوطات ، فأجاب أوريليانو :

ـ اللغة السنسكريتية ..

فبين له طيف مالكويداس ان ظروف عودته الى هذه الغرفة محدودة لانه عائد فى سلام الى رحاب الموت الكلى ، ومن ثم سيجد أوريليانو الوقت متسعا لتعلم اللغة السنسكريتية خلال السنوات الباقية على بلوغ عمر المخطوطات مائة عام ، وعندها سيحين أوان فك رموزها .. وكان هو الذى دل أوريليانو على انه يوجد فى الشارع الضيق

المؤدى الى النهر رجل حكيم من ابناء قطالونيا عنده مكتبة بها مفتاح اللغة السنسكريتية فى كتاب مزخرف سيأتى عليه العث فى مدى ست سنوات اذا لم يبادر بشرائه ... وشد ماكانت دهشة سانتا صوفيا بيدال التى لا يدهشها شىء عندما طلب منها أوريليانو ان تجيئه بالكتاب الذى يمكن العثور عليه بين مجلدى « تاريخ أورشليم » و « أشعار ميلتون » فى اقصى الجانب الايمن للرف الثانى من أرفف المكتبة ... واذا كانت لا تعرف القراءة فانها وعت هذا فى ذاكرتها ودبرت مبلغا من بيع الاسماك الذهبية الصغيرة السبعة عشر الباقية فى المسبك ، والتى لم يكن أحد غيرها هى وأورسولا يعرف مكانها منذ الليلة التى فتش الجنود فيها البيت ..

وتقدم أوريليانو فى دراسة اللغة السنسكريتية فيما كانت زيارات طيف مالكويداس تتناقص ويزيد الطيف شحوبا فى ضوء الظهيرة الشديد — وآخر مرة شعر أوريليانو بوجود الطيف عندما همس فى سمعه كيان غير منظور بهذه العبارة : « لقد توفيت بالحمى فى رمال سنغافورة » ... وبعدها لم تعد الغرفة فى منعة من الاتربة والحرارة وحشرات الترميت والنمل والعث ، وهى كفيلة باحالة المخطوطات الى نشارة ...

ولم يعد البيت يعانى من نقص القوت ... فغداة يوم وفاة أوريليانو الثانى ، جاء رجل من بطانة السكر الذين احضروا الاكليل غير المحتشم ليدفع الى فرناندا نقودا كانت دينا عليه لاوريليانو الثانى ... وبعد هذا كان يأتى كل يوم اربعاء صبى ومعه سلة طعام كانت تكفى قوت أسبوع ... ولم يعرف أحد قط أن هذه المؤونة كانت ترسلها بيترا كوتيس ، وفى ضميرها أن هذا الاحسان المستمر هو طريقه لاذلال فرناندا التى اذلتها ... غير أن هذه الضغينة مالبثت أن تلاشت بمرور الايام ، وبعدها استمرت فى ارسال القوت من قبيل التكبر ، ثم فى النهاية من قبيل الرحمة ... وكثيرا ما كانت بيترا كوتيس — بعد أن كانت لا تجد حيوانات لليانصيب وبعد فقد الناس الاهتمام بذلك — كثيرا ما كانت هى تبقى دون طعام ، لكى تجد فرناندا ما تأكله ، وظلت وفية لعهدها هذا الى ان رات جنازة فرناندا تمر فى الشارع ..

وفى خلال ذلك كانت سانتا صوفيا بيدال دائبة فى خدمة البيت وتنظيفه من الاتربة والعناكب والحشرات القارضة ، فلا تمضى

ساعات حتى يعود كل هذا سيرته الاولى ، الى ان شعرت فى النهاية ان شيخوختها وعظامها المكدودة لن تحتمل هذا الجهد الشاق ، واذا هى تحزم ما بقى لها من متاع قليل وتتأهب للرحيل عن البيت ... وعندما سألها أوريليانو الى أين هى ذاهبة اجابته بلهجة غامضة أن لها أقرباء فى بلدة ريوهاشا ستقيم عندهم ، وان موهت عليه فى ذلك . فأعطاها أوريليانو أربعة عشر من الاسماك الذهبية بعد أن وجدها مصرة على الذهاب بما معها وهو لا يجاوز بيزو واحدا وبضعة سنتات ... وبعد رحيلها لم يسمع شىء عنها بعد ذلك ...

وعندما سمعت فرناندا برحيلها هاجت وماجت يوما بطوله .. وقد أصيبت بحروق فى أصابعها وهى تحاول ابعاد النار لاول مرة فى حياتها ، واضطرت أن ترجو أوريليانو ليريها كيف تعمل القهوة .. وبمضى الوقت كان أوريليانو هو الذى يباشر شئون المطبخ .. فكانت فرناندا تجد افطارها معدا عندما تقوم من النوم ، وكانت تبرح غرفتها مرة ثانية لتجد طعامها فوق الموقد مجهزا ، فتحمله الى المائدة لتجلس على رأسها فى مواجهة خمسة عشر مكانا خاويا ، فوق مفرش من التيل وبين الثريات ...

لقد كانت فرناندا تعيش فى عالم خاص بها ولا شاغل لها سوى مكاتبة ولديها وتلقى رسائلهما ، حتى لم يعد يعنيها شىء من مرور الزمن انتظارا لعودتهما ... وعلى سبيل المثال لم تتضايق عندما أخبرها ابنها جوزيه اركاديو — بعد مضى سنوات من اعلان قرب تخرجه النهائى — انه سينتظر لاتمام دراساته فى علوم اللاهوت المتقدمة ، فقد سرت بهذا التأخير وسعدت به وهى تعرف الطريق الشاق الى المناصب الكهنوتية العليا ... كما كان سرورها وسعادتها بالمثل عندما اخبرتها ابنتها « أمارانتا اورسولا » ان دراساتها سوف تطول اكثر من المقدر لها لان تفوقها فى الدرجات قد هيأ لها مزايا لم تكن فى الحسبان عندما قدر والدها موقفها الدراسى ...

وانقضت ثلاثة أعوام ونيف منذ أن أحضرت سانتا صوفيا بيدال الى أوريليانو كتاب القواعد الذى مكنه من ترجمة الصفحة الاولى .. ولم يكن هذا جهدا ضائعا ، ولكنه كان خطوة أولى فى طريق لم يمكن التنبؤ بطوله ، لان النص الاسبانى لم يفصح عن أى شىء ، اذ كان مكتوبا بشفرة خاصة تعذر على أوريليانو ان يحلها ... غير أنه لما كان مالكويداس قد أخبره أن الكتب التى يحتاج اليها للتوصل الى أعماق

المخطوطات موجودة فى مكتبة القطالونى ، فقد قرر أن يكلم فرناندا لكى تسمح له بالذهاب ... ولهذا قص شعره الذى طال وحلق ذقنـــه ولبس بنطلونا قصيرا وقميصا بياقة صناعية ورثهما ممن لايدرى ،ثم جلس فى المطبخ ينتظر حضورها لاخذ طعام الافطار .. لكن المـــرأة التى عهدها كل يوم والتى كانت ترفع رأسها شموخا وتعاليا لم تصل، وانما جاءت امرأة عجوز ذات جمال خارق تتشح بحرملة من الفـرو الثمين وتاج من الورق المقوى المذهب ، وتبدو عليها علائم انسان كان يبكى لنفسه ليلا ... والواقع أن فرناندا منذ أن عثرت على زيهـــا كملكة فى امتعة زوجها أوريليانو الثانى راحت ترتديه مرارا رغم ماأكل منه العث ... ولو قدر لاحد أن يراها وهى تختال أمام المرآة بهـذا الزى الزائف لظنها مجنونة .. لكنها لم تكن.. وانما كانت تفعـل ما فعلت للذكرى ، وحنينا الى الماضى المولى ، وتسرية لنفسهـــا عن سوء حالها الراهن ...

هكذا عدل أوريليانو مشفقا عن طلب الاذن منها بالخروج ، اذ كان مفتاح البيت لديها ، وان كان بوسعه أن يتسلل خارجا وعائدا دون ان تفطن اليه ـ لولا أن طول سجنه فى البيت وخوفه من مواجهة الناس والعالم الخارجى واعتياده طاعة الاوامر ، كل ذلك قضى على روح التمرد فى نفسه وفرض عليه عزلته الغريبة ... وكذلك عـــاد الى محبسه عاكفا على قراءة المخطوطات مرارا وتكرارا ، متسمعا فى الليل صوت فرناندا وهى تنتحب فى غرفة نومها ... الى ان ذهب الى المطبخ ذات صباح لايقاد النار كالمعتاد ، فوجد الطعام الذى تركـــه لفرناندا بالامس لم تمسه يد ... وعندئذ نظر فى غرفة نومها ، فرآها ممددة فوق الفراش مغطاة بحرملة الفراء وهى اوفر جمالا مما عهـد وقد استحالت بشرتها الى لون العاج ... ولما عاد ابنها جوزيه اركاديو بعد اربعة أشهر ، وجدها على نفس تلك الصورة ...

كان من المستحيل أن يتصور أحد شابا أكثر منه مشابهة لامه ... كان يرتدى بذلة من الحرير وقميصا بياقة صلبة مستديرة وشريطا حريريا فى مكان ربطة العنق ... وكان ملىء الوجه مورده ، وأقرب الى الاسترخاء والترهل ... وكان شعره الاسود اللامع الناعم مفروقا من وسط الرأس ... وكان يتختم فى يديه الناصعتى البياض بخاتم ذهبى مرصع بحجر من العقيق حول سبابة يده اليسرى .. وعندما فتح باب الشارع لم يحتج أوريليانو الفتى الى من يدله على انه جاء

من سفر بعيد ... وما أن خطا بضع خطوات فى البيت حتى فاحت منه رائحة العطر الذى طالما نثرته أورسولا عليه وهو طفل لكى تستدل من الرائحة على مكانه بعد أن كف بصرها ... وقد تقدم جـــوزيه أركاديو من فوره الى مخدع أمه ، حيث كان أوريليانو قد تولى غلى زئبق مدى أربعة أشهر كاملة لحفظ الجثة طبقا لتعاليم مالكويداس المتوارثة .. ولم يبادره جوزيه أركاديو بأى سؤال .. وانما قبـــل الجثة فوق الجبين ، ثم جذب من ثنايا ملابسها مفتـــاح دولاب صاحبتها الخاص ، ولما فتحه أخرج منه علبة صغيرة كان بداخلهـــا الرسالة المطلوبة التى باحت فيها فرناندا بكافة الحقائق التى كـانت حريصة دائما على اخفائها عنه فى رسائلها اليه .. فعكف على قراءتها واقفا بلهفة ولكن دون قلق ، وما أن وصل الى الصفحة الثالثة حتى توقف وتفرس فى أوريليانو بنظرة من تعرف بعد النظرة الاولى العابرة، وقال له بصوت كحد الموسى :

ـ اذن ... انت ابن الحرام ! ...

ـ أنا أوريليانو بوينديا ...

فقال جوزيه اركاديو :

ـ اذهب الى غرفتك ! ...

فذهب أوريليانو، ولم يخرج ثانية حتى من باب الفضول عنـدما سمع صوت موكب الجنازة المحدود ... وأحيانا كان يرى من المطبخ جوزيه اركاديو وهو يتنقل فى البيت ، ويسمع خطواته فى غـــرفة النوم المهجورة بعد منتصف الليل ، بيد أنه لم يسمع صوته مدى شهور كثيرة ، لا لان جوزيه أركاديو لم يتجه اليه أبدا بكلام ، بل كذلك لان أوريليانو نفسه لم يرد أن يحدث هذا ولم يكن الوقت ليفكر فى أى شىء آخر غير المخطوطات ... فعقب وفاة فرناندا حمل سمـــكة ذهبية وذهب الى مكتبه القطالونى الحكيم بحثا عن الكتب التى يحتاج اليها .. فوجده عاكفا على منضدة مستطيلة بين أكداس الكتب العتيقة البالية فوق الارفف وفى الاركان وهو مستغرق فى الكتابة بأحـرف حمراء فى كراسة مدرسية مفككة الصحائف ، وبدا له أبيض الشعر أزرق العينين تلوح عليه مخائل انسان مهذب قرأ كل الكتب ... ولم يرفع الرجل رأسه لبرى من القادم ، غير ان أوريليانو لم يجـد صعوبة فى استخلاص الكتب الخمسة التى جاء يبحث عنها فى الفوضى الضاربة أطنابها حوله ، لانه عثر عليها فى الموضع الذى أرشده اليـه

طيف مالكويداس ... ودون كلمة واحدة وضع أوريليانو الكتب والسمكة الذهبية أمام القطالونى الذى ما أن نظر حتى ضــاقت عيناه قائلا :

ـ لابد انك مجنون !..

بيد أنه هز منكبيه ورد اليه الكتب والسمكة الذهبية قائلا :

ـ لك ان تأخذها .. ان آخر رجل قرأ هذه الكتب أصيب بالعمى ... واذن فلتتدبر جيدا ما أنت فاعل ...

واما جوزيه اركاديو فقد اصلح غرفة نوم أختـه « ميم » وحوض الاستحمام الاسمنتى .. وكان ينام حتى الحادية عشرة صباحا أو مابعدها ، فيذهب الى الحمام حيث يعطر الحوض باملاح جاء بها ، ويمكث فيه ساعتين طافيا على ظهره مستمتعا بالطراوة ... وبعـد أيام قلائل من وصوله وضع جانبا بدلته الحريرية وهى الوحيـدة التى جاء بها ، واستبدل بها بنطلونا ضيقا وقميصا حريريا نقش فوق مكان القلب منه الحرفان الاولان من أسمه ... ومرتان فى الاسبوع كان يغسل هذا اللباس ويرتدى روب الحمام الى أن يجف ، اذ لم تكن لديه ملابس غيرها ... ولم يكن يأكل فى البيت فقط ... كان يخرج بعد أن تخف وقدة القيلولة ولا يعود الا فى وقت متأخر ليلا ..

كانت الخدعة الكبرى التى اجازها على الجميع هى دراسته للاهوت . اما الحقيقة فهى أنه لم يكد يستقر فى روما حتى هجر المعهد واستمر يغذى برسائله هذه الخرافة لكى لا يخاطر بذلك الميراث الكبير الذى كان ينتظره من امه على نحو ما كانت تمنيه به اختلافا هى الاخرى طبقا لطبيعتها التى كانت تجانب الحقيقة فى كل شىء وتتعلق بعـالم الاوهام .. كان تفكيره منحصرا فى ذلك الميراث الوهمى الذى يخلصه من البؤس وشظف العيش مع صاحبين له فى غرفة على السطح ... وعندما تلقى رسالة فرناندا الاخيرة التى املاها عليها احساسها بدنو الاجل ، جمع ماتبقى من العز الزائف فى حقيبة صغيرة عبر بهـا المحيط فى سفينة مع مهاجرين تكدسوا فيها مثل ماشية فى مجـزر يأكلون المكرونة الباردة والجبن بالديدان ... وقبل أن يقرأ وصـية فرناندا فى رسالتها المطولة ، وهى لم تكن أكثر من اعتراف تفصيلى ومتأخر بحقيقة الحال والبلايا الماثلة ، كان أثاث البيت المحطم والحشائش البرية النامية لدى المدخل برهانا صارخا على انه قد وقع فى فخ لا مهرب له فيه ...

وبعد عام من عودته المهيضة تلك ، والتى اضطر فيها ان يبيـع الثريات الفضية وغيرها مما بقيت له قيمة لكى يأكل ـ كانت سلواه الوحيدة فى عزلته هى فتح أبواب البيت لصبية الحى لكى يلعبـوا فى البيت ويؤنسوا وحشته .. فكانوا يثبون فوق الحبل فى الحديقة ويغنون لدى المدخل ويقومون بألعاب بهلوانية بين أثاث حجرة المعيشة الى وقت متأخر من الليل ، حتى صار البيت أشبه بمدرسة داخلية مجردة من كل نظام ... ولم ينزعج أوريليانو من هذا الغزو طـالما كانوا لا يعملون على مضايقته فى غرفة مالكويداس ... ثم حـدث ذات صباح ان دفع احد الصبية باب الغرفة ، فروعهم مشهد رجل متسخ أشعر كان لا يزال عاكفا على محاولة فك طلاسم المخطـوطات فوق المنضدة ... ولم يتجاسروا على دخول الغرفة ، ولـكنهم مابرحوا يراقبونها ... ومرة ألقوا فيها حيوانات حية من فـوق عارضة الباب .. وفى مناسبة أخرى سمروا الباب والنافذة حتى أمضى أوريليانو نصف نهار فى رفع المسامير وفتحهما .. ولما شجعهم عدم تعرضهم للعقاب فى كل هذا ، دخلوا الغرفة ذات صباح بينمـا كان أوريليانو فى المطبخ وهموا باتلاف المخطوطات ... غير أنهـم ماكادوا يضعون أيديهم على الصحائف المصفرة حتى شعروا بقـوة خفية تكاد ترفعهم عن الارض ، الى أن عـاد أوريليانو وانتزع المخطوطات من أيديهم ... وبعدها لم يعملوا على مضايقته ...

وكان أربعة منهم فى سن المراهقة مثل جوزيه أركاديو يشاطـرونه الاستحمام فى الحوض ، وقد توثقت بينه وبين أحدهم وهو أجراهم أواصر الصداقة حتى كان يشاطره المبيت فى البيت بعض الليـالى ، حيث يقضيان الساعات فى السمر والطواف بالغرف الخاوية ... وذات ليلة استرعى نظرهما فى غرفة أورسولا وهج أصفر منبعث من بين شقوق الارضية المتآكلة وكأن شمسا تحت الارض قد غيرت أرض الغرفة الى لوح من الزجاج ... ولم تكن بهما حاجة الى اضاءة النور ... كان يكفى أن يرفعا البلاط المكسور فى الركن الذى كانت تنـام فيه أورسولا والذى كان ينبعث منه الوهج على أشده ، لكى يعثرا على الكنز السرى الملىء بالذهب فى أكياسه الثلاثة والذى كان يتوهج مثل جمرات فى الظلام ...

كان اكتشاف هذا الكنز الذهبى مفاجأة مذهلة ... وبدلا مـن أن يعود جوزيه أركاديو الى روما بالكنز الذى هبـط عليـه من حيث

لا يحتسب ، فانه أحال البيت الى فردوس ... اذ أعاد تأثيث غرفة النوم بأفخر مما كانت عليه ، وكسى أرضية الحمام وحوائطه بالبلاط ، وملأ دولاب قاعة الطعام باللحم المقدد وعلب الفاكهة المحفوظة والمشهيات وفتح غرفة « الكرار » من جديد لتخزين الانبذة والمشروبات الكحولية التى كان يستجلبها من محطة سكة الحديد فى لفائف معنونة باسمه .. وذات ليلة أولم مع الفتيان الاربعة وليمة دامت حتى الفجر ... وعند الساعة السادسة صباحا قاموا بتصفية حوض الحمام من المياه وملأوه بالشمبانيا ، ثم تواثبوا فيه وراحوا يسبحون مثل طيور سابحة فى سماء مذهبة بفقاقيع يفوح شذاها العطر ... وقد تخلف عنهم جوزيه أركاديو عندما خرجوا من الحوض وبقى طافيا على ظهره فى المياه مستغرقا فى التفكير ... وعندما لحق بهم فى النهاية الفاهم قد أتلفوا غرفة النوم حتى أصبحت حطاما .. فاشتد سخطه عليهم حتى طردهم من البيت وهو يشبعهم ضربا .. وبقى وحده ثلاثة أيام يعانى من أزمة ربو مستحكمة ... ولما اشتدت عليه الازمة ذهب الى غرفة أوريليانو ورجاه أن يشترى له مسحوقا خاصا للاستنشاق من صيدلية قريبة ... وكانت هى المرة الثانية التى خرج فيها أوريليانو من البيت ، ولما وصل الى الصيدلية قابلته فتاة لها جمال الافعى وأعطته الدواء الذى عاد به الى جوزيه أركاديو الذى قدر منه هذا الصنيع ، حتى أنه بعد أيام قليلة أخل بعهده لامه وترك أوريليانو حرا يخرج من البيت كما يشاء ... ومن عجب أن أوريليانو رد عليه قائلا :

— ليس لى ما أفعله فى الخارج ...

وبقى حبيسا فى البيت ، منهمكا فى فك طلاسم المخطوطات ومحاولة فهم مضامينها التى ظلت رغم ذلك مستغلقة عليه ... وكان جوزيه أركاديو يجيئه ببعض اللحم المقدد والفاكهة المحفوظة ، وشىء من النبيذ فى مناسبتين ... لكنه لم يهتم بالمخطوطات التى عدها من ترهات الماضى ، ولكن اهتمامه غدا منحصرا فى ابن أخته هذا الذى ألفاه غزير المعلومات واسع المعرفة على نحو غريب ، اذ وجده يفهم اللغة الانجليزية ، الى جانب المامه بكل ماجاء فى دائرة المعارف المصورة التى قرأ أجزاءها الستة من أول صفحة الى آخر صفحة كما يقرأ احدى الروايات ... ومهما يكن فقد توطدت الاواصر بين هاتين الشخصيتين المنعزلتين اللتين يسرى فيهما دم واحد ، وهى أن لم

تكن صداقة بمعنى الكلمة ، فقد كانت صحبة أعانتهما على احتمال حياتهما الغريبة هذه ..

وكان جوزيه أركاديو منذ أن طرد الفتيان من البيت ينتظر أخبار باخرة من عابرات المحيط ينوى الارتحال فيها الى نابولى قبل عيد الميلاد ... وقد أخبر أوريليانو بهذا ، بل فكر فى خطة لالحاقه بعمل لكسب قوته ، اذ أن سلال الطعام قد انقطع ورودها الى البيت بعد دفن فرناندا ...

وفى صباح يوم من سبتمبر بعد ان فرغ جوزيه أركاديو من شرب القهوة مع أوريليانو فى المطبخ وكان على وشك الانتهاء من حمامه اليومى — اذ اندفع الى الحمام الفتيان الاربعة الذين طردهم من البيت، من خلال البلاط المكسور .. وقبل أن يجد فرصة للدفاع عن نفسه قفزوا الى الحوض بكامل ملابسهم وجذبوه من شعره وأغرقوا رأسه فى المياه ممسكين بها هكذا الى أن توقفت من سطح المياه فقاقيع حشرجة الموت ، وغاصت جثته الشاحبة الى قاع الحوض المعطر ... وبعد ذلك أخرجوا أكياس الذهب من المخبأ الذى لم يكن معروفا لهم والضحية ... وكانت فى الواقع عملية خاطفة ووحشية ومدبرة بعناية حتى كانت أشبه بعملية حربية ... ولم يشعر أوريليانو بأى شىء وبابه مغلق عليه فى غرفته ... وعندما افتقده فى المطبخ بعد ظهر هذا اليوم ، ذهب يبحث عنه فى كل أنحاء البيت ، الى أن عثر عليه طافيا فوق صفحة مياه الحوض المعطرة وقد انتفخت وتضخمت جثته ... وعندئذ فقط أدرك أوريليانو الى أى حد كان قد بدأ يتعلق به ...

الفصل الثامن عشر

عادت « أمارانتا أورسولا » فى أوائل شهر ديسمبر — عادت وهى تقود زوجها بحبل من حرير مربوط حول رقبته ...

ظهرت فى البيت الكبير دون سابق أخطار ، مرتدية فستانا فى لون العاج ، وعقدا من اللآلىء يكاد يتدلى الى ركبتيها ، وخواتم من الزمرد والعقيق ، وشعرها الطويل معقود خلف أذنيها ... وكان الرجل الذى تزوجته منذ ستة شهور هولنديا نحيلا يكبرها سنا ... وماكان

عليها الا أن تدفع الباب الى البهو لكى تدرك أن غيابهـا كان أطول واحفل بالدمار مما كانت تتصور – حتى هتفت بلهجة كانت أكثر مرحا منها انزعاجا :

– يا الهى !. من الواضح أنه لا توجد امرأة فى هذا البيت ! ..

وكانت الامتعة التى جاءت بها أكثر من أن يسعها المدخل .. ففضلا عن الصندوق الكبير الذى ذهبت به الى المدرسة ، جاءت بست حقائب بين الكبيرة والصغيرة ، وثمانى علب قبعات ، وصندوق خاص به دراجة زوجها ذات العجلة الامامية الاكبر ، مفككة .. بل انها لم تخلد الى الراحة يوما واحدا بعد رحلتها الطويلة ، فقد اشتملت برداء قديم وبدأت على الفور تنظيفه وتجديد البيت : فطردت النمل الاحمر الذى كان قد سيطر على المدخل ، واستأصلت الحشائش الطويلة ، وغرست الزهور فى الاصص ، واستعانت بفريق من النجارين والحدادين والبنائين لاصلاح الاثاث والابواب والنوافذ وسد الشقوق وطلاء الجدران ، وهكذا لم تمض ثلاثة أشهر على وصولها حتى كان الانسان يتنفس من جديد جو الشباب والانتعاش الذى كان يسود البيت الكبير فى أيام العز الماضية .. والحق أنها كانت ذات روح متحررة وعصرية الى حد أن أوريليانو « ابن أختها ميم » لم يعرف كيف يدارى هياته لدى مقدمها ... أما هى فقد هتفت بلهجة السعادة وقد فتحت ذراعيها :

– مدهش ! .. مدهش !.. انظروا كيف كبر « متوحشـنا » العزيز ! ..

وقبل أن يجد فرصة لرد الفعل ، كانت قد وضعت اسطوانة فوق الفونوغراف المتنقل الذى جاءت به معها وأخذت تحاول تعليمه أحدث خطوات الرقص .. ثم انها حملته على تغيير بنطلونه المتسخ الذى ورثه عن الكولونيل أوريليانو بوئنديا ، وأعطته بعض القمصان الشبابية وحذاء بلونين ، وكانت تدفعه الى الشارع دفعا عندما كان يمضى فى غرفة مالكويداس وقتا أطول مما ينبغى ...

كانت عصرية مائة فى المائة ، حتى كان من غير المفهوم أن تعود مثلها الى بلدة ميتة مثقلة بالاتربة والحر القائظ ، ومع زوج كان عنده من المال ما يكفى للعيش فى أى مكان فى العالم وهو يحبها حبا جما جعله يرتضى أن يقاد بطوق حريرى حول رقبته ! ..

وبعد عام من عودتها ، وعلى الرغم من أنها لم تفلح فى اتخاذ

أى أصدقاء أو اقامة أية حفلات ، فان أمارانتا أورسولا ، ظلت على اعتقادها بان فى الامكان انقاذ هذه البيئة التى انفردت بالعزلة وبما تعاقب عليها من كوارث ... وقد حرص زوجها جاستون على عدم معارضتها ، وان كان منذ أن نزل من القطار قد أيقن أن زوجته تعلقت بسراب خادع ... ولما ألفاها منهمكة فى عمليات الاصلاح والتجديد ، مالبث أن تفرغ بدوره للطواف بدراجته فى المنطقة لاقتناص كل ما استطاع من الحشرات المحلية وارسالها معلبة الى أستاذه السابق فى التاريخ الطبيعى بجامعة ليبج ، حيث كان له نشاط متقدم فى علم الحشرات ، وان كانت مهنته الاساسية هى قيادة الطائرات ... وعلى الرغم من أنه كان يكبر زوجته بخمسة عشر عاما على الاقل ، الا أن عزمه الراسخ على توفير أسباب السعادة لها فى حياتهما الزوجية هذه قد عوضها عن فارق السن .. وكان لقاؤهما قبل عامين من زواجهما ، عندما اختل توازن الطائرة الصغيرة ذات الجناحين التى كان يستقلها فوق المدرسة التى كانت تتعلم فيها « أمارانتا أورسولا » ، اثر ارتطامها ببعض الاسلاك الكهربائية العالية ، مما أدى الى اصابته برضوض غير خطيرة لحسن حظه ... ومن وقتها درج على اصطحاب « أمارانتا أورسولا » أيام العطلات من بيت الراهبات الذى كانت تقيم به ، الى حيث يقضيان وقتا طيبا فى ناديه الخاص .. وقد نبت الحب فى قلبيهما وهما يحلقان بالطائرة أمام الاحد على ارتفاع ألف وخمسمائة قدم فوق البرارى والمروج .... وكانت تحدثه عن مسقط رأسها فى ماكوندو مؤكدة أنها أجمل بلدة فى الدنيا ... وقد فهم جاستون أنها لن تتزوجه الا اذا صحبها للاقامة فى ماكوندو ... فقبل عن طيب خاطر ، كما قبل وضع الطوق الحريرى فى رقبته ، معتقدا أنها نزوة عابرة ستتكفل الايام بالتغلب عليها ... غير أنه بعد مضى عامين فى ماكوندو ، وبعد أن رأى « أمارانتا أورسولا » ظلت هانئة سعيدة كأول يوم لوصولها ، مالبث أن دب القلق الى نفسه ، خصوصا وقد تعقب جميع أنواع الحشرات فى ماكوندو واستوفى ارسال النماذج التى يريدها ... ورغبة منه فى ملء وقت فراغه الطويل ، فانه درج على تمضية ساعات الصباح فى غرفة مالكويداس مع أوريليانو الخجول ... وقد أعجبه منه اطلاعه الواسع ، ومعرفته لا باللغة السنسكريتية فقط ، بل كذلك بالانجليزية والفرنسية ، وقليل من اللاتينية واليونانية القديمة .. ولما

صار أوريليانو يخرج من البيت عصر كل يوم فى العهد الاخير وكانت « أمارانتا أورسولا » تعطيه مبلغا من النقود كل أسبوع لمصروفه الشخصى ، فان غرفته قد تحولت الى مايشبه فرعا لمكتبة القطالونى كان يقرأ بشراهة حتى وقت متأخر من الليل ، ولكن أكثر ما كان يستغرق اهتمامه هو التركيز على المخطوطات ، التى كان يخصص لها معظم ساعات الصباح .. وكان بود جاستون و « أمارانتاأورسولا» ادماجه فى الحياة العائلية ، بيد ان أوريليانو كان زاهدا ، تحف به سحابة من الغموض والخفاء كانت تزداد كثافة مع الايام ... وعندما فشل جاستون فى محاولاته لمصادقة أوريليانو ، لم يلبث ان تحول عنه لالتماس سبل أخرى معينة على قضاء وقته الطويل ... ومن هنا جاءت فكرته لانشاء خط جوى يربط ماكوندو بالعالم الخارجى ...

وفى الحق أن هذا المشروع لم يكن بالجديد عند جاستون .. فقد كان مختمرا فى ذهنه عندما التقى بأمارانتا أورسولا ، فيما عدا ان التفكير فى انشاء الخط الجوى لم يكن فى ماكوندو ، بل فى الكونغو البلجيكى ، حيث كانت لاسرته استثمارات قائمة ... وقد ادى زواجه وما تقرر أول الامر من قضاء شهور معدودة فى ماكوندو الى ارجاء تنفيذ الفكرة ... وعندما تبين أن زوجته مصرة على التوطن فى البلدة والعمل على تحسين احوالها ، لم يجد جاستون الا ان يعيد الاتصال بشركائه فى بلجيكا لتعديل المشروع وانشاء الخط الجوى فى منطقة الكاريبى بدلا من افريقيا ... وهكذا قام برحلات متتالية الى عاصمة الاقليم والتقى بالجهات المسئولة حيث حصل على التراخيص اللازمة وابرم العقود الخاصة بانشاء الخط الجوى ، ولم يبق الا وصول الطائرة لبدء العمل على الخط الجوى ..

ولقد احدثت عودة « امارانتا أورسولا » الى البيت الكبير تغييرا قويا فى حياة أوريليانو ، وان لم تلاحظ هى ذلك .. كان لا يزال على انطوائه وحيائه عندما عانقته كأخت وتركته لاهث الانفاس .. وفى كل مرة كان يراها ، وخاصة عندما كانت تريه الرقصات الجديدة ، كان يلابسه ذلك الاضطراب الغامر الذى لابس جده الاكبر عندما اخذته بلار تيرنيرا الى غرفة « الكرار » بدعوى قراءة طالعه من واقع أوراق اللعب .. ولكى يخمد ماكان يشعر به من عذاب فقد انكب بكل قوته على المخطوطات هربا من مداعبات تلك الحالة الفتية التى رغم براءتها كانت تسمم لياليه وتقض مضجعه .. ولكن كان كلما تحاشى لقاءها ،

اشتد به القلق والاضطراب وهو يسمع ضحكاتها الطروبة السعيدة تتردد ليلا فى أرجاء البيت وهى تسامر زوجها الى وقت متأخر ... لم يكن فقط يبيت ليله ساهرا مسهدا حليف الضنى ، ولكنه كان أيضا يمضى نهاره التالى محموما منتحبا من الحنق والاحتلام ... وكان يهيم على وجهه فى الطرقات شارد الفكر مضطرم الجوانح ، فاذا عاد الى البيت وقت الغروب ، دخل من الباب كغريب دون أن يسلم على « أمارانتا أورسولا » أو جاستون وهما يتناولان طعام العشاء فى مثل هذا الموعد عادة ، فيغلق على نفسه باب الغرفة ، عاجزا عن القراءة أو الكتابة أو حتى التفكير ، مضطربا من تلك الضحكات الدافئة والهمسات المثيرة التى كانت تؤجج مشاعره ..

لقد ظل على هذه الحال من المعاناة والضنى الى أن جاء ذلك اليوم الذى شعرت فيه « أمارانتا أورسولا » بالضجر من وحدتها لانهماك جاستون فى مشروع الطيران ، فجاءت الى أوريليانو فى غرفته .. قالت له :

ـ سلاما يامتوحش ! .. أمازلت ملازما كهفك ؟..

كانت ذات اغراء لا يقاوم ، وكانت مرتدية فستانا جذابا وعقودا متراكبة صنعتها جميعا بيديها ... وكانت قد توقفت عن استخدام الطوق لزوجها بعد أن اقتنعت باخلاصه ، ولاول مرة منذ عودتها الى البيت الكبير بدت وهى تنعم بالصفاء والدعة ... ولم يكن أوريليانو بحاجة الى رؤيتها رأى العين ليعرف أنها قد جاءت .. ولم تلبث أن وضعت مرفقيها على المنضدة بقرب كبير من مكانه حتى لقد سمع أوريليانو طقطقة عظامها ، وأبدت اهتمامها بالمخطوطات ... وفى محاولة من أوريليانو للتغلب على اضطرابه ، جاهد لاستبقاء صوته الذى كاد يخونه ، وانشأ يحدثها عن قداسة اللغة السنسكريتية والاحتمالات العلمية للتنبؤ بالمستقبل وضرورة المواظبة على محاولة فك رموز المخطوطات للكشف عن مضامينها الخفية التى استهدفها حكماء القرون الماضية ... ثم فجأة ، ودون ان يقطع أوريليانو الحديث وضع يده على يدها استجابة لرغبة كافية فى أعماقه ، ظنا بأن هذا القرار النهائى سيضع حدا لهواجسه ... واذا هى تمسك باصبعه السبابة بتلك المودة البريئة التى كانت تبدى مثلها أيام الطفولة ، وظلت ممسكة به وهو يتابع الرد على أسئلتها واستفساراتها ... وظلا متماسكين بالاصبع على هذا النحو الذى لم ينضج بأى

حساس الى أن أفاقت من حلمها العارض ولطمت جبينها بيـــدها هاتفة :

ـ النمل ! ..

وهنا نسيت كل شيء عن المخطوطات ، واتجهت الى الباب بخطوة راقصه ، ومن هنا طوحت الى اوريليانو بقبله على أطراف اصابعهـا [illegible] وجهتها الى ابيها عصر ذلك اليوم الذى ارتحلت فيـه الى بروكسل .. وقالت له :

ـ يمكنك ان تحكى لى فيما بعد ... نسيت أن اليوم هو موعد رش الجير على جحور النمل !..

وبعد استمرت تعرج على غرفة اوريليانو بين فينه واخـرى كلما أفتضت الاحوال ان تفعل شيئا فى ذلك الجناح من البيت ، فتمكث دقائق معدوده ، بينما يكون زوجها منهمكا فى دراسه مشروعاته .. ولما سجع اوريليانو بهذا التغيير اصبح يتناول الطعام مع الاسره لما لم يفعل ذلك منذ عوده « أمارانتا أورسولا » الى البيت ، وهـو ما ادخل السرور على نفس جاستون ... وخلال الحديث الذى كان يدور بينهم بعد الطعام ، كان جاستون يشكو من بعض التعقيدات التى عاقت تنفيذ مشروع الخط الجوى فى الوعد المقدر ، حتى لقد أعرب عن رأيه ذات مرة فى القيام برحلة قصيرة الى بروكسل لتسوية الموقف شخصيا والعودة مع الطائرة المنتظرة ذاتها ... بيد أن هذه الفـكرة لم تلبث أن تبخرت حالما كررت « أمارانتا أورسولا » عزمها على ألا تبرح ماكوندو حتى ولو فقدت زوجها ..

وفى الايام الاولى من وصول الزوجين الى ماكوندو كان أوريليانو يشارك فى الاعتقاد العام بأن جاستون شخصية بلهاء تركب دراجـــة كبيرة العجلة الامامية ، مما أثار فى نفسه احساسا غامضا قوامه الرثاء .. ولكنه لم يلبث بعد أن درس أطواره عن كثب أن قدر أن طبعه الحقيقى هو بعكس مسلكه الخاضع المستكين ، وقام فى نفسه شك خبيث بأن انتظـار وصول الطائرة ليس الا من قبيـــل الافتعـال والتمويه .. وعندئذ بدا له أن جاستون ليس بالبلاهة التى يصور نفسه بها ، بل هو بالعكس رجل فى تمام القدرة والصبر ، رسم لنفسه ان يقهر زوجته بأن يضجرها بموافقته الدائمة على كل شيء ، وبعدم رفضه لاى رأى لها ، حتى يجيء اليوم الذى لا تعود فيه تطيق هـذا المسلك ، فتبادر بحزم حقائبها عائدة الى أوربا .. وهكذا اســتحال

رثاء أوريليانو الى نفور عنيف .. ولم يتمالك أن اجترا على تحـذير « أمارانتا أورسولا » من هذا الاسلوب .. فاذا هى تستخف بشكوكه، دون أن تفطن الى ماكان يعتمل فى نفسه من ضرام الحب والحسـد ... بل لم يخطر ببالها قط أنها تذكى فيه شيئا أكثر من المودة الاخوية، الى أن جرحت أصابعها ذات مرة وهى تحاول فتح معلبة للخوخ ، وسرعان ما اندفع اليها يمتص الدم بشراهة وتفان أرسلا قشعريرة فى ظهرها .. ثم ضحكت فى شيء من القلق ، قائلة :

ـ أوريليانو ! .. من يراك يظن أنك خفاش مصاص للدماء !...

وعندئذ انهار أوريليانو تماما .. فاهوى بقبلات متلاحقة على راحة يدها الجريح ، وكشف عن جوانحه المضطرمة فى سيل متدفق من الاعترافات قال فيها انه طالما استيقظ من نومه فى صميم الليالى يبكى من الوحدة كلما سمع ضحكاتها الطروبة الدافئة ، وطالما تسـلل الى مخدعها فى غيابها ليلقى نظرة محسورة على ملابسها ، وطالما ســطا على زجاجات عطرها متطيبا بها لكى تبقى ماثلة فى دنياه أطول أمـد ممكن ... والحق أن أمارانتا أورسولا قد فزعت من هذه الفـورة العاطفية الى حد جعلها تطبق يدها بعنف وتقول له بلهجة كانت اقرب الى بصقة :

ـ يا أحمق ! .. انا مسافرة على أول باخرة تتجه الى بروكسل !.

وفى بلواه المتعاظمة هذه لم يجد ملاذا الا فى حمى جدته الـكبرى بيلار تيرنيرا ، وان لم يعرف نسبه اليها ...

لقد سمع فى جولاته الاخيرة فى ماكوندو أنها تقرأ الطالع وتواسى المحزون وتطبب القلوب الجريحة ..

كانت جالسة فى مقعدها الهزاز لا تحفل بمر الزمن بعد أن جاوزت المائة والعشرين من عمرها ولم يبق لها الا أن تجتر الذكريات حلوها ومرها ... وما أن رأت أوريليانو حتى أيقنت من بروز عظمتى وجنتيه وملامح الانطواء البادية عليه أنه من سلالة بوينديا ... وكـان على استعداد للتدفق بالكلام حتى يجد التعاطف الذى يذيب عقدة الكرب التى كانت تخنقه ، بيد أنه لم يفلح الا فى بكاء مرير هز كيانه من الاعماق .. فتركته يسترسل حتى جفت دموعه وهى تخدش رأسه بأطراف أصابعها ، ودون أن يكشف لها انه يبكى من ضنى الحب فقد عرفت هى من فورها علة هذا البكاء ، وقالت له مواسية :

ـ كل شيء بخير ياطفلى ... والآن قل لى : من هى ؟ ..

وعندما اخبرها اوريليانو اطلقت ضحكة عريضة تفيض بالحنان ؛ فهى تعرف ان قلوب افراد أسرة بويندا لا تخفى عليها فيها خافيـــة وقد علمتها التجربة وتداول اوراق الطالع طوال قرن من الزمان أن تاريخ الاسرة هى بمثابة آلة تتكرر دوراتها عبر الزمن متشابهة متماثلة ... وفى النهاية قالت له باسمة :

ـ لا تقلق ... حيثما نكون هى الآن ، فستجدها فى انتظارك !..

وكانت الساعة هى الرابعة والنصف عندما خرجت « امارانتـــا اورسولا من الحمام » .. وراها أوريليانو تمر قرب غرفته بروب الحمام وقد لفت راسها بمنشفة .. فتبعها على أطراف أصابعه وهو يتعثر من سكرته ، ودلف الى مخدعها فى اللحظة التى فتحت فيها الروب ثم اطبقته مره ثانية فزعة مروعة ... فأشـــارت صامتة شطر باب الغرفة المجاورة التى كان بابها مواربا وانتى كان أوريليانو يعرف ان جاستون جالس فيها يهم بكتابة رسالته ..

قالت له بلا صوت :

ـ اذهب !..

ابتسم اوريليانو .. وطوقها بقوة .. فدافعت عن نفسها دفـــاعا عنيفا أسالت فيه دم وجهه بأظافرها .. وفى غمرة هذا الصراع الرهيب لم تستطع ان تفتح فمها بصراخ جزءا من الفضيحة المؤكده .. ولم تلبث أن خارت قواها ....

الفصل التاسع عشر

على الرغم من أن ماكوندو أصبحت بلدة شبه مهجـورة تكسوها الاتربة ويشوبها القيظ اللافح ، فان أوريليانو و « امارانتا أورسولا » كانا المخلوقين الوحيدين السعيدين فيها ، بل أسعد من فى الارض جميعا ...

لقد عاد جاستون الى بروكسل .. فعنـدما مل انتظار الطـائرة قام ذات يوم وجمع ضرورياته فى حقيبة صغيرة واخذ ملف اوراقـه ومراسلاته وارتحل وفى النية ان يعود بالطائرة ، « قبل أن يعلم آخر المطاف ان الشركة التى كان يفاوضها قد حولت الاتفاق الى جمـاعة من الطيارين الالمان عرضوا على الجهات المختصة مشروعا اكثر طموحا

من مشروعه » .. وهكذا خلا الجو لاوريليانو و « أمارانتا أورسولا » لكى يطلقا العنان لغرامهما ، حتى لم يحفلا بالنمل وهو يجتاح البيت أجتياحا ، كما هجر أوريليانو المخطوطات ولم يعد يفارق البيت ...

وفى فترات الصحو من حمى غرامهما العنيف كانت « امارانتـــا أورسولا » ترد على رسائل جاستون وقد بدا لها بعيدا عنها بعدا سحيقا وعارقا فى مشروعاته الى حد خالت معه ان عودته غدت مستحيله ...

وفجاه ، ومثل صاعقة تنقض من السماء ، تلقت « أمارانتا اورسولا» فى غمله النشوة نبأ قرب عودة جاستون بعد فشل مشروعه ... لقد فتحت هى واوريليانو أعينهما بعد زوال الغشاوه ، وغاصا فى أعمـق أعماق نفسيهما ، وتطلعا الى الرسالة وايديهما على قلبيهما ، وأيقنا انهما لصيقان أحدهما بالآخر الى حد يؤثران معه الموت على الافتراق .. وهكذا سطرت لزوجها رسالةكانت هى النقائض بعينها ، كـررت فيها الاعراب عن حبها له وشوقها لرؤياه من جديد ، ولكن فى نفس الوقت اعترفت اعترافا قدريا باستحالة العيش بغير أوريليانو .. وعلى عكس ماكانا يتوقعانه ، فقد بعث اليهما جاستون برد هادىء شـــبه « أبوى » ، أفرد فيه نحو صفحتين كاملتين كانتا بمثابة تحذير من تقلبات العاطفة ، مع فقرة اخيرة أعرب فيها عن أصدق تمنياته لهما بسعادة تماثل سعادته فى فترة زواجه القصيرة .. والحق ان هذا المسلك كان أبعد مايكون عن تصور « امارانتا أورسولا » الى حد أنها شعرت بالمهانة اذ رأت انها اعطت زوجها الذريعة التى كان يريدها لكى يهجرها لمصيرها .. أما اوريليانو فقد راح يسرى عنها ويبذل الجهد يبين لها انه يستطيع ان يكون فى مرتبة الزوج فى الضراء كمـــا فى السراء ، حتى أن المطالب اليومية التى حاصرتهما بعد أن نفدت البقية الباقية من نقود جاستون خلقت بينهما لونا من التضامن ان لم يـكن فى قوة الغرام المتقد الا أنه لم ينل من عاطفتهما المشبوبة ...

واصبحا ينتظران مولودا ... وخلال فترة الحمل حاولت « أمارانتا اورسولا » التكسب من صنع عقود للزينة من عظام الاسماك .. ولكن باستثناء فتاة الصيدلية المجاورة التى ابتاعت عددا محدودا منهـا ، لم تستطع ايجاد زبائن آخرين . وادرك اوريليانو لاول مـــرة ان حذقه فى اللغات ، ومعرفته الواسعة التى اكتسبها من دائرة المعارف المصورة ، وبراعته فى الاحاطة بالوقائع والاماكن البعيدة دونان تتوافر

له رؤيتها – كل اولئك كان غير ذى جدوى ، مثل علبة المجوهرات الحقيقية الخاصة بزرجته ،والتى لابد ان قيمتها كانت تساوى أكثر من كل ما يملكه سكان ماكوندو السابقون جميعا ...

لقد استطاعا البقاء بين الاحياء بمعجزة ... وعلى الرغم من أن « أمارانتا أورسولا » لم تفقد بهجتها وبشاشتها ، فقد اعتادت أخيرا أن تجلس فى مدخل البيت بعد الغداء فى لون من القيلولة تشوبه اليقظة والسهوم .. وكان أورليانو يصاحبها فى هذه الجلسات ... وكانا احيانا يبقيان هكذا صامتين حتى حلول الليل ، متقابلين ، بأعين تتبادل النظرات ، متحابين بتلك الفورة التى كانت لهما فى أول العهد بالغرام الفاضح ، فلا يملكان ازاء الشك فى المستقبل الا أن يديرا قلبيهما الى الماضى ... وفى هذا الماضى كانا يستعيدان صور الطفولة السعيدة عندما كانا يخوضانه فى مياه الامطار ويعبثان بالفقاقيع ، وعندما كانا يقتلان السحالى بوضعها حول رقبة أورسولا العجوز الكفيفة ، وعندما يممت « أمارانتا أورسولا » شطر المسبك عصر ذات يوم واخبرتها أمها فرناندا أن أورليانو الصغير ليس له اب معروف لانهم عثروا عليه فى سلة طافية فى النهر .. وكل ما استطاعا التوصل اليه بعد دراسة كافة الاحتمالات هو أن فرناندا لم تكن ام أورليانو ، ومالت « أمارانتا أورسولا » الى الاعتقاد بأنه ابن بيترا كوتيس ، تلك التى لم تذكر من امرها سوى الحكايات الشائنة عنها ، ومالبث هذا الافتراض أن ولد فى قلبها شيئا من الهلع ...

وعندما تعذب أورليانو بما بدا له من أنه أخ لزوجته ، فقد هرع الى الابرشية للبحث فى سجلاتها العطنة التى اكلها العث عن اثر يرشده الى أبويه .. ولما طال بحثه دون جدوى ، نظر اليه القس الكهل المقعد فى مكانه بسبب الروماتزم وسأله باشفاق عن اسمه ، فأجاب :

– أورليانو بوينديا ...

فقال له القس بلهجة قاطعة :

– اذن لا تتعب نفسك فى البحث ... منذ سنوات بعيدة كان هنا شارع بهذا الاسم ، وفى تلك الايام كان من عادة الناس أن يسموا مواليدهم بأسماء الشوارع ..

فقال أورليانو وهو يرتجف حنقا :

– هكذا ؟.. أنت أيضا لا تصدق ؟! ..

– اصدق ماذا ؟..

فرد أورليانو بقوله :

– ... ان الكولونيل أورليانو بوينديا خاض اثنتين وثلاثين حربا اهلية وخسرها جميعا ، وأن رجال الحكومة قتلوا بالرصاص ثلاثة آلاف رجل فى ميدان المحطة وحملوهم بالقطار والقوا جثثهم فى البحر ؟..

فتفرس فيه القس بنظرة رثاء وتنهد قائلا :

– آه ياولدى !.. يكفينى أن أتأكد أنك وأنا موجودان فى هذه اللحظة ...

وهكذا تقبل أورليانو « وأمارانتا أورسولا » قصة السلة الطافية ، لا لانهما صدقاها ، بل لانها وفرت عليهما الهلع .. وبتقدم عهد الحمل ازداد ارتباطهما واندماجهما فى العزلة المطبقة على البيت ذلك البيت الذى لم يكن يحتاج الا الى نفخة واحدة أخيرة لكى يتداعى ويتقوض ... وقد اقتصر وجودهما على جانب محدود فيه هو الذى يبدأ من مخدع فرناندا حتى بداية المدخل ، حيث كانت « أمارانتا أورسولا » تجلس لكى تخيط ثياب المولود المنتظر .. أما باقى المنزل فقد أصبح نهبا للدمار بفعل النمل وسائر الحشرات ، حتى أضطر الاثنان الى تحصين منطقتهما بعوازل من الجير ضد جحافل النمال ... وكان من جراء شعرها الطويل المهمل ، والبقع التى بدات تظهر على وجهها ، وتورم ساقيها ، وتشوه قوامها اللدن – كان من جراء هذا كله أن تغيرت « أمارانتا أورسولا » تماما ، فلم يعد ذلك المخلوق الذى كان ينضح شبابا عند وصولها الى البيت لاول مرة مع زوجها الاسير بالطوق حول رقبته ... ولكن ذلك لم يغير من حيويتها وروحها الوثابة ، اذ قالت مرة ضاحكة :

– من كان يصدق أن الامر سينتهى بنا الى أن نعيش كالمتوحشين !.

ومع هذا فقد أمضى أورليانو و « أمارانتا أورسولا » الشهور الاخيرة وأيديهما متشابكة ، وانتهى بهما الحب الى الولاء للطفل الذى جاءت بذرته فى سعار الحرام ... فاذا كان الليل وهما متعانقان ماكانا ليفزعا من تلك الطقطقة التى يحدثها النمل والعث ، وذلك الحفيف لنساء الحشائش فى الغرف المجاورة .. وكثيرا ما ايقظهما مسرى أشباح الموتى فى الظلام – كان يخيل اليهما أنهما يسمعان أورسولا العجوز وهى تغالب قوانين الخليقة للحفاظ على تسلسل الاسرة ، وجوزيه أركاديو بوينديا الكبير وهو دائب فى سعيه وراء

المخترعات ، وفرناندا فى صلواتها، والكولونيل أوريليانو بويندیا وهو يخادع نفسه بالحروب وصنع الاسماك الذهبية الصغيرة ، وأوريليانو الثانى وهو يقضى نحبه وحيدا فى غمار مجونه وفتونه ـ وعندئذ يبدو لهما أن هذا التحول الشبحى قادر على الانتصار على الموت ، فكان يسعدهما أن يمضيا فى حبهما فى كينونتهما الطيفية هذه الى ابد الآبدين ...

ثم جاء عصر يوم الاحد الذى شعرت فيه « امارانتا أورسولا » بآلام المخاض .. ولما جاءت القابلة مددتها على مائدة الطعام وجعلتها تقوم بحركات عنيفة الى ان غطت صيحاتها صراخ المولود الذكر الضخم الذى بزغ الى نور الوجود ... ومن خلال دموعها رات « امارانتا أورسولا » أنه سيكون واحدا من سلالة بويندیا الجبابرة بقوته ومخائل عزمه البادية عليه مثل جوزيه أركاديو الفحل ، وبعينيه المفتوحتين العرافتين مثل اعين من تسموا باسم اوريليانو ـ وكأنه نبؤة لبداية تسلسل الاسرة من جديد وتطهيرها من دنس الفواحش والفسوق واثقال العزلة والوحدة ...

وفى هذا لم تتمالك « امارانتا أورسولا » أن قالت :

ـ هو متوحش حقيقى .. سنسميه رودريجو ..

ولكن زوجها عارضها قائلا :

ـ لا .. سنسميه أوريليانو ، وسوف ينتصر فى الحروب الثانية والثلاثين ..

وبعد قطع الحبل السرى بدات القابلة تمسح بخرقة ماعلق بجسد الطفل فى ضوء المصباح الذى رفعه أوريليانو ... وعندئذ لم يروا الا بعد أن اداروا الطفل على بطنه ان به شيئا أكثر مما فى سائر الذكور ... فلما انحنوا فوقه لفحصه ، اذا هو ذيل خنزير ...

لم ينزعج كلاهما ... فان أوريليانو و « امارانتا أورسولا » لم يكونا عارفين بما كان فى سوابق الاسرة ، ولا تذكر تلك المحاذير المروعة التى قالتها أورسولا العجوز عما ينجم من تزاوج الاقارب ابناء الاسرة الواحدة ، كما ان القابلة سكنت روعهما بقولها أن الذيل يمكن قطعه بعد أن يصل الطفل الى مرحلة « التسنين » ... ثم حدث ما انساهما حالة الطفل ، فقد أصيبت « امارانتا أورسولا » بنزيف حاد عجز عن وقفه كل تطبيب القابلة ... وخلال الساعات الاولى حاولت « امارانتا أورسولا » الاحتفاظ بمرحها ودعابتها ، حتى امسكت بيد أوريليانو

المرتاع ورجته الا يقلق ، لان من كانت مثلها لا تموت ضد ارادتها ، هكذا قالت ، وانفجرت ضاحكة سخرية من محاولات القابلة ... ولكن عندما بدأ أوريليانو يفقد الامل ، اخذت بنيتها تتضاءل ، الى ان انتابها خدر النعاس ... وبعد جهود أربع وعشرين مضنية استعانوا فيها بكل ماقدروا عليه حتى الرقى والتعاويذ والابتهالات ، توقف النزيف فجأة دون مزيد من الاسعاف ، واستحال محياها الى النحول ، وزالت البقع من وجهها مخلفة هالة من المرمر ، وعادت اليها البسمة ..

كانت داهية لم يمن أوريليانو بأشد منها فى حياته ... وفى غمرات بلواه وضع الوليد فى السلة التى أعدتها له أمه سلفا ، وغطى وجه الجثة بملاءة ، وغادر البيت هائما على وجهه فى البلدة ... كان يبحث عن أحد ما يبثه مصابه ، ولما قادته قدماه الى مكتبه القطالونى وجده قد ارتحل عائدا الى بلاده ... فلم يستطع أن يغالب دموعه التى تفجرت لطول ماحبسها فى مآقيه امام فراش « امارانتا أورسولا » وهى فى دور الاحتضار .. وراح يلطم الجدار بقبضتى يديه حتى أدماهما ... وفى النهاية تذكر الطفل ، فقفل عائدا الى البيت ..

لم يعثر على السلة ...

تملكته اول الامر فرحة غامرة . فقد ظن ان « امارانتا أورسولا » قد استيقظت من الموت لكى ترعى الطفل ... لكن جثتها كانت كوما من العظام تحت الملاءة ... وعندما فطن الى انه عندما وصل الفى باب غرفة النوم مفتوحا ، لم يلبث ان يمم شطر غرفة الطعام ونظر فيها .. كانت الآثار والبقايا المتخلفة عن الولادة لا تزال كما هى ...

فقد بدا له أن القابلة ربما عادت فى وقت مامن أجل الطفل ، ووجد فى هذا الخاطر وقفة للراحة والتفكير ... فجلس فى المقعد الهزاز وهو نفس المقعد الذى جلست فيه من قبل أمارانتا وهى تلاعب الكولونيل جيريلدو ماركيز الشطرنج ، والذى جلست فيه بعد ذلك « امارانتا أورسولا » لتخيط ملابس الطفل قبل أن يولد ، وفى لحظة الذكرى الخاطفة شعر بأنه عاجز عن احتمال وقر ذلك الماضى فى قرارة روحه ، فاذا أضيفت اليه أثقال الحاضر كان الوقر أبهظ من أن يحتمله انسان ... وفى خلال ذلك راعه اصرار العناكب وهى تعمل دائبة بين شجيرات الورود الميتة ، وحفيف الهواء وهو لا يكل ولا يتوقف .. وعند هذا الحد وقع نظره على الطفل ..

كان كيسا يابسا منتفخا من الجلد ، التفت حوله نمال الدنيا كلها تسحبه شطر جحورها على امتداد الممشى الحجرى فى الحديقة ...

لقد عجز أوريليانو عن الحركة .. لا لانه شل من الهلع ، بل لانه تذكر فى هذه اللحظة الرهيبة المروعة تلك العبارة التى قـــراها فى مخطوطات مالكويداس والتى تقول : « ان أول السلالة سيربط فى شجرة ، وآخرها سوف تأكله النمال » ...

لم يكن أوريليانو فى كل حياته الماضية أصفى ذهنا مما كان الآن وهو يسمر أبواب البيت ونوافذه بالعوارض المتصالبة المتخلفة مـــن عهد فرناندا ، حتى لا تستدرجه أية مغريات من العالم الخـــارجى ، اذ قد عرف الآن أن مصيره مكتوب فى مخطوطات مالكويداس ...

وجدها سالمة من اى سوء ... وراح يفك طلاسمها صابرا مستعينا بمفاتيح الشفرة التى وفق اليها ،فى دراساته الطويلة الماضية والتى ادت تطورات حياته الاخيرة الى انقطاعه عن اتمامها .. لقد حشـــد مالكويداس وقائع تاريخ الاسرة على مدار قرن من الزمان ، وان ركزها فى مدى واحد سبق به الزمن .. وكان اوريليانو فى لهفة بالغة لمعرفة منشئه ، فجعل يتخطى الصفحات متعجلا فى الوقت الذى بدات الريح تهب فيه حارة مليئة بأصوات الماضى وحفيف الزهور الذابلة ، بيد أنه لم يحفل بها لانه مالبث ان اكتشف بواكير وجوده فى ذلك الجد الماجن الذى سعى عبر الجبال للفوز بامراة جميلة لم يجد عندها السعادةالتى كان ينشدها ... عرف فيهما « أوريليانو الثانى وفرناندا » ... واسرع يتابع خفايا منبته الى أن أطلع على واقعة حمل أمه « ميم » له بين العقارب والفراش الاصفر فى حمام وقت الغروب ، حيث اطفـأ شاب ميكانيكى سورة عاطفته بين ذراعى امراة منحته نفسها تمـردا على كافة القيم ... ولقد بلغ من شدة استغراق أوريليانو انه لم يشعر بالريح وهى تعنف وتستحيل الى عاصفة خلعت الابواب والنوافذ واطاحت بسقف الجناح الشرقى وخلخلت دعائم البيت .. فعنـدئذ فقط اكتشف أن « امارانتا اورسولا » لم تكن اخته ، بل كانت خالته ، وكان ثمرة خطيئتهما ذلك المولود الاسطورى الذى كتب عليه أن يكون آخر سلالة الاسرة ...

عند هذا الحد كانت ماكوندو أعصارا مروعا من الاتربة والانقـــاض المتطايرة ، ولكن أوريليانو مضى يقلب الصفحات ليجاوز وقائع حياته

الراهنة ويطلع على الفقرات التى تتنبأ بتاريخ وظروف وفاته .. وقبل أن يصل الى الصفحة الاخيرة كان قد أدرك مسبقا انه قد كتب عليـه ألا يبرح هذه الغرفة قط ، اذ خط فى لوح القدر أن بلدة السراب هذه ستمحوها الرياح من على ظهر الارض محوا وتزول ذكراها من الاذهان لحظة أن يفرغ أوريليانو بابيلونيا من فك طلاسم المخطوطات ، وان كل ماورد بها لن يتكرر فى مسار الزمان الى الابد ، لان السلالة التى قضى عليها بأن تعيش مائة عام من العزلة لن تتاح لها فرصة أخرى لامتداد البقاء على وجه الارض .

تمت

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق القومية : ٨٤/٣١١١

الترقيم الدولى : ٠ - ٠٩٤ - - ١١٨ - ٩٧٧ ISBN

هذه الرواية

في ابريل ١٩٨٣ أصدرت روايات الهلال رواية « الضحية » للكاتب الكولومبى الاشهر جبرييل جارسيا ماركيز الفائز بجائزة نوبل فى الادب « ١٩٨٢ » ، وفى نوفمبر التالى أصدرت لنفس المؤلف رواية « ليالى الحب والرعب » ، وهاهى ذى روايته الثالثة « لعنة ألغواية » التى تعد قمة اعماله واحدى شوامخ الروايات فى الادب العالمى بما تضمنته من غرائب الاحداث وخوارق الوقائع وعظائم المفاجآت ودقائق التحليلات ، وكان صدورها عام ١٩٦٥ بعنوان « مائة عام من العزلة » بعد تفكير وعمل استغرق اعواما مؤديا الى ذيوع شهرته كمؤلف عالمى راسخ القدم استطاع باقتداره وعبقريته ان يتربع على عرش الشهرة بين أساطين الرواية العالمية من طراز هوجو ودستويفسكى وديكنز وغيرهم ممن خلدتهم اعمالهم فى سجل التاريخ الادبى . ولا شك أن ترجمة هذه الرواية الى اللغة العربية لاول مرة بعد أن ترجمت الى اكثر اللغات العالمية هو رصيد يضاف الى ماقدمته روايات الهلال من أعماله التى تتلقفها دور النشر العالمية ويتهافت عليها القراء فى انحاء العالم المتحضر بالاقبال المتزايد . ويكفى فى وصفها أن الصحافة الادبية العالمية اجمعت على أن أحداثها الرائعة ووقائعها المثيرة تمتع المشاعر وتبهر العقول حتى ان القارئ يخرج من قراءتها وكأنه خارج من حلم مذهل يستأثر بالحواس الى أبعد مدى .